



ألكسندر بوشكين

# الأعمال الروائية

ترجمة: د. فؤاد المرعي



مكتبة ٦٠٣

603 | مكتبة

الأعمال  
الروائية

الطبعة العربية الأولى عام ٢٠١٨

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر  
صندوق بريد ٥٨٢٥  
الدوحة، دولة قطر

www.hbkupress.com

حقوق الترجمة © د. فؤاد المرعي، ٢٠١٨  
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة.

جميع الحقوق محفوظة.  
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة بدون الحصول  
على الموافقة الخطية من الناشر باستثناء في حالة الاقتباسات المختصرة التي تتجسد  
في الدراسات النقدية أو المراجعات.

الترقيم الدولي: ٩٧٨٩٩٢٧١٢٩٥٣٠

---

مكتبة قطر الوطنية بيانات الفهرسة - إنشاء - النشر (فان)

الأعمال الروائية : ألكسندر بوشكين / ترجمها عن الروسية فؤاد المرعي. - الطبعة العربية الأولى. - الدوحة : دار جامعة حمد بن خليفة للنشر ، 2018.

صفحة : سم

تدمك : 978-9927-129-52-0

1. بوشكين ، ألكسندر، 1837-1799. 2. الأدب الروسي -- القرن 19 -- تاريخ و نقد. 3. الأدباء الروس -- القرن 19 -- تراجم. ب. المرعي، فؤاد، مترجم. ج. العنوان.

PG3350.M57 2018

891.713 – dc23

201827086513

ألكسندر بوشكين

# الأعمال الروائية

ترجمها عن الروسية  
د. فؤاد المرعي

مكتبة | 603

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر  
HAMAD BIN KHALIFA UNIVERSITY PRESS



إلى الزميلتين الوفيّتين الدكتورة شهلا العجيلي  
والدكتورة علياء الداية  
اللتين لولا جهودهما لما وصل هذا الكتاب إلى القارئ.



## مقدّمة

### التنوير في أعمال بوشكين النثرية

يمكننا أن نعدّ عام 1830 عام النضج الروحي والفنّي لبوشكين. ففي خريف هذا العام أنهى الشاعر روايته الشعرية الشهيرة «يفغيني أونيجين»، وكتب خمسين عملاً شعرياً ونثرياً في مختلف الألوان الأدبية، من أهمّها مجموعة «قصص بيلكين» («الطلقة»، و«العاصفة الثلجية»، و«الحانوتي»، و«ناظر المحطة»، و«النيلة - الفلاحة») التي تجمع بين معارضتها (وهي تتضمّن أحياناً سخرية مقنّعة) للتعايير الأدبية الجاهزة، وبين محتواها الرمزي الفلسفي العميق. إنّها في الواقع أوّل عمل نثري واقعي في الأدب الروسي الكلاسيكي. لقد حوت هذه المجموعة، على الرغم من صغر حجمها، بانوراما حياة جميع طبقات المجتمع الروسي آنذاك، وقدّمت، لأوّل مرّة، الحياة اليومية للناس «العاديين» بوصفها عنصراً مكوّناً للتاريخ القومي، ذا أهمية شاملة.

غير أنّ نضج بوشكين الفنّي والفكري ترافق وازدياد وحدته وغرخته عن الجمهور والنقاد بسبب عدم فهمهم لمواقفه الاجتماعية والفنّية، فحتى بيلينسكي، هذا الناقد العظيم الذي اقترن اسمه باسم بوشكين، لم يفهم «قصص بيلكين» وقال إنّها «ليست جديرة بموهبة بوشكين أو اسمه، وهي شبيهة إلى حدّ ما بقصص كارامزين، غير أنّ قصص كارامزين كانت ذات أهمية عظيمة في وقتها، أمّا «قصص بيلكين» فمتخلّفة عن زمانها».

إنّنا اليوم، وبعد انقضاء أكثر من مئة وستين عاماً على موت الشاعر، اتّضحت خلالها الجوانب الاجتماعية والأدبية لسيرته، وتمّ الكشف عن الكثير من العوامل

التي لم تكن معروفة من قبل، وتعمّق فهمنا للأهمية التاريخية والفنية لبعض أعمال بوشكين ولإبداعه عمومًا، نعترض على رأي بيلينسكي في «قصص بيلكين»، ونؤكد أنّها عمل جدير بعقريّة بوشكين، كان له دوره الكبير في تطوّر الأدب الروسي اللاحق على طريق الواقعية والشعبية، فقد جسّد بوشكين حياة النبلاء في الريف في قصّته «النبيلة - الفلاحة»، وطرح موضوع «الإنسان الصغير» في «ناظر المحطّة»، القصّة القرية جدًّا بموضوعها وفضائها من قصّة غوغول الشهيرة «المعطف»، التي ستظهر بعد سنوات قليلة. والأمر لا يقتصر على ذلك، فثمّة في الأدب الروسي في القرن التاسع عشر ظواهر كثيرة تعود في جذورها إلى إبداعات بوشكين الشعرية والنثرية. من ذلك مثلاً، موضوع المدينة الكبيرة وتناقضاتها الاجتماعية، وهو موضوع تجلّى في قصّة بوشكين الرائعة «بنت البستوني» على نحو يقودنا بوضوح نحو إبداعات الروائي الروسي العظيم دوستوفسكي، ومن ذلك أيضًا حياة القرية الروسية وبؤس الفلاحين وتدنُّهم من نظام القنانة.

لقد صار هذا الموضوع موضوعًا مركزيًّا في أعمال بوشكين النثرية في ثلاثينات القرن التاسع عشر، ففي خريف عام 1830 يبدأ في قرية بولدينو كتابة قصّته «تاريخ قرية غوريوخينو» وهي صورة بانورامية ساتيرية تُظهر الانهيار التدريجي للقرية في ظلّ نظام القنانة، وفقر الفلاحين وتعسّف الإقطاعيين ووكلائهم، والتمرد الفلاحي.

وفي عام 1832 يشرع بوشكين في كتابة روايته «دوبروفسكي» التي طرح فيها إلى جانب قضايا كثيرة، مسألة العلاقة بين الفلاحين والإقطاعيين. إنّ «دوبروفسكي» لوحة كبيرة تصوّر حياة النبلاء في الريف وطباعتهم، ويبلغ فيها بوشكين ذروة الاقتدار الفنّي في تصويره لأمزجة الفلاحين الأقنان المعادية للإقطاعية.

وكان من الطبيعي بالنسبة لبوشكين أن يقوده تفكيره في قضايا الفلاحين في «دوبروفسكي» إلى الاهتمام ببوغاتشوف، قائد الثورة الفلاحية في القرن الثامن عشر، فزار الأماكن التي وقعت فيها أحداث تلك الثورة (قازان، وأورينبورغ،



وقرية بيردسكايَا سلوبودا الشهيرة) واستمع إلى كبار السن الذين عرفوا بوغاتشوف، وجمع الأغاني الشعبية التي نُظمت حوله، وفي عام 1834 أصدر كتابه «تاريخ بوغاتشوف».

تجدر الإشارة هنا إلى أنَّ بوشكين فكَّر وهو يشتغل على رواية «دوبروفسكي» بكتابة عمل فني يتناول فيه انتفاضة بوغاتشوف، وفي خريف عام 1836 انتهى من كتابة روايته التاريخية «ابنة أمير القلعة»، التي رسم فيها صورة ساطعة لبوغاتشوف والانتفاضة الفلاحية العفوية الواسعة ذات الطابع الشعبي الشامل. فقد اتَّسمت رواية بوشكين التاريخية هذه باتحاد أصيل بين الخيال والأحداث التاريخية الحقيقية المصوَّرة فيها، فكتب عنها الناقد الثوري الديمقراطي بيلينسكي: «إنَّ «ابنة أمير القلعة» هي «أونيغين» نثرًا. لقد صوِّر فيها الشاعر طباع المجتمع الروسي في عهد يكاترينا. إنَّ كثيرًا من لوحاتها هي من حيث الصوابية وصدق المحتوى ومهارة التصوير - معجزة في الكمال».

لقد أسَّس بوشكين بأعماله التالية: «تاريخ قرية غوريوخين» و«دوبروفسكي» و«ابنة أمير القلعة» بداية ذلك الاهتمام بالمسألة الفلاحية التي أصبحت منذ الأربعينات محورًا أساسيًا في الفكر الروسي والإبداع الأدبي للكتَّاب الروس العظماء في القرن التاسع عشر. فكلُّ بطل من أبطال أعمال بوشكين المذكورة يفتح أفقًا مهمًّا من آفاق الحياة الاجتماعية الروسية في القرن التاسع عشر. والتحليل الجريء والدقيق، الاجتماعي والنفسي، للشخصيات المجسَّدة في تلك الأعمال يُرغم القارئ على الإقرار بأنَّ الكاتب صوِّر واقع روسيا ذلك الزمن بصدق وعمق مذهشين، فوسَّع بذلك ينابيع الأدب الروسي، وحوَّله إلى عنصر هامٍّ من عناصر الحياة القومية الروسية، وعرض نماذج جديدة لا تُحصى مأخوذة من الحياة الروسية في عصره.

ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ أعمال بوشكين الثرية، الشديدة الالتصاق بالواقع الروسي، القومية في جوهرها، لا تكتسب أهمَّيتها من كونها تحمل سمات إثنوغرافية معيَّنة أو تكيل المدائح للشعب الروسي، بل تكتسب تلك

الأهمية لكونها اتّسمت بحريّة روحية مطلقة، واتّصفت بطلاقة تسمو اجتماعيًا وأخلاقيًا فوق التحزّب، طلاقة لا يمكن أن تكون إلّا في الزمان الروسي المتميّز. وقارئ بوشكين لا يستطيع إلّا أن يؤكّد أنّ بوشكين لم يكن من دعاة المحليّة أو التعصّب الطائفي أو المذهبي، بل هو مبدع إنساني النزعة، لم يكتفِ بإنشاء أغنى النصوص بالمحتوى فوق الإثني والطائفي، بل أكسب هذه النصوص أيضًا قدرة إقناع فكرية وأخلاقية وجمالية لا مثيل لها. ففضل بوشكين لا يكمن في أدبية ما أبدعه من شعر ونثر فحسب، بل يتجلّى أيضًا فيما هو أهمُّ من ذلك بكثير، أعني دوره التنويري الموقظ للوعي الاجتماعي. فإبداعاته تمتلئ إلى جانب فنيّتها العالية، قيمًا أخلاقية سامية تُطوّر في المتلقّي إنسانيّة الإنسان، وتحضّنه على احترام الكرامة الإنسانية.

لقد صار بوشكين عبقرية قومية روسية وعبقرية عالمية بالقدر نفسه، لأنّه استطاع أن يُعطي العقلانية التنويرية مصداقية المعاناة الشعبية، وأعطى العاطفة والتجربة الشعبية قدرة إقناع التنوير المنطقية. إنّ لغة بوشكين في أعماله النثرية، هي اللغة التي نُترجم بها، بالقدر نفسه من الحرّيّة، المحليّة إلى إنسانية شاملة، والإنسانية الشاملة إلى محليّة.

لكنّ بوشكين، على الرغم من التعاطف العظيم الذي أبداه تجاه معاناة الشعب المضطّهد، وعلى الرغم من إدراكه التامّ لظلم الإقطاعيين وقسوتهم على الفلاحين، لم ينظر إلى الانتفاضة الفلاحية العفوية وسيلةً ناجعةً لحلّ التناقضات الاجتماعية في الحياة الروسية، بل رأى فيها قوّة تدميرية تفتقر إلى مقوّمات الخلق والإبداع. وهذا ما دعا عددًا غير قليل من الكتاب والنقاد في القرنين التاسع عشر والعشرين إلى اعتبار هذا الموقف ضعفًا في نظرة الشاعر إلى العالم، ووهماً من رواسب انتمائه إلى طبقة النبلاء. ولم يلحظ هؤلاء أنّ بوشكين، هذا الإنسان الأرستقراطي الذي يكاد يكون أبيقوريًا في بعض جوانب نظرته إلى العالم، استطاع في إبداعاته الشعرية والنثرية أن يدمج حرمانات الحياة وصراعاتها ومآسيها، في البنية المنطقية الميتافيزيقية للوجود البشري على هذه

الأرض، بطريقة جعلت مشاعر الأسى والحسد والحقد، التي تبدو حتمية، تتحوّل إلى شعور ناضج راشد بالمصير الفريد الذي يجب أن تحمل معاناته بكرامة. لم يدعُ بوشكين الناس أبدًا إلى الاستسلام وطول الصبر، بل علّمهم عزّة النفس، فجسّد في إبداعاته، ولا سيّما النثرية، أسمى المهارات الوجودية الموهوبة للإنسان: إنّها معرفة اللحظة التي يتحوّل فيها الصبر من تعبير عن عزّة النفس إلى تعبير عن عيب الخضوع العبودي، واللحظة التي يتحوّل فيها نفاذ الصبر من تعبير عن غضب العاطفة المهانة المشروع أخلاقيًا، إلى حساسية تاريخية تدفع بالتاريخ القومي نحو انهيارات ومآسٍ لا مثيل لها.

لقد أسند بوشكين لأعماله النثرية وظيفة خاصّة هي التنوير، الأمر الذي انعكس بوضوح في لغتها وسماتها الفنيّة الواقعية، فهي لم تكن تهدف إلى التحريض على الثورة، بقدر ما كانت تسعى إلى نشر الوعي واكتشاف سمات الواقع التاريخي من خلال دراسة الواقع المعيش، فكان هذا، من دون أدنى شكّ، اعترافًا بوشكينًا في الأدب الروسي، استند إلى دراسة قوانين الوجود الموضوعية وهي تعمل من خلال سلوكيات أفراد، وفي ظروف تاريخية محدّدة. وقد حدّد بوشكين نفسه طريقته هذه بقوله: «إنّها بحث عميق وشريف وجادٌ عن الحقيقة»، وتحليل «لتناقضات الوجود الأبديّة» التي تكوّن الحياة. إنّ هذه الطريقة التي تدرس الظواهر المحدّدة من خلال قوانين الحياة الإنسانية الشاملة منحت أعمال بوشكين وجوهاً لا حصر لها وجعلتها «معاصرة أبدًا» وذات دلالات عميقة ومتعدّدة، صاغتها عبقرية صياغة لا مثيل لها في انسجامها وكمالها وتماسكها وجمالها.

أضف إلى ذلك أنّ هذه الطريقة مكّنت بوشكين من تجسيد نظريته إلى الإنسان الفرد بوصفه عضوًا كامل الحقوق، فاعلاً في التاريخ الإنساني الكبير، وحرًا في سلوكه، ومسؤولًا عنه. وهنا تكمن جذور إنسانية بوشكين ومواطنيته وسموّه الأخلاقي وصدقه وواقعيته وشعبيته، التي برزت في أعماله وصارت تقاليد راسخة في واحد من أعظم آداب العالم، هو الأدب الروسي.

إن أعمال بوشكين النثرية التي وضعت الأسس لكل الألوان النثرية في الأدب الروسي بدءاً من أدب الرحلات إلى الخواطر، فالرواية والرواية التاريخية والقصة الفلسفية، هي بداية تكوّن منظومة روحية خاصّة، وظاهرة تاريخية حضارية جسّدها عباقرة الأدب الروسي في القرن التاسع عشر بإبداعاتهم التي ناقشت الأسئلة الكونية من خلال المسائل الروسية، بدرجة من الجرأة والحرية والعمق لا مثيل لها في أيّ أدب آخر.

قد يظنّ القارئ العربي أننا نبالغ في تقويم أعمال بوشكين النثرية، وله الحقّ في ذلك. فمؤسّسات النشر العربية، وكذلك الروسية المهتمة بترجمة الأعمال الإبداعية والنقدية إلى اللغة العربية، قدّمت بوشكين شاعراً قومياً لروسيا، وهو كذلك بالتأكيد، ولم تولّ إبداعاته النثرية حقّها من الاهتمام، ربما لأنها وجدت أنّ صفة الشاعر هي الصفة القائدة في شخصية بوشكين، أو لأنّ اهتمام النقاد في القرن التاسع عشر والعشرين بأعماله النثرية لم يكن بالمستوى الذي تستحقّه، بسبب عدم فهمهم لمواقفه الاجتماعية التنويرية وطريقته الفنيّة الواقعية. يُضاف إلى ذلك أنّ ترجمة بعض أعمال بوشكين النثرية جرت بطريقة انتقائية تعسّفية، وقام بها مترجمون لا تُنكر موهبتهم ومهنيّتهم الرفيعة المستوى، ولكنّهم فعلوا ذلك إمّا عن طريق لغة وسيطة (ترجمة سامي الدروبي لرواية بوشكين «ابنة أمير القلعة» مثلاً) وإمّا باحترافية بدت حريصة على المعنى المعجمي، من دون مراعاة طريقة استخدام هذه الصياغة اللغوية أو تلك. ونحن نعني هنا، قبل كلّ شيء، نقل السمات الفنيّة - الأدبية للنصّ البوشكيني (ترجمة أبو بكر يوسف لرواية بوشكين «دوبروفسكي» مثلاً).

صحيح أنّ السمات الموضوعية للعمل الأدبي تحدّد خصائص نقله اللغوية، ولكنّ الأمر لا يتمّ بهذه البساطة، بل هو يزداد تعقيداً بسبب عوامل ذاتية، منها قدرة المترجم على إعادة تجسيد العمل المترجم بلغته القومية، وموقفه من القيم الفنيّة والروحية في النصّ الذي يترجمه. فإذا كانت المعطيات الموضوعية تحدّد، قبل كلّ شيء، بطبيعة العلاقة بين العمل المترجم والقواعد

المعاصرة في الأدب القومي للمترجم، فإنَّ المعطيات الذاتية تجد تعبيرها من خلال العلاقة بين الذوق الأدبي والجمالي للمترجم، وبين الخصائص الفكرية والجمالية للأصل الذي يقوم بترجمته.

من هذا المنطلق، تجرأت فأعدت النظر في أعمال بوشكين النثرية التي تمَّت ترجمتها، لا سيَّما وأنَّه قد مضت على تلك الترجمة عشرات السنين، لا بل تجرأت فترجمتُ الإبداعات النثرية لبوشكين كلّها، فالمكتبة العربية بحاجة شديدة إلى هذه الأعمال وما يماثلها في عصر العولمة والصرعات الفنِّية الداعية إلى التخلّي عن وظيفة الفنِّ التنويرية الاجتماعية والأخلاقية، بحجّة الدفاع عن حرّية الفنِّ وإطلاق قدرة الخيال عند الفنان على الخلق والإبداع، وكأنَّ التنوير الاجتماعي والأخلاقي يقيّد الفنِّ، وكأنَّ الواقعية تحول بين الخيال عند الفنان والقدرة على الخلق والإبداع!

د. فؤاد المرعي

2018



## حبشي بطرس الأكبر

بإدارة بطرس الحديدية

تغيّر وجه روسيا.

من قصيدة «آلا» (1824)

ن. يازيكوف

كُتبت هذه الرواية في عام 1827، لكنّ بوشكين، الذي رحل عام 1837، لم يُكملها. أمّا العنوان فابتكره المحرّرون الذين نشروا النصّ بعد موته، في عام 1837.

نشأت عند بوشكين فكرة صياغة سيرة حياة جدّه، هانيبال، أدبياً، في عام 1825، فهو كتب حينذاك لأخيه: «أنصح ريليف أن يُسمّي في قصيدته الجديدة، جدّنا كواحد من أفراد حاشية بطرس الأوّل. إنّ سحتته الحبشيّة تؤثر تأثيراً غريباً في لوحة معركة بولتافا كلّها». أبرام هانيبال جدّ بوشكين الأكبر لأُمّه الصديق المقرب من بطرس الأوّل. استقى بوشكين معلوماته عنه من مصادر مختلفة. فقد

جاء في رسالة له عام 1825 أنّه ينوي الالتقاء بـ «أخي جدّه الحبشيّ العجوز»، ومن بتر إبراموفيتش هانيبال بالذات، حصل بوشكين، على سيرة حياة جدّه الأكبر التي كُتبت باللغة الألمانية، وكانت مزينة كثيرًا ومبالغًا فيها. وقد أورد بوشكين في روايته من دون تعمّد، مشاهد من تلك السيرة، رغم مخالفة المشاهد المستخدمة للوقائع الحقيقية. إنّه، عمومًا، لم يُنظر إلى روايته بوصفها عرضًا حقيقيًا لحياة جدّه الأكبر، وغير، عن وعي، الكثير من الأحداث فيها، فزواج هانيبال التيس، الذي كان عماد تسلسل الأحداث في الرواية، يعود إلى عهد حكم آنا إيوانوفنا، وليس إلى عهد بطرس. وهانيبال تزوّج من اليونانية يفتوكيا ديوبير وهي ابنة بحّار. واستخدم بوشكين في روايته البحوث التاريخية أيضًا: كتاب غوليكونوف «إنجازات بطرس العظيم»، ومجموعة أبحاث كورنيلوفيتش (الديسمبريئون) و«ماضي روسيا»، فمصادر وصف الحفلات مأخوذة من الفصل المتعلّق بذلك في كتاب غوليكونوف، ومن مقالة بعنوان «حفلات الرقص الأولى في روسيا» في مجموعة كورنيلوفيتش.



## الفصل الأول

مكتبة  
t.me/t\_pdf

أنا في باريس،

بدأت أتنفّس، بل بدأت أحيّا.

ديمترييف - مجلة «بوتيشيستيفيك»<sup>(1)</sup>

إبراهيم الحبشي، ربيب القيصر، واحد من الشباب الذين أوفدهم بطرس الأكبر إلى بلاد الغربّة لتحصيل المعارف الضرورية للدولة التي جدّد بناءها. درس في معهد باريس الحربي، حيث تخرّج نقيّاً في المدفعية، وأظهر تفوّقاً في الحرب الإسبانية - الفرنسية، لكنّه أصيب بجراح بليغة، فعاد إلى باريس. وكان الإمبراطور، على الرغم من انهماكه في أعماله الواسعة، يستعلم دائماً عن حبيبه، فيتلقّى شهادات سارّة على نجاحاته وسلوكه، الأمر الذي جعله راضياً عنه كلّ الرضا. وقد دعاه مرّات عديدة للعودة إلى روسيا، غير أنّ إبراهيم لم يكن يستعجل العودة، لذا كان يتملّص من الاستجابة لدعوات القيصر متذرّعاً بحجج مختلفة: بجراحه تارة، وبرغبته في استكمال معارفه تارة ثانية، وبعدم كفاية ما لديه من نقود تارة ثالثة، فيتقبّل القيصرُ أعذاره ويطلب منه أن يهتمّ بصحّته، ويشكر له حماسه في العلم، ولا يخل عليه، وهو المقتصد جدّاً في الإنفاق، بالنقود التي كان يرسلها مشفوعة بالنصائح الأبوية والوصايا المحذّرة من المخاطر. تشهد الكتابات التاريخية كلّها أنّه ما من شيء يمكن أن يُقارن باستهتار الفرنسيين وطيشهم وفخامة عيشهم في ذلك الزمن. لقد اشتهرت الأعوام الأخيرة

---

(1) من قصيدة إي. ديمترييف «رحلة ن. ن. في باريس ولندن»، المكتوبة على لسان ف.

ل. بوشكين (عمّ ألكسندر بوشكين).

من عهد لويس الرابع عشر بطيش البلاط الشديد، الذي لم يُبقَ أيُّ أثرٍ للانضباط والحياء، فدوق أورليان، الذي جمع في شخصه سمات رائعة وعيوبًا من شتى الأنواع، لم يكن، لسوء الحظ، يتَّصف بأيَّة ذرَّة من الرياء. لذا لم تكن حفلاته الماجنة في باليه رويال سرًّا تجهله باریس، بل صارت مثالًا شديد العدوى. وساد، آنذاك، سلوك اقترن فيه الجشع للمال بالظمأ للملذَّات والاستهتار، فاخفت الأملاك، وانعدمت الأخلاق، وراح الفرنسيون يضحكون ويننون الآمال، في حين كانت الدولة تنهار على وقع الألحان المخاتلة للفودفيلات الساخرة. في ذلك المناخ، شكَّلت الأوساط الاجتماعية لوحةً طريفة جدًّا، وقاربت الثقافة والرغبة في المرح بين أحوال الناس، فالثروة، واللفظ، والمواهب، والغربة ذاتها، وكلُّ ما يُغذِّي الفضول أو يَعُدُّ بالمتعة مرخَّب به بالقدر نفسه. أمَّا الأدب والعلم والفلسفة، فأمر هجرت مكاتبها الهادئة وظهرت في دوائر المجتمع الكبير، تُرضي الموضة وتوجَّهها بما تقدَّمه من آراء. وسادت النساء، ولكنَّهن تخلَّين عن المطالبة بأن يكنَّ معبودات، وحلَّت اللباقة السطحية محلَّ الاحترام العميق. إنَّ ألعاب روسيليه واندفاعات أثينا الجديدة مُلكٌ للتاريخ، ولكنَّها تُعطي تصوُّرًا عن أخلاق ذلك الزمن.

“Temps fortuné, marqué par la licence,  
Où la folie, agitant son grelot,  
D'un pied léger parcourt toute la France,  
Où nul mortel ne daigne être dévot,  
Où l'on fait tout excepté penitence”<sup>(1)</sup>

(1) «الزمن السعيد، زمن الطباع المتحرِّرة من كل قيد،

حين يهرول الطيش دافعًا أجراسه،

بخطوات رشيقة عبر فرنسا كلَّها،

حين لا يقبل أحد من الزائلين أن يكون تقيًّا،

حين يبدو الجميع مستعدًّا لكل شيء إلا الندم والتوبة» (عن الفرنسية).

آنذاك، أثار إبراهيم اهتمامًا عامًا في باريس بمظهره وثقافته وذكائه الفطري، وتمنّت السيّدات كلهنّ أن يرين *le nègre du Czar*<sup>(1)</sup> في بيوتهنّ، وكنّ يتخاطفنه. فقد دعاه نائب الملك أكثر من مرّة لحضور حفلاته المسائية، وكان حاضرًا في حفلات العشاء التي أكسبها الحيوية شباب آرويت<sup>(2)</sup>، وحماسة شوليو، وأحاديث مونيسكيو وفونتينيل. لم تكن تفوته أيّة حفلة راقصة، أو أيّ عيد، أو أيّ عرض مسرحي أوّل، وقد استسلم للتّيّار العجاف بكلّ عنفوان شبابه وجنسه الأفريقي. لكنّ فكرة استبدال هذا الانفلات، وهذه المُتّع الرائعة، بالبساطة الصارمة في بلاط بيتربورغ، لم تكن الأمر الوحيد الذي يُخيف إبراهيم، فثمّة أمور أخرى كانت تشدّه بقوة إلى باريس. لقد وقع الأفريقي الشاب في الحبّ.

لم تكن الأميرة د. في سنوات شبابها الأولى، حين خرجت من الدير، ولكنها اشتهرت بجمالها. لقد زوّجوها وهي في السابعة عشرة من عمرها، لرجل لم يتّسع لها الوقت لتحبّه، ولم تهتمّ بذلك أبدًا فيما بعد، فقد نسبت إليها الشائعات عددًا من العشّاق، غير أنّها تمّتعت بسمعة طيّبة بفضل تساهل المجتمع في هذه الأمور. أضف إلى ذلك، أنّها لم تكن في أيّ يوم موضع لوم بسبب مغامرة مارست فيها الإغواء أو أثارت السخرية. أمّا بيتها، فكان أكثر البيوت مراعاة للموضة، يجتمع فيه أفضل أناس المجتمع الباريسي. وقد عرّفها بإبراهيم ميرفيل الشاب الذي كان يُعدّ عمومًا آخر عشيق لها، ويسعى إلى الإحياء بذلك بشتّى السبل.

استقبلت الأميرة إبراهيم باحترام، ولكن من دون إبداء أيّ اهتمام خاص، فأعجبه ذلك. الآخرون كانوا، عادة، ينظرون إلى الزنجي الشابّ نظرهم إلى عجيبة من العجائب. يحيطون به وتنهال عليه التحيّات والأسئلة، فيشعره هذا الفضول بالمهانة، على الرغم من إخفائه وراء قناع من الودّ. ولم يكن اهتمام

(1) زنجي القيصر.

(2) فولتير

النساء اللذيذ، الذي يكاد يكون غاية كل ما يبذلنه من جهد، يُبهج قلبه، بل على العكس من ذلك، يملؤه حسرة وغضبًا، فيشعر أنه في نظرهن نوع من الوحوش النادرة، مخلوق متميِّز، غريب، جيء به مصادفة إلى هذا العالم الذي لا يمتُّ إليه بأية صلة، ويحسد من لا يلحظهم أحد، عَادًا ضآلتهم ضربًا من النعمة.

لقد خلَّصته قناعته بأنَّ الطبيعة لم تخلقه لتبادل اللذات والأهواء، من الاعتداد الزائد بالنفس وأطماع الأنانية، الأمر الذي أضفى على تعامله مع النساء جمالًا نادرًا. كان حديثه بسيطًا ومهمًّا، وقد أعجب ذلك الأميرة د. التي ملَّت النكات المكرورة والتلميحات المرهفة التي يتميِّز بها الذكاء الفرنسي. صار إبراهيم يتردَّد كثيرًا على بيتها، فألفت بالتدريج مظهر الزنجي الشاب، بل باتت ترى شيئًا ما مريحًا في ذلك الرأس الأجدع الشعر الذي يلوح سواده بين الشعور المستعارة المصبوغة بالبياض في صالونها. (كان إبراهيم جريح الرأس، يضع على رأسه ضمادًا بدلًا من الشعر المستعار). كان في السابعة والعشرين من عمره، طويل القامة، رشيقًا، ترمقه فتيات كثيرات بنظرات تعبَّر عن مشاعر أكثر حرارة من مجرد الفضول، ولكنَّ إبراهيم لم يكن، بسبب قناعته المسبقة، يلحظ شيئًا من ذلك، أو أنه كان يعدُّه تدلُّل نساء. غير أنَّ الحذر كان يفارقه حين تلتقي عيناه عينيَّ الأميرة. كانت عيناها تعبَّران عن طيبة مفعمة بالموَدَّة، وتعاملها معه بسيطًا جدًّا، وطبيعيًّا جدًّا، إلى حدِّ يستحيل معه على المرء أن يلمح فيه أيَّ ظلٍّ للدلال أو السخرية.

لم يخطر الحبُّ في باله، ولكنَّ رؤية الأميرة يوميًّا صارت بالنسبة إليه أمرًا ضروريًّا يسعى إليه في كل مكان، ويرى في كل لقاء معها هبة مفاجئة من السماء. لقد أدركت الأميرة حقيقة مشاعره قبل أن يدرك ذلك هو نفسه. ومن المعروف، على كل حال، أنَّ الحبَّ من دون أمل أو أطماع يمسُّ قلب الأنثى بصدق يفوق كل محاولات الإغراء المتكلِّفة. كانت الأميرة، حين يحضر إبراهيم، تتابع كل حركاته، وتصغي إلى كل ما يقول. أمَّا في غيابه، فتغرق في أفكارها وتقع في حالة الشرود التي عُرفت بها. وكان ميرفيل أوَّل من لاحظ الميل المتبادل

بين الأميرة وإبراهيم فهتأ على ذلك. لا شيء يؤجج نار الحب مثلما تؤججه ملاحظة مشجعة من شخص ثالث. الحب أعمى، ولأنه لا يثق بنفسه، يتشبث سريعاً بأي شيء يسانده.

أيقظت كلمات ميرفيل إبراهيم. لم تكن فكرة امتلاك المرأة المحبوبة قد راودت خياله من قبل، ولكن الأمل بذلك أضاع روحه الآن، فتملكه العشق إلى حد أفقده الوعي. وعبثاً حاولت الأميرة، التي أخافها حرارة هواه، أن تقاوم ذلك بتقديم الصداقة والنصائح الداعية إلى التعقل، فضعفت هي نفسها، وتالت بسرعة تنازلاتها الطائشة، إلى أن جرفتها أخيراً قوة عشقه التي طغت على روحها وأعيثها، فاستسلمت لعاشقها إبراهيم...

لا شيء يخفى على أنظار المجتمع الدقيق الملاحظة، فسرعان ما صارت العلاقة الجديدة للأميرة معروفة للجميع. استغربت بعض السيدات خيارها، ورأت كثيرات أخريات أنه خيار طبيعي جداً. بعضهن ضحك وأخريات رأين فيه طيشاً لا يُغتفر ارتكبه الأميرة. في نشوة العشق الأولى لم يلحظ إبراهيم والأميرة شيئاً. لكن، سرعان ما صارت تبلغ سمعيهما دعابات الرجال ذات المعنى المزدوج وملاحظات النساء الجارحة. وقد حمت إبراهيم، إلى حين، ردات فعله الرزينة الباردة من هذه الهجمات، ولكنه راح بعد ذلك يتضايق منها ويحار في كيفية صدّها. ولم تستطع الأميرة التي اعتادت أن يعاملها المجتمع باحترام، أن تتقبل ببرود تحولها إلى موضوع للإشاعات والسخرية. فراحت، تارة، تشكو حالها باكية لإبراهيم، وتارة، تلوم نفسها بمرارة، وترجوه ألا يدافع عنها كي لا تقتلها تماماً الضجة العبيثة المثارة حول الموضوع.

نشأ ظرف جديد زاد من تعقيد وضع الأميرة، فقد ظهرت عاقبة الحب الطائش. تبددت الشكوك ولم تُجدِ النصائح والاقتراحات نفعاً، فانهارت كلها. وتجلّى للأميرة هلاكها المحتّم، فراحت تنتظره مستسلمة يائسة.

سرعان ما بات وضع الأميرة معروفاً، فانطلقت الأقاويل بقوة جديدة. تأوّهت النسوة المرهفات الحسّ لهول الحدث، ولطم الرجال جباههم متسائلين

عن الطفل الذي ستنجبه: أهو أبيض أم أسود؟ وانهمرت القصائد الساخرة التي تناولت زوجها، فهو الوحيد في باريس، الذي لم يكن يعرف شيئاً أو يشك في شيء.

اقتربت اللحظة المصيرية. وبلغت حالة الأميرة حدَّ الفظاعة. كان إبراهيم يزورها في كل يوم، يرى كيف أنَّ قواها الروحية والجسدية تتلاشى تدريجيًا. كان دمعها ورعبها يتجددان في كل لحظة. وأخيرًا، أحسَّت بآلام المخاض الأولى. فتمَّ اتِّخاذ التدابير على وجه السرعة: وجدا طريقة لإبعاد الأمير. وجاء الطبيب. قبل يومين من ذلك، تمَّ الاتفاق مع امرأة فقيرة على أن تتخلَّى عن وليدها للغرباء، فأرسلوا لإحضاره أحد الرجال الموثوقين. ومكث إبراهيم في المكتب الملاصق تمامًا لغرفة نوم الأميرة التعيسة، يصغي حابسًا أنفاسه إلى أنينها الأصم وتهامس الخادومات وأوامر الطبيب. تألَّمت الأميرة كثيرًا، وكانت كلُّ أنة من أناتها تمرِّق روحه، وكل فترة صمت تغمره بالرعب... وفجأة سمع صرخة طفل ضعيفة، فلم يتمكَّن من ضبط انفعاله، فاندفع داخلًا غرفة الأميرة. كان الوليد الأسود ممددًا على السرير عند قدميها. اقترب منه إبراهيم وقلبه يدقُّ بعنف، بارك ابنه بيد راعشة. وابتسمت الأميرة ابتسامة واهنة مائة له يدًا متعبة... ولكنَّ الطبيب الذي خاف عليها من الانفعالات القوية، سحب إبراهيم مبتعدًا به عن سريرها. ثم وضعوا الوليد في سلَّة مغلقة وحملوه إلى خارج المنزل عبر درج سرِّي، وجاؤوا بالطفل الآخر فوضعوه في سرير في غرفة الولادة. بعد ذلك، غادر إبراهيم المنزل وقد هدأت نفسه بعض الشيء. أمَّا من في القصر، فانتظر الأمير الذي عاد في وقت متأخَّر. وحين عرف بخلاص زوجته السعيد، فرح كثيرًا. وهكذا خابت آمال الجمهور الذي توقَّع ضجَّة مثيرة، فاضطر إلى الاكتفاء بتبادل العبارات الحاقدة.

عاد كلُّ شيء إلى وضعه المعتاد، ولكنَّ إبراهيم شعر بأن مصيره يجب أن يتغيَّر، وأنَّ أمر علاقته بالأميرة سيصل عاجلاً أم آجلاً إلى سمع الأمير د. وعندئذ سيكون هلاك الأميرة محتومًا في كل الأحوال. لقد أحبَّ بكل جوارحه،

وكذلك كان محبوباً، ولكنَّ الأميرة ذات مزاج خاص ومستهترة وإبراهيم ليس حبَّها الأوَّل. لذا كان من المحتمل أن يحلَّ النفور والكراهية في قلبها محلَّ أرقَّ المشاعر. لقد توقَّع إبراهيم فتور عواطفها نحوه. إنَّه لم يشعر بالغيرة حتى الآن، ولكنَّه كان يتوقَّعها واجلاً، ويأمل أن يكون الفراق أقلَّ إيلاًماً، لذا نوى أن يقطع تلك العلاقة البائسة، فيترك باريس ويرحل إلى روسيا التي حفَّزه للعودة إليها بطرس وشعور غامض بالواجب.

## الفصل الثاني

الجمال لا يثير العواطف بقوة  
والفرح لا يثير الكثير من الإعجاب  
والعقل ليس مستهترًا إلى حدٍّ كبير  
وأنا لست في حال حسنة جدًا  
تعذبني الرغبة في الرفعة  
تناديني، أنا، أسمع، ضجّة المجد!  
درجافين

مرّت الأيام والشهور ولم يستطع إبراهيم العاشق أن يهجر المرأة المسحورة به. كانت الأميرة تزداد تعلّقًا به ساعة بعد ساعة. وكان ابنهما يتربّى في مكان ريفي بعيد. لقد هدأت الآن الشائعات في المجتمع، وشرع العاشقان ينعمان بمزيد من الاطمئنان وهما يتذكّران بصمت العاصفة التي مرّت بهما، ويحاولان عدم التفكير في المستقبل.

وذاث يوم، مرّ بالقرب من إبراهيم دوق أورليان، وهو خارج في موكبه، فتوقّف وسلّمه رسالة طالبًا منه أن يقرأها متى أتيحت له الفرصة. كانت الرسالة من بطرس الأوّل. لقد أدرك القيصر السبب الحقيقي لبقائه في باريس، فكتب لدوق أورليان يُبلّغه أنّه لا ينوي إرغام إبراهيم على شيء، وأنّه يترك له حرّية اختيار العودة إلى روسيا أو عدم العودة، ولكّنه لن يتخلّى أبدًا وفي أي حال من الأحوال، عن حفيده. مسّت هذه الرسالة شغاف قلب إبراهيم، وبات مصيره منذ لحظة قراءتها محسومًا، أبلغ قائده في اليوم التالي نيّته السفر إلى روسيا من دون إبطاء.



- «فَكَرَّ فِيمَا تَنَوَّى فَعَلَهُ»، قَالَ لَهُ الدُّوقُ، «رُوسِيَا لَيْسَتْ وَطَنُكَ، وَلَا أَظُنُّ أَنَّكَ سَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَرَى وَطَنَكَ الْقَائِظَ مِنْ جَدِيدٍ، لَكِنَّ إِقَامَتَكَ الطَّوِيلَةَ فِي فَرَنْسَا جَعَلَتْكَ غَرِيبًا أَيْضًا عَنْ مَنَاخِ رُوسِيَا وَنَمَطِ حَيَاتِهَا نَصْفِ الْمَتَوَحَّشِ. أَنْتَ لَمْ تُولَدْ بِوَصْفِكَ وَاحِدًا مِنْ رَعَايَا بَطْرُس. أَطْعِنِي: اسْتَفْذْ مِنْ حَزِيَّةِ الْخِيَارِ الَّتِي مَنَحَكَ إِيَّاهَا الْقَيْصَرُ، ابْقَ فِي فَرَنْسَا الَّتِي بَذَلْتَ دَمَكَ مِنْ أَجْلِهَا، وَكُنْ وَاثِقًا مِنْ أَنَّهُمْ هُنَا أَيْضًا لَنْ يَتْرَكُوا خِدْمَاتَكَ وَمَوَاهِبَكَ مِنْ دُونِ الْمَكَافَأَةِ الَّتِي تَسْتَحَقُّهَا».

شَكَرَ إِبْرَاهِيمُ الدُّوقَ شُكْرًا صَادِقًا، وَلَكِنَّهُ ظَلَّ صَلْبًا فِي قَرَارِهِ.

- «يُؤَسِّفُنِي ذَلِكَ»، قَالَ لَهُ الدُّوقُ، «وَلَكِنَّكَ عَلَى حَقٍّ».

وَعَدَهُ بِإِقَالَتِهِ ثُمَّ كَتَبَ لِلْقَيْصَرِ الرُّوسِيِّ يَخْبِرُهُ بِالْأَمْرِ.

جَهَّزَ إِبْرَاهِيمُ نَفْسَهُ لِلسَّفَرِ بِسُرْعَةٍ. وَعَشِيَّةَ رَحِيلِهِ أَمَضَى الْمَسَاءَ، كَمَا هِيَ الْعَادَةُ، عِنْدَ الْأَمِيرَةِ د. الَّتِي لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ عَنْ سَفَرِهِ شَيْئًا، فإِبْرَاهِيمُ لَمْ يَقَوْ عَلَى مِفَاتِحِهَا فِي الْأَمْرِ. كَانَتِ الْأَمِيرَةُ هَادِئَةً وَمَرِحَةً. وَقَدْ دَعَتْهُ لِلإِقْتِرَابِ مِنْهَا مَرَّاتٍ عَدَّةً، وَدَاعَبَتْهُ سَاخِرَةً مِنْ شُرُودِهِ. تَفَرَّقَ الْجَمِيعُ بَعْدَ الْعِشَاءِ، وَلَمْ يَبْقَ فِي صَالُونِ الْأَمِيرَةِ سِوَى زَوْجِهَا وَإِبْرَاهِيمَ السَّيِّئِ الْحِظِّ، الَّذِي كَانَ مُسْتَعِدًّا لِلتَّضَحُّيَةِ بِكُلِّ شَيْءٍ فِي الْعَالَمِ مُقَابِلَ أَنْ يَبْقَى مَعَهَا عَلَى انْفِرَادٍ. وَلَكِنَّ الْأَمِيرَ د. الَّذِي جَلَسَ قَرَبَ الْمَوْقِدِ، بَدَأَ هَادِئًا مُسْتَرَحِيًا إِلَى حَدٍّ لَا يُبْقِي أَيَّ أَمَلٍ فِي إِخْرَاجِهِ مِنَ الْغُرْفَةِ. جَلَسَ الثَّلَاثَةُ صَامِتِينَ.

- «Bonne nuit»<sup>(1)</sup>، قَالَتِ الْأَمِيرَةُ أَخِيرًا.

انْقَبَضَ قَلْبُ إِبْرَاهِيمَ وَأَحْسَسَ فَجْأَةً بِكُلِّ هَوْلِ الْفِرَاقِ، فَوَقَفَ جَامِدًا. وَكَرَّرَتْ الْأَمِيرَةُ قَوْلَهَا:

- Bonne nuit, messieurs<sup>(2)</sup>.

---

(1) لَيْلَةٌ طَيِّبَةٌ.

(2) طَابَتْ لَيْلَتُكُمْ أَتَيْهَا السَّادَةُ.

لكنّه لم يتحرّك. أظلمت الدنيا في عينيه، وأصابه الدوار، وخرج من الغرفة خائر القوى. وحين وصل إلى البيت كتب وهو فاقد الوعي تقرّيبًا، الرسالة التالية: أنا مسافر يا حبيبتى ليانورا، سأفترق عنك إلى الأبد. أكتب لك لأنّني لا أقوى على مصارحتك بغير هذه الطريقة. سعادتي لا يمكن أن تستمرّ. فقد نلتها رغم أنف القدر والطبيعة، لذا من المحتمّ أن ينتهي حبّك لي، ومن المحتمّ أن يتلاشى انبهارك بي. إنّ هذه الفكرة تلازمني دائماً، حتى في تلك اللحظات التي كان يبدو لي فيها أنني نسيت كل شيء، وأنا عند قدميك أذوب نشوة في حرارة عاطفتك وفي غمار رقّتك اللامحدودة وأنت تبذلين نفسك... إنّ المجتمع المستهتر يطرد عملياً بلا رحمة ما يسمح به نظرياً. سحرته الباردة ستتصرّ عاجلاً أو آجلاً، وستُخمد لهيب روحك، وستشعرين بالخجل من مشاعرك. فما الذي سيحلّ بي آنذاك؟ لا! أنا أفضل الموت على ذلك، أفضل أن أرحل عنك قبل حلول تلك اللحظة الفظيعة...

راحة نفسك أغلى، عندي، من كل شيء. وأنت، لم تستطعي الاستمتاع بها تحت رقابة عيون المجتمع المسلّطة علينا. تذكّري كل ما احتملته، كل الإهانات التي لحقت بك، كل عذابات الخوف الذي عانيته، تذكّري ولادة طفلنا التعيس الفظيعة. وفكّري: هل يجب عليّ أن أستمّر في تعريضك لذلك القلق وتلك المخاطر؟ ولماذا نجهد أنفسنا للجمع بين مصير مخلوقة رقيقة إلى هذا الحدّ ورائعة، ومصير كائن زنجي بائس تافه يكاد لا يستحق لقب إنسان؟ سامحيني يا ليانورا، سامحيني أيتها الصديقة الحبيبة الوحيدة. إنني وأنا أتركك، أترك أوّل وآخر بهجة في حياتي. لا وطن لي، ولا أقارب. وأنا أرحل إلى روسيا الكثيبة حيث ستكون العزلة التامة بهجتي في الحياة. الأعمال القاسية التي سأستسلم لها منذ الآن قد لا تجعلني أنسى، ولكنها قد تخفّف آلام تذكّر أيام العواطف المتأجّجة والمتعة... سامحيني يا ليانورا، أشعر وأنا أنهى هذه الرسالة شعور من يتزع نفسه من بين ذراعيك. سامحيني، كوني سعيدة، وفكّري أحياناً في الزنجي التعيس، المخلص لك إبراهيم.

في الليلة ذاتها شدَّ الرحال إلى روسيا.

لم تبدُ له الرحلة فظيعة إلى الحدِّ الذي توقَّعه. كان خياله يتفوّق على وجوده المحسوس. وكانت الأشياء التي خَلَّفها وراءه إلى الأبد، تبدو له أكثر حيوية وقربًا كلّما ازداد بُعدًا عن باريس.

هكذا وجد نفسه على حدود روسيا من دون أن يشعر. لقد حلَّ الخريف، غير أنَّ الحوذيين، على الرغم من رداءة الطريق، قادوا عربته بسرعة الريح. وفي صبيحة اليوم السابع عشر من الرحلة، وصل إلى «كراسنويه سيلو» التي كانت الطريق السريعة تمرُّ بها آنذاك.

ثمانية وعشرون فرسخًا تفصله الآن عن بيتربورغ. وبينما كان الحوذيون يسرجون الخيل، دخل إبراهيم الاستراحة. في الزاوية رجل طويل القامة، يرتدي قفطانًا أخضر، ويضع بين شفثيه غليونًا من الفخَّار، وهو يقرأ صحف هامبورغ مسندًا ذراعيه إلى الطاولة. رفع الرجل رأسه حين أحسَّ بدخول أحدهم.

- «يا الله! إبراهيم؟»، صاح وهو ينهض من مقعده، «مرحبًا يا ابني في المعمودية!».

عرف إبراهيم بطرس، وكاد في غمرة الفرح أن يندفع نحوه معانقًا. لكنَّه ظلَّ واقفًا في مكانه احترامًا للقيصر، الذي اقترب منه وعانقه، وقبَّل رأسه.

- «لقد علمت بقدومك»، قال بطرس، «فجئت لاستقبالك. وأنا انتظرك هنا منذ البارحة».

لم يجد إبراهيم كلمات يعبرُّ بها عن امتنانه.

- «مُرْهُمُ أن يقودوا عربتك خلف عربتنا»، تابع القيصر كلامه، «أمَّا أنت فازكب معي، ولنذهب إلى منزلي».

جاء بعربة القيصر، فصعد إليها وإلى جانبه إبراهيم، وانطلقت بهما بسرعة. وبعد ساعة ونصف الساعة وصلا إلى بيتربورغ. فراح إبراهيم يتأمل بفضول العاصمة الوليدة، التي نهضت من المستنقع بإشارة الحاكم المطلق. كانت السدود العارية، والأقنية غير المسوّرة، والجسور الخشبية المنتشرة في

كلّ مكان، تشهد على انتصار الإرادة الإنسانية، منذ زمن قريب، على فوضى الطبيعة. وكانت البيوت تبدو وكأنّها بُنيت على عجل. لم يكن في المدينة كلّها ما هو جميل سوى نهر «نيفا» الذي لم تُكسّر ضفافه بعد بالغرانيت، ولكنّ سطحه كان يغطّ بالسفن الحربية والتجارية. توقّفت العربة عند القصر المسمّى «حديقة تساريتسنا». واستقبلت بطرس عند مدخله سيّدة في الخامسة والثلاثين من عمرها، جميلة، ترتدي ثوبًا يتفق وأحدث الأزياء الباريسية. قبل بطرس شفيتها، وقال، وهو يمسك بيد إبراهيم:

- هل عرفتِ يا كاتينكا ابني في المعمودية، أرجو أن تحبّه وتكرمه كما كنت تفعلين في الماضي.  
رمقته يكثرنا بعينين سوداوين نفّاذتين ومدّت له يدها الصغيرة بودّ. ومن ورائها كانت صبيّتان جميلتان، طويلتا القامة، رشيقتان، نضرتان كوردتين، تقتربان باحترام من بطرس، الذي نادى إحداهما:

- ليزا، أتذكرين الحبشيّ الصغير الذي كان يسرق لك التفّاح من عندي في أورانيباوم؟ ها هو ذا، أقدمه إليك.

ضحكت الأميرة واحمرّ وجهها. اتّجه الجميع إلى غرفة الطعام. كانت المائدة معدّة في انتظار القيصر. جلس بطرس وعائلته لتناول الغداء ودعا إبراهيم أيضًا إلى المائدة. وفي أثناء تناول الطعام حاوره في موضوعات مختلفة: سأله عن الحرب الإسبانية، وعن الأحوال الداخلية في فرنسا، وعن Parent<sup>(1)</sup> الذي كان يحبّه على الرغم من عيوبه الكثيرة، فكان إبراهيم ذكيًا ودقيقًا وشديد الملاحظة في إجاباته التي أرضت بطرس كثيرًا، وتذكّر بعض صفات إبراهيم في طفولته، فتحدّث عنها بطيبة قلب ومرح، يجعلان أي امرئ عاجزًا عن أن يرى في هذا السيّد الودود المضيف، بطل معركة بولتافا، الجبّار، الرهيب، الذي غيّر وجه روسيا.

---

(1) وصي عرش فرنسا.

ذهب القيصر، كما هي عادة الروس، ليرتاح بعد الغداء. وبقي إبراهيم بصحبة الإمبراطورة والأميرتين. وسعيًا منه لإرضاء فضولهنّ، وصف لهنّ نمط الحياة الباريسية، والأعياد في باريس وتقلّبات الموضة. وفي هذه الأثناء تجمّع في القصر بعض الشخصيات المقرّبة من القيصر. فتعرّف إبراهيم إلى الأمير الرائع مينشيكوف، الذي رمى الحبشي بنظرة متعالية حين رآه يتحدّث إلى يكرينا، والأمير ياكوف دولغوروكي، المستشار الصعب لبطرس، والعالم بروس الذي أطلق عليه الشعب لقب فاوست الروسي، وراغوزينسكي الشاب الذي كان زميلًا له، وغيرهم ممن جاؤوا إلى القصر لتقديم تقاريرهم أو تلقّي الأوامر. عاد القيصر من استراحته بعد نحو ساعتين.

- «سنرى إن كنت نسيت وظيفتك القديمة»، قال لإبراهيم، «خذ معك سجلّ التوجيهات واتبعني».

أغلق بطرس على نفسه باب مكتبه وراح يمارس أعمال الدولة، فاستقبل على التوالي، كلًّا من بروس، والأمير دولغوروكي، والجنرال ديفيير قائد الدرك، وأملّى على إبراهيم عددًا من التوجيهات والقرارات. ولم يكن باستطاعة إبراهيم أن يحدّ من إعجابه بذكاء القيصر المتّقد وحكمته الحازمة وشدة انتباهه ومرونته وتنوّع اهتماماته.

بعد انتهاء الأعمال، أخرج بطرس من جيبه مفكرة صغيرة كي يتأكّد من أنّه أنهى كل ما كان مقرّرًا لهذا اليوم. ثم قال لإبراهيم وهو يغادر المكتب:

- الوقت متأخّر، وأظنّك متعبًا، نمّ هنا، كما في الأيام الخوالي، وسأوقظك غدًا بنفسِي.

بقي إبراهيم في المكتب وحيدًا يكاد يتملّكه الدهول. إنّه الآن في بيتربورغ، وقد رأى من جديد ذلك الإنسان العظيم الذي قضى طفولته في رعايته، حين لم يكن يدرك العظمة التي يتّسم بها. وبما يقارب الندم اعترف لنفسه بأنّ الأميرة د. لم تكن لأوّل مرّة منذ فراقها، الوحيدة التي شغلت تفكيره طول اليوم، ورأى أنّ نمط الحياة الجديد الذي ينتظره، والعمل والانشغال الدائم، أمور يمكن أن

تنعش روحه التي أرهقتها الأهواء والفراغ والكآبة الخفية. فمرافقة رجل عظيم ومشاركته في صنع مصير شعب أيقظتا فيه، لأول مرة، اعتدادًا نبيلاً بالنفس. فاستلقى، وهو على هذه الحال، فوق السرير النقال الذي أُعدَّ له، وحملته أحلامه المعتادة إلى باريس البعيدة، وأحضان الأميرة الحبيبة.

## الفصل الثالث

كالسحب في السماء،  
تبدّل أفكارنا شكلها الرقيق  
فما نحته اليوم، نكرهه غدًا.  
ف. كوخيليكر

في اليوم التالي، أيقظ بطرس إبراهيم كما وعده، وهنأه بتعيينه ضابطاً - قائداً في سرّيّة مدفعية فوج «بريؤبريجنسك» الذي كان هو نفسه ضابطاً فيه. فتحلّق رجال البلاط حول إبراهيم وراح كل منهم، على طريقته، يتودّد إلى محبوب القيصر الجديد. فالأمير مينشيكوف، المعتدّ بنفسه، صافحه بودّ، واستفسر منه شيريميتوف عن أحوال معارفه في باريس، أمّا غولوفين فدعاه إلى الغداء، وحذا حذوه كثيرون آخرون، وكان من نتيجة ذلك أن تلقّى إبراهيم دعوات للغداء لمُدّة شهر كامل على أقلّ تقدير.

أمضى إبراهيم أيّاماً رتيبة ولكنّها ممتلئة عملاً، لذا لم يعرف الملل. كان، يوماً بعد يوم، يزداد تعلقاً بالقيصر، ويزداد معرفة بروحه السامية، فملاحقة أفكار إنسان عظيم علم من أشدّ العلوم إشغالاً للذهن. لقد رأى إبراهيم بطرس في مجلس المستشارين يناقشه بوتورلين ودولفوروكي، وهو يدرس أهمّ القضايا التشريعية، وراه في الأكاديمية البحرية التي ترمز إلى عظمة البحرية الروسية، يتابع في أوقات الراحة مع فيوفان وغافريل بوجينسكي وكوبييفيتش، ترجمة أبحاث الكتّاب الأجانب، أو يزور مصنع أحد الأغنياء، أو ورشة حرفي، أو

مكتب عالم. لقد بدت روسيا لإبراهيم ورشة ضخمة ليس فيها سوى آلات تتحرك، حيث كل عامل فيها خاضع لنظام محدد ومنهمك في عمله، فعدّ نفسه ملزماً أيضاً بالعمل على آله، وسعى إلى التقليل، قدر الإمكان، من الأسف على مباحج الحياة الباريسية. ثمة أمر آخر كان التخلص منه أكثر صعوبة، هو الذكريات الجميلة. كان يفكر في كثير من الأحيان بالأميرة د. ويتخيل غضبها المحقّ ودموعها وكآبتها... ولكنّ صدره كان يضيق أحياناً بفكرة مرعبة: يتذكّر انفلاش المجتمع الراقي، فيتخيلها في علاقة جديدة مع محظيّ جديد، يرتعد، وتشرع الغيرة بالجيشان في دمه الأفريقي، وتتأهبّ الدموع الحارّة للسيلان على وجهه الأسمر.

ذات يوم، كان إبراهيم جالساً في مكتبه تحيط به أوراق العمل، حين سمع فجأة صوتاً عاليًا يُحيّيه باللغة الفرنسية، فاستدار بسرعة، وإذ بكورسكوف الشاب، الذي تركه في باريس غارقاً في دوامة المجتمع الراقي، يعانقه وهو يصيح فرحاً.

- «وصلتُ الآن»، قال كورسكوف، «وجئت مباشرة إليك. معارفنا الباريسيون كلهم يبلغونك السلام، ويأسفون لغيابك. الأميرة د. طلبت منّي أن أدعوك للعودة حتمًا، وهذه رسالة لك منها».

اختطف إبراهيم الرسالة بيد مرتجفة وراح ينظر إلى الخطّ المعروف الذي كُتب به العنوان، من دون أن يجرؤ على تصديق عينيه. تابع كورسكوف:

- أنا سعيد جدًا لأنك، حتى الآن، لم تمت من الضجر في هذه البيتربورغ المتوحّشة! ماذا يفعلون هنا، بماذا ينشغلون؟ من يخطط لك ملابسك؟ هل عندكم، على الأقل، دار للأوبرا؟

أجابه إبراهيم شاردًا، أنّ القيصر يعمل الآن في حوض بناء السفن. ضحك كورسكوف وقال:

- أرى أنّك الآن منشغل عن الحديث معي. ستحدّث حتى نشبع في وقت آخر. سأذهب الآن لأقدّم نفسي إلى القيصر.



قال ذلك واستدار على ساق واحدة ثم خرج من الغرفة مسرعاً.  
بقي إبراهيم وحيداً، فأسرع يفضُّ غلاف الرسالة. كانت الأميرة تشتكي  
برقةً، وتلومه على غدره وضعف ثقته بها. قالت له في الرسالة:  
أنت تزعم أن سَكينة نفسي هي عندك أغلى ما في الوجود. يا إبراهيم!  
هل كنت تستطيع أن تعرّضني لتلك الحالة التي أوصلني إليها نبأ رحيلك  
المشؤوم لو كان ذلك صحيحاً؟ أنت خشيت أن أتمسك بك، ولكن ثق  
أنني، بغضّ النظر عن حبي، كنت سأستطيع التضحية بذلك الحبّ في  
سبيل ما هو خير لك وما تراه واجباً عليك.

وختمت الأميرة رسالتها بعبارات حارّة تؤكّد حبّها، وتتوسّل إليه أن يرسلها،  
ولو نادراً، ما دام الأمل في لقائهما من جديد قد بات معدوماً.  
قرأ إبراهيم هذه الرسالة عشرين مرّة وهو يقبّل سطورها التي لا تقدّر بثمن.  
والتهب شوقاً لسماع أيّ خبر عن الأميرة، فتهيأ للذهاب إلى قيادة البحرية أملاً  
في لقاء كورساكوف مرّة ثانية. غير أن باب مكتبه فُتح وظهر فيه كورساكوف  
نفسه من جديد. لقد قدّم نفسه إلى القيصر وبدأ، كعادته، راضياً عن نفسه كلّ  
الرضا وهو يقول لإبراهيم:

- Entre nous<sup>(1)</sup>، القيصر رجل غريب الأطوار. تخيّل! لقد وجدته  
مرتدياً ثوباً من الخام، فوق سارية سفينة جديدة اضطرتت إلى تسلّقها  
حاملاً كل أمتعتي. وقفت على السلم المصنوع من الحبال، ولم يكن  
في المكان متّسع كي أنحني له انحناءة محترمة، فارتبكت تماماً،  
الأمر الذي لم يحدث لي في حياتي. ولكنّ القيصر قرأ الأوراق ثم  
تأمّلني من الرأس حتى القدم. أظنه دُهِش إعجاباً بأناقة ملبسي، لكنّه  
ابتسم على كل حال، ودعاني إلى اجتماع اليوم. وأنا غريب تماماً في  
بيتربورغ، ففي فترة غيابي لستّ سنوات نسيت تماماً عاداتهم هنا،  
أرجوك كُن دليلي، مرّ بي وقم بتقديمي للمجتمعين.

---

(1) الكلام بيننا.

قبل إبراهيم القيام بذلك. وأسرع يحوّل الحديث إلى الموضوع الأكثر أهميّة في نظره:

- هه، ما أحوال الأميرة د.؟
- الأميرة؟ لقد كانت في البداية، طبعًا، حزينّة جدًّا لفراقك، ثم بعد ذلك هدأت نفسها، بالتدريج طبعًا، واتّخذت عشيقًا جديدًا، أتدري من هو؟ إنّه الماركيز الطويل ر. لم تحملق بي وقد جحظت عيناك الحبشيتان؟ لعلّ كلّ ذلك يبدو لك غريبًا، ألا تعرف أنّ الحزن لزمن طويل ليس من طبع الإنسان ولا سيّما المرأة. فكّر في هذا الأمر جيّدًا، أمّا أنا فسأذهب لأرتاح من عناء السفر. لا تنس أن تمرّ بي.
- أية مشاعر ملأت روح إبراهيم؟ الغيرة؟ الغضب؟ اليأس؟ لا. بل كآبة عميقة ضاقت بها روحه. فراح يرّدّد لنفسه: «لقد تنبّأت بذلك، هذا ما كان يجب أن يحدث». فتح رسالة الأميرة وقرأها من جديد، ثم دلى رأسه على صدره وبكى بمرارة. بكى طويلًا. وفزّجت الدموع عن قلبه. نظر إلى الساعة فرأى أنّ وقت الذهاب قد حان. لقد كان إبراهيم يتمنّى ألا يذهب، ولكنّ الاجتماع أمر واجب، والقيصر كان حازمًا في طلبه من مقرّبيه الحضور. فارتدى ملابسه ومضى إلى كورساكوف.

كان كورساكوف جالسًا يقرأ كتابًا فرنسيًا وعلى كتفيه عباءة منزلية.

- «أبهذه السرعة؟!»، قال لإبراهيم حين رآه.
- «لطفًا، إنّها الخامسة والنصف»، ردّ ذاك، «ستأخّر. هيّا ارتدي ملابسك ولننطلق!».

ارتبك كورساكوف، وراح يقرع الجرس بكلّ ما يستطيع من قوّة، فهرع إليه الخدم، وشرع يرتدي ملابسه على عجل. جاءه وصيفه الفرنسي بحذائه ذي الكعبين الأحمرين، وسراويله المخملية السماوية اللون، وقفطانه الزهري المرصّع بالبرق. ورشّ الخدم في الممرّ شعره المستعار بالبودرة على وجه السرعة، ثم جاؤوا به إليه، فدنّس فيه رأسه الحليق، وأمرهم بإحضار سيفه

وقَفَازِيه، ودار حول نفسه متفحّصًا مظهره أمام المرأة نحو عشر مرّات، ثم أعلن لإبراهيم أنّه جاهز، فألبسهما المرافقون معطفين من فراء الدبّ، وانطلقا إلى قصر الشتاء.

انهال كورساكوف على إبراهيم بالأسئلة: «من هي الغادة الأولى في بتربورغ؟ ومن هو الراقص الأوّل؟ وما هي الرقصة الدارجة؟». وكان إبراهيم يجيبه بما يُرضي فضوله بفتور ظاهر. وهكذا وصلا إلى القصر. ثمة زخّافات طويلة كثيرة، وعربات من الطراز القديم، وعربات أنيقة مذهّبة، كانت تقف في الساحة. وعند المدخل، احتشد الحوذيون بأزيائهم المميّزة وشواربهم، والفرسان السريعو الحركة بريشات قبّعاتهم وأزاراهم اللامعة، والوصفاء، والمرافقون البدناء الذين تفوح منهم رائحة عباات ومعاطف فراء سادتهم، الحاشية الضرورية بمفاهيم نبلاء ذلك الزمن. وحين ظهر إبراهيم، سرى بينهم همس جماعي: «الحبشيّ، الحبشيّ، حبشيّ القيصر!». فأسرع إبراهيم يجتاز مع كورساكوف هذا الجمع المبرقش. فتح لهما خادم القصر الباب على مصراعيه، ودخلا إلى البهو. فوقف كورساكوف مذهولاً... في الصالة الكبيرة المضاءة بشموع من الدهن ترسل ضوءاً ضعيفاً تلقّهُ سحب من دخان التبغ، احتشد النبلاء ذوو الوشاحات الزرقاء، والسفراء والتجّار الأجانب وضباط الحرس بزيّهم الأخضر، وبُناة السفن بستراتهم القصيرة وسراويلهم المقلّمة، وهم يتحرّكون أماماً وخلفاً على صوت موسيقى الأبواق الذي لا يتوقّف. وجلست السيّدات على مقاعد قرب الجدران تلتمع خيوط الفضة على أثوابهنّ، وقد انتصبت من أعناق ثنوراتهنّ المنتفخة خصورهنّ النحيلة كسيقان السنابل، والتمعت الأقرات الماسية المتدلّية من آذانهنّ، وعقود الماس التي تزيّن غدائرنّ الطويلة وتطوّق أعناقهنّ. كنّ يتلفّتن يمنة ويسرة بمرح في انتظار دعوات الفرسان لهنّ وبداية الرقص. أمّا السيّدات الكهلات، فكنّ يحاولن بدهاء الجمع بين طراز اللباس الجديد وذاك الذي تقادم عليه الزمن: قبّعاتهنّ الخفيفة اختلطت حول قُبّة القيصرة نتاليا كيريلوفنا المحاكة من فرو السّتور، أمّا أثوابهنّ ومعاطفهنّ

فكانت تذكر بالأثواب المنزلية الخفيفة والمعاطف الشتوية السمكة. وقد بدا عليهنَّ أنهنَّ دهشات أكثر من كونهنَّ مسرورات بحضورهنَّ هذا النوع الجديد من اللهو، وهنَّ ينظرن بأطراف أعينهنَّ بأسى إلى زوجات القباطنة الهولنديين وبناتهن اللواتي تجمعن بتُّوراتهنَّ المزركشة وكنزاتهنَّ الحمراء، ورحن يضحكن ويتبادلن الأحاديث وكأنهنَّ في بيوتهنَّ.

أذهل المنظر كورساكوف، وحين لاحظ أحد الخدم قدوم الضيفين الجديدين، أقبل عليهما حاملاً البيرة والكؤوس على صينية.

- «Que diable est-ce que tout cela?»<sup>(1)</sup>، سأل كورساكوف إبراهيم بصوت خافت.

لم يتمالك إبراهيم نفسه من الابتسام. كانت الإمبراطورة والأميرات المتألمات بجمالهنَّ وأثوابهنَّ يتجولن بين صفوف الضيوف ويتحادثن معهم بمودة. أمّا القيصر فكان في غرفة أخرى، فشقَّ كورساكوف، الذي كان حريصاً على أن يراه القيصر، طريقه إلى تلك الغرفة بصعوبة وسط الحشد الذي لم يكفَّ عن الحركة. معظم الجالسين هناك كانوا من الأجانب، وهم يدخنون غلايينهم الفخارية برزانة ويحملون أكواباً فخارية كبيرة الحجم. وعلى الموائد صفوف من زجاجات البيرة والنبيذ، والأكياس الجلدية المحشوة بالتبغ، والكؤوس الملأى بشراب البونش، ورقعات الشطرنج. وإلى إحدى هذه الموائد جلس القيصر بطرس يلعب «الضاما» مع قبطان إنجليزي عريض المنكبين. كان كل منهما يقصف الآخر بقذائف من دخان التبغ، وقد تملكت القيصر حيرة شديدة بسبب حركة غير متوقَّعة لعبها خصمه، حتى أنَّه لم يلاحظ كورساكوف على الرغم من كل محاولات الأخير للفت نظره. في هذا الوقت دخل بصخب سيّد بدين تزَيْن صدره باقة ضخمة من الزهور، وأعلن بصوت عالٍ بداية الرقص، ثم خرج مسرعاً وتبعه كثير من الضيوف ومن بينهم كورساكوف.

---

(1) ما كل هذا بحق الشيطان؟

أدهشه المنظر المفاجئ. على امتداد صالة الرقص، وعلى وقع موسيقى شديدة الميوعة، اصطفت الراقصون والراقصات وجهًا لوجه. كان الرجال ينحنون للتحية انحناء كبيرة، فتردُّ السيّدات بجثوَّ يفوق انحناءهم، مرّة وجهًا لوجه، ومرّة أخرى إلى اليمين، ومرّة ثالثة إلى اليسار، ثم يكرّر الجميع الحركة: وجهًا لوجه، بعد ذلك إلى اليمين، وهكذا دواليك. وقف كورسكوف متأملًا هذه الطريقة المعقّدة في تمضية الوقت، محملقًا، عاضًا على شفثيه. استمرّ الجمع في الجثوَّ والانحناء قرابة نصف ساعة، ثم توقّفوا أخيرًا، وأعلن السيّد البدين ذو باقة الزهور بصوت حادّ، أنَّ الرقص الطقسي انتهى، وأمر الموسيقيين بعزف «مينويت». ابتهج كورسكوف وتأهّب لإظهار مواهبه. كان ثمة، بين الصبايا المدعوّات واحدة بعينها أعجبه. كانت في السادسة عشرة من العمر تقريبًا، ترتدي ثيابًا فاخرة تنمُّ عن ذوق رفيع، وتجلس إلى جانب رجل متقدّم في العمر يوحي منظره بالأهميّة والصرامة. طار إليها كورسكوف وطلب منها أن تشرفه بالرقص معه. فنظرت إليه الصبيّة الجميلة باضطراب، وبدا عليها أنَّها لا تدري بماذا تجيبه، وقد ازداد وجه الرجل الجالس إلى جانبها عبوسًا. كان كورسكوف يقف منتظرًا قرارها، حين اقترب منه السيّد ذو باقة الزهور، وقاده إلى وسط الصالة، وقال له بلهجة مفخّمة:

- سيّدي، أنت ارتكبت خطأين: الأوّل، حين كلّمت تلك الصبيّة من دون أن تحيّيها بانحناءات ثلاث حسب الأصول، والثاني حين أعطيت نفسك حقّ اختيار شريكك في الرقص، مع أنَّ الحقّ في هذه الرقصة للسيّدات وليس للرجال. ولذا أنت تستحقّ عقوبة مشدّدة، هي، بالضبط، أن تشرب ملء كأس النسر الكبير من النبيذ.

كانت دهشة كورسكوف تزداد لحظة بعد أخرى. ففي دقيقة واحدة أحاط به الضيوف مطالبين إيّاه بصخب أن ينقذ القانون على الفور. حين سمع بطرس قهقهات المدعوّين وصرخاتهم، خرج من الغرفة، إذ كان يحبُّ كثيرًا أن يحضر شخصيًا تنفيذ هذا النوع من العقوبات. أفسح المحتشدون له الطريق حتى وصل

إلى الدائرة التي كان يقف فيها المذنب، وأمامه مارشال المراسم يحمل كأسًا كبيرة جدًا مترعة بالنبيذ، ويحاول بإلحاح إقناع المجرم بالخضوع لحكم القانون طوعًا. - «آها!»، قال بطرس حين رأى كورساكوف، «وقعتَ يا صاحبي! إذن، اشرب أيُّها السيّد لو سمحت، من دون أن تبدو على وجهك علامات الاشمئزاز».

أسقط في يد هذا المتأنق المسكين، فشرب دفعة واحدة كل ما كان في الكأس وأعطاه للمارشال.

- «اسمع يا كورساكوف»، قال بطرس له، «السراويل التي ترتديها مخملية، أنا، نفسي، لا أرتمي مثلها، مع أنني أغنى منك بكثير. هذا تبذير، فانتبه واحذر أن أتخاصم معك».

حين سمع كورساكوف هذا الإنذار، أراد الخروج من الدائرة المحيطة به، ولكنّه تمايل وكاد يقع، فأثار ذلك بهجة لا توصف في نفس القيصر والجمع كلّ. غير أن هذا المشهد لم يؤذِ وحدة الفعل الرئيسي وطابعه المسليّ، بل زاد في انتعاشه. ازداد اصطفاق المهاميز الفرسان وكثرت انحناءاتهم، أمّا السيّدات فزدن من جثوّهنّ وطقطقة كعوب أحذيتهنّ بحماسة، وما عدن يُقمن أي اعتبار للقواعد. لم يكن بمقدور كورساكوف المشاركة في هذا المرح الشامل، والسيّدة التي انتقاها أقبلت، بأمر من والدها غافريلا أفاناسييفيتش، على إبراهيم خافضةً عينيها الزرقاوين، ومدّت له يدها بارتباك. رقص إبراهيم معها الـ «مينويت» ثم رافقها إلى حيث كانت تجلس، ومضى يبحث عن كورساكوف، وحين وجده قاده إلى خارج الصالة وأجلسه في العربة وذهب به إلى البيت. في الطريق تمتم كورساكوف بصوت متعب: «ملعون هذا الاحتفال! ملعونة كأس النسر الكبير!». لكنّه سرعان ما غطّ في نوم عميق، فلم يدر كيف وصل إلى البيت وكيف خلعوا عنه ملابسه ومدّدوه في الفراش. وشعر، حين استيقظ في اليوم التالي، بصداع في رأسه، وفي ذهنه صور غير واضحة عن اصطفاق المهاميز وجثو السيّدات ودخان التبغ والسيّد ذي باقة الزهور وكأس النسر الكبير.

## الفصل الرابع

لم يكن أجدادنا يستعجلون في الأكل  
ولم تكن الأباريق والكؤوس الفضية،  
المملأى بالبيرة الفؤارة والنبذ، تدور عليهم بسرعة.  
من قصيدة «روسلان ولودميلا»  
أ. بوشكين

يجب عليَّ الآن يا قارئِي الطيّب أن أعرّفك بغافريلا أفاناسييفتش رجيفسكي.  
إنّه ينتمي إلى أسرة إقطاعية عريقة. وهو كريم مضياف وعنده أملاك ضخمة.  
يحبُّ الصيد بالصقور، وعدد خدمه غفير. إنّه، باختصار، إقطاعي روسي أصيل،  
كان، بحسب تعبيره، لا يطيق الروح الألمانية، ويحرص في حياته المنزلية، على  
تقاليد العهد القديم المحبّبة إلى نفسه.

كانت ابنته في السابعة عشرة من عمرها. فقدت أمّها وهي لا تزال طفلة.  
وتربّت على النمط الروسي القديم، أي أنّها كانت محاطة بحاضنات ومربّيات  
وصديقات وصبايا من العائلات في البيت. تعلّمت التطريز بخيوط الذهب،  
ولم تتعلّم القراءة والكتابة. غير أنّ أباه، على الرغم من نفوره من كل ما هو  
قادم من الخارج، لم يستطع مقاومة رغبتها في تعلّم الرقص الألماني، على يد  
الضابط السويدي الأسير الذي يقيم في بيتهم. كان عمر ذلك الأستاذ الخبير  
في الرقص يناهز الخمسين عامًا، وكانت ساقه اليمنى قد أُصيبت بطلق ناري  
في ضواحي نارفا، ولذا لم تكن صالحة تمامًا لرقص المينويت والدوران،  
لكنّ ساقه اليسرى كانت تؤدّي بفتية وسهولة مدهشتين أصعب الخطوات

الراقصة. وقد بذلت تلميذته جهوداً حَقَّقَتْ لها نجاحاً مشرفاً. فقد اشتهرت نتاليا غافريلوفنا بأنها أفضل راقصة في الحفلات، وهذا كان أحد أسباب خطأ كورساكوف الذي ذهب في اليوم التالي للاعتذار من غافريلا أفاناسييفيتش. غير أنَّ تأتُّق الفتى وفذلكته لم يعجبا الإقطاعي المعترِّ بنفسه، فأطلق عليه بذكاء لقب «القرد الفرنسي».

كان يوماً احتفاليًّا. وكان غافريلا أفاناسييفتش ينتظر قدوم بعض الأقارب والأصدقاء. فمُدَّت مائدة طويلة في القاعة القديمة. وتتالى وصول الضيوف ترافقهم، تنفيذًا لتوجيهات القيصر واقتداء به، زوجاتهم وبناتهم، اللواتي تحرَّرن أخيرًا من الحبس في المنزل. وقَدِّمَتْ نتاليا غافريلوفنا لكل ضيف صينية عليها قدح مذهب، فشرب كل منهم قدحه متحسِّراً على تلك القبله التي كان في الماضي ينالها في مثل هذه المناسبة.

اتَّجه الجميع إلى المائدة، فجلس في المكان الأوَّل بجوار سيِّد الدار حموه، بوريس أليكسييفيتش لينكوف، وهو ملاك إقطاعي يناهز السبعين من العمر، أمَّا بقيَّة الضيوف فجلسوا مراعين رفعة النسب، متذكِّرين في أثناء ذلك أزمنة الحكم المحلي السعيدة. اتَّخذ الرجال مقاعدهم في جهة، وجلست النساء في الجهة المقابلة. وعند طرف المائدة جلست الفتاة المكلفَّة بخدمة المائدة مرتدية مريولاً من الطراز الروسي القديم، وعلى رأسها قَبَّعة روسية تقليدية في مثل هذه المناسبات، وإلى جانبها جلست قزمة ضئيلة الحجم في الثلاثين من عمرها مقطَّبة ومبالغة في التأدُّب، يليها الأسير السويدي في زيِّه الأزرق المهرئ. كانت المائدة عامرة بالكثير من الأطباق، يحيط بها جمع غفير تميَّز بينهم كبير الخدم بنظرته الصارمة وكرشه المنتفخ وهدوئه المتعالي. كانت الدقائق الأولى من الغداء مخصَّصة تمامًا للاهتمام بإبداعات مطبخنا التقليدي القديم. ولم يعكَّر السكون إلَّا رنين الأطباق والملاعق النشطة. وأخيرًا، حين رأى صاحب الدار أنَّ الوقت قد حان لتسلية الضيوف بحديث ممتع التفت قائلاً:

- أين يكموفنا إذن؟ جيئوني بها.



اندفع بعض الخدم في اتجاهات مختلفة، لكن، في اللحظة نفسها، دخلت إلى القاعة امرأة عجوز غطت وجهها بالبودرة والحمرة وزينت شعرها بالزهور والبرق، وعليها ثوب حريري سميك، يكشف عن الرقبة والصدر، دخلت وهي تدندن وترقص. فأثار ظهورها سرور الحاضرين.

- «مرحبًا يا يكيموننا»، قال الأمير ليكوف، «كيف أحوالك؟».

- بخير وصحة يا صاحبي، مغنيّة، راقصة، أنتظر العرسان.

- «أين كنتِ يا حمقاء؟»، سألها صاحب الدار.

- كنت أترّين يا صاحبي، من أجل الضيوف الأعزّاء، ومن أجل العيد الربّاني، على الطريقة الألمانية، كما وجّه القيصر، وأمر السيّد، فأضحكا منّا العالم.

حين نظقت بهذه الكلمات ارتفعت قهقهة صاخبة، فسكنت الحمقاء في مكانها خلف مقعد سيّد الدار.

- «هذه الحمقاء تكذب وتكذب، ولكنّها تنطق بالحقيقة»، قالت تاتيانا

أفاناسيفنا، أخت سيّد الدار الكبرى التي يكرّ لها الاحترام، «الحقّ، أنّ الأزياء في هذه الأيام تُثير سخرية العالم كله. لكن، ما دمتم أنتم، أيّها المبجلون، قد حلقتم لحاكم وارتديتم القفاطين المطرّزة، لم يبقَ ما يقال عن ملابس النساء التافهة طبعًا. من المحزن حقًا فقدان الثوب القديم والشرائط البنّائية، والحذاء المبطن بالفراء. إنّ النظر إلى غيد اليوم يُثير السخرية والحزن: الشعر مضغوط كقطعة اللّبّاد، مدهون بالزيت، والوجوه مكسّوة بالطحين الفرنسي، والبطون مشدودة تكاد تنقطع، والخصور محزومة بالطارات، يجلسن في الأرائك كالبرميل، وينحنين عند اجتياز الأبواب. مسكينات يماماتي، إنهنّ معذّبات حقيقيات».

- «آه، يا تاتيانا أفاناسيفنا المبجّلة»، قال كيريل بتروفيتش ت. الذي كان

قائدًا عسكريًا في ريزان، حيث جنى ثلاثة آلاف من الأفتان وزوجة

فتية، بأساليب ملتوية، «أنا أرى أن الزوجة تستطيع أن تلبس ما تشاء، شرط ألا تطلب ثياباً جديدة في كل شهر، وترمي ما عندها من ثياب ما زالت جديدة. في الماضي كانت الحفيدة تثرث في جهازها ثوب جدتها، أمّا في هذا الزمن، فتري الثياب الفاخرة ترتديها السيدة اليوم، وفي الغد تراها عند الخادمة، وما باليد حيلة! إن هذا تبديد لثروة النبلاء! إنه مصيبة، وليس أقل من ذلك».

كان وهو ينطق بهذه الكلمات، يتنهد بحسرة ناظرًا إلى زوجته ماريا إيلينيشنا التي بدا واضحًا أنها لم تكن معجبة بمديحه للماضي أو بانتقاده للعادات الجديدة. وكانت الغيد الأخريات يشاركنها انزعاجها، لكنهنّ بقين صامتات لأنّ الخجل كان في ذلك الزمن من السمات الضرورية للمرأة الشابة.

- «ومن المسؤول عن ذلك؟»، سأل غافريلا أفاناسييفيتش وهو يرشف من قصعته حساء الملفوف الحامض، «أليس الذنب ذنبنا؟ النسوة الصبايا يتحامقن، ونحن نجاريهنّ في ذلك».

- «وماذا نستطيع أن نفعل ما دام الأمر ليس بيدنا؟»، قال كيريل بتروفيتش معترضًا، «إنّ الواحد منّا يتمنّى لو يحبس زوجته في عشّها، ولكنهم يطالبونك، على قرع الطبول، بإحضارها إلى الحفلات. الزوج في القفص، والزوجة تسعى وراء الأزياء. آه من هذه الحفلات! إنها عقاب لنا من الربّ على ما ارتكبناه من آثام».

كانت ماريا إيلينيشنا كمن يجلس على المسامير، وكان لسانها يلحّ في طلب الكلام. لم تمالك نفسها، فتوجّهت في نهاية المطاف إلى زوجها تسأله عمّا يجده سيئًا في الحفلات، وعلى وجهها ابتسامة تعبّر عن الاشمئزاز.

- «السيئ فيها»، أجاب الزوج غاضبًا، «أنّ الأزواج والزوجات باتوا على خصام دائم منذ أن بدأت. لقد نسيّت الزوجات وصيّة الكنيسة التي تفرض على الزوجة أن تُطيع زوجها، فصرن لا يجتهدن في إدارة شؤون المنزل، بل في البحث عن الأزياء الجديدة، لا يفكرن

كيف يُرضين أزواجهنَّ، بل كيف يلفتن نظر الضبَّاط العابثين. هل من اللائق، يا سيِّدتي، أن تجالس ابنة نبيل أو زوجته المدخَّنين الألمان، وخادماتهنَّ أيضًا؟ هل سمعتم قبل اليوم أنَّ النساء يرقصن حتى الليل ويتحادثن مع الشباب من الرجال؟ لو كنَّ يفعلن ذلك مع الأقارب لهان الأمر، ولكنَّهنَّ يفعلنه مع الغرباء الذين لا يعرفنهم».

- «أريد أن أقول كلمة، لكنَّ للحيطان آذان»، قال غافريلا أفاناسييفيتش مقطبًا، «أعترف أنَّ الحفلات لا تعجبني أنا أيضًا. تارة تصطدم بسكران، وتارة، وهذا أبشع، يسقونك أنت نفسك حتى الشمالة. أو يُسيء أحد الشبَّان المختَّنين إلى ابنتك في تارة ثالثة، فشبَّان هذه الأيام مدلَّلون إلى حدٍّ لا مثيل له. هاكم، مثلاً، ابن المرحوم يغراف سيرغيفيتش كورساكوف، الذي أثار حول ابنتي في الحفلة الماضية ضجَّة جعلت وجهي يحمرُّ خجلاً. في اليوم التالي لذلك، نظرتُ، فرأيتُ عربة تندفع إلى داخل فناء بيتي مباشرة، فتساءلت: 'تُرى من الذي ساقه الربُّ إلينا، أتراه الأمير أليكسندر دانيوفيتش؟'... لم يكن هو. إنَّه إيفان يغرافوفيتش! لعلَّه لم يستطع التوقُّف عند البوابة وإجهاذ نفسه بالمشي حتى مدخل البيت، إلى أين! اندفع مسرعًا! يطقطق بحذاءه! ويتلوى! الحمقاء يكموفنا تشبهه شبَّها مذهلاً. بالمناسبة: قلَّدي لنا يا حمقاء، ذلك القرد القادم من وراء البحار».

أمسكت الحمقاء يكموفنا غطاء أحد الأواني، وضعته تحت إبطها كالقُبعة، وراحت تتشَّى وتطقطق بحذاءها وتنحني محيَّية في كل الاتجاهات، وهي تقول: «مسيو... مامزيل... أسابليه... باردون». علت من جديد قهقهة جماعية متواصلة تعبيرًا عن ابتهاج الجميع.

- «إنَّها كورساكوف مخلِّقًا منطقيًا»، قال الأمير العجوز ليكوف، وهو يمسح عن عينيه دموع الضحك، وقد عاد الهدوء إلى القاعة تدريجيًا، «لا داعي لإخفاء الحقِّ! هو ليس الأوَّل وليس الأخير الذي عاد من

بلاد الغرباء إلى روسيا المقدّسة معتوها. تُرى، ما الذي يَعْلَمونه لأبنائنا هناك؟ الطقطقة بالأحذية والثرثرة بلهجة لا يعلم إلا الله من أين جاؤوا بها، وعدم احترام الأكبر سنًا، والتحزُّش بنساء الآخرين. فبين جميع الشبّان الذين تربُّوا في البلدان الغريبة لا أجد - ليغفر لي الله - أقرب إلى صورة الإنسان من حبشي القيصر».

- «طبعًا»، قال غافريلا أفاناسيفيتش معلقًا، «إنّه رجل وقور مهذب، لا يُقارن بذلك التافه... من هذا الذي يجتاز البوّابة إلى الفناء أيضًا؟ أليس قردًا آخر قادمًا من وراء البحر؟ ما الذي تنتظرونه يا حيوانات؟»، قال موجهًا كلامه إلى الخدم، «أسرعوا، امنعوه من الدخول! إيّاكم في المستقبل...»

- «ألا ترى أنّك تهذي يا أشيب اللحية؟»، قاطعته الحمقاء يكيموفنا، «هل أصابك العمى؟ هذه عربة القيصر».

نهض غافريلا أفاناسيفيتش عن المائدة مسرعًا، واندفع الجميع نحو النوافذ، فرأوا، فعلاً، القيصر يصعد درجات المدخل مستندًا إلى كتف وصيفه. سادت فوضى عارمة. هرع سيّد الدار للقاء بطرس، وتراكم الخدم كالمجانين، وسيطر الجبن على الضيوف، فراح بعضهم يفكّر في طريقة للمغادرة سريعًا إلى منزله. وفجأة، علا في مدخل القاعة صوت بطرس المرتفع الرنّان. هداً كل شيء، ودخل القيصر يرافقه سيّد الدار المضطرب من شدّة الفرح.

- «طاب يومكم، أيّها السادة»، قال القيصر بوجه مرح.

انحنى الجميع انحناءً كبيرة. وراحت عينا القيصر السريعتا الحركة تبحثان في الحشد عن ابنة سيّد الدار الفتية وناداهما. اقتربت نتاليا غافريلوفنا منه بجرأة لافتة، وقد كست الحُمرّة أذنيها وكتفيها أيضًا.

- «أنت تزداين جمالًا ساعة بعد ساعة»، قال لها القيصر وقبّل جبينها كعادته، ثم توجّه مخاطبًا الضيوف، «ماذا بعد، قطعُ جلستكم، أنتم

تتناولون الغداء؛ أدعوكم للجلوس في أماكنكم، أمّا أنا، يا غافريلا أفاناسييفيتش، فهات لي كأسًا من الفودكا باليانسون».

اندفع ربُّ الدار نحو كبير الخدم فخطف الصينية من يده وملأ بنفسه الكأس الذهبية ثم قدّمها للقيصر وهو ينحني احترامًا. شربها القيصر، وأتبعها بكعكة صغيرة من صحنه، ثم دعا الضيوف مرّة ثانية إلى متابعة غدائهم. عاد الجميع إلى الجلوس في أماكنهم، ما عدا القزمات وبنات الأعيان اللواتي لم يتجرّأن على الجلوس إلى المائدة التي شرّفها حضور القيصر. جلس بطرس بجوار صاحب الدار وطلب لنفسه حساء الملفوف، فأسرع وصيفه يعطيه ملعقة خشبية مطعّمة بعاج الفيل وسكّينًا صغيرة وشوكة بقبضتين عظميّتين ملوّنتين باللون الأخضر، فبطرس لم يكن، أبدًا، يستخدم أدوات طعام غير تلك الخاصّة به. واستمرّ الغداء، الذي كان منذ دقيقة صاخبًا مرحًا، في هدوء وتكلّف. لم يأكل صاحب الدار شيئًا لشدّة إحساسه بالهيبة والبهجة. وكذلك كانت حال الضيوف الذين راحوا يُصغون برضا وإعجاب إلى القيصر وهو يتحدّث مع السويدي الأسير باللغة الألمانية عن حملة عام 1701. أمّا يكيمونفا الحمقاء، التي توجّه إليها القيصر بالسؤال مرّات عدّة، فكانت تجيبه ببرودة وارتباك، ولم تكن - أشير عرضًا - إجاباتها تنمّ أبدًا عن غبائها الفطري. انتهى الغداء أخيرًا. نهض القيصر يتبعه الضيوف جميعًا، وقال مخاطبًا سيّد الدار:

- «يا غافريلا أفاناسييفيتش! أريد التحدّث إليك على انفراد»، ثم أمسك بيده وقاده إلى غرفة الضيوف وأغلق الباب.

ظلّ الضيوف في غرفة المائدة يتهايمسون حول سرّ هذه الزيارة المفاجئة، لكنّهم شرعوا، خشية أن يكونوا متطفّلين، يغادرون واحدًا بعد آخر، من دون أن يشكروا سيّد الدار على الخبز والملح، وراح يودّعهم حموه وابنته وأخته في هدوء تامّ حتى الباب. وأخيرًا، بقي الثلاثة وحدهم في غرفة الطعام ينتظرون خروج القيصر.

## الفصل الخامس

مكتبة  
t.me/t\_pdf

سأحصل عليك زوجة،  
وإلا فلن أكون طحّاناً.  
من «أوبرا الطحّان»  
أبليسيموف

فُتح الباب بعد نصف ساعة. خرج القيصر وهو يردُّ في جلال بانحناءة من رأسه، على انحناءات التحيّة الثلاثية من الأمير ليكوف وتاتيانا أفاناسيفنا وناتاشا، ثم اتّجه مباشرة إلى باب الدار. وعند الباب ناوله سيّد الدار حرملته الحمراء ورافقه حتى المدخل، وشكره من جديد في الممرّ، على ما منحه من شرف، وغادر بطرس.

حين عاد غافريلا أفاناسيفتش إلى غرفة الطعام بدا مشغول البال جدّاً. أمر الخدم بنزق أن يرفعوا الصحن عن المائدة، وأرسل ناتاشا إلى غرفتها، وأعلن لأخته وحميه أنّه يريد الحديث إليهما على انفراد، ثم اقتادهما إلى غرفة النوم حيث كان يرتاح عادة بعد الغداء. في الغرفة تمدّد الأمير العجوز على السرير المصنوع من خشب السنديان، وجلست تاتيانا أفاناسيفنا على أريكة قديمة مكسوّة بقماش سميك وازعة قدميها على مسند خشبي صغير، أمّا غافريلا أفاناسيفتش فأغلق الأبواب كلها ثم جلس على حافة السرير عند قدمي الأمير ليكوف، وبدأ الحديث قائلاً:

- القيصر لم يزرنني عبثاً. خمنّا ما الذي أراد أن يحدثني به؟
- «وكيف لنا أن نعرف يا أخي المبجل؟»، قالت تاتيانا أفاناسيفنا.

- «أترأه أمرك بترؤس إحدى الإدارات العسكرية؟»، قال حموه، «أنت تستحق ذلك منذ زمن، أم أنه اقترح عليك سفارة ما؟ ما العيب في ذلك؟ إنهم لا يرسلون إلى الدول الأجنبية الموظفين فقط، بل يرسلون أعيان الناس أيضاً».
- «لا»، قال الصهر مقطباً، «أنا رجل من الطراز القديم. خدمتنا في الجيش غير مطلوبة في هذا الزمن، على الرغم من أن النيبيل الروسي البرفوسلافي قد يكون أكبر قيمة من أغرار اليوم غير الناضجين وعديمي الإيمان، لكن هذا موضوع آخر».
- «ما الأمر إذن، يا أخي الحبيب؟»، قالت تاتيانا أفاناسيفنا، «عم تفضل فحدّثك هذا الوقت الطويل؟ لا تقل لي إن مكروهاً قد حلّ بك! حماك الربّ وغمرك برحمته!».
- مكروه، لا، ليس مكروهاً، ولكنّي أعترف أنني فكّرت في ذلك.
- ما هو، إذن، يا أخي الحبيب؟ ما الأمر؟
- الأمر يتعلّق بناتاشا، لقد جاء القيصر يخطبها.
- «الحمد لله»، قالت تاتيانا أفاناسيفنا راسمة علامة الصليب على صدرها، «البت في سنّ الزواج، ومكانة العريس من مكانة الخاطب، ليهب الربّ العريسين المحبّة والحكمة، أمّا الشرف فكبير. ترى لمن يخطبها القيصر؟».
- «هاها، لمن؟»، قال غافريلا أفاناسيفيتش بنزق، «هذه هي المشكلة، لمن؟».
- «لمن؟»، كرّر الأمير ليكوف السؤال وهو يغالب النعاس.
- «احزرا!»، قال غافريلا أفاناسيفيتش.
- «وكيف لنا أن نحزر يا أخي الحبيب؟»، قالت العجوز، «العرسان ليسوا قلة في البلاط، وكل منهم يتمنّى أن يحصل على ناتاشاك. أهو دولغوروكي؟».

- لا ليس دولغوروكي.
- طيّب، لا تأسف لفقده، فهو متعجرف جدًا. أليكون الخاطب شين، أو ترايكوروف؟
- كلاً، لا هذا ولا ذاك.
- وهذان أيضًا لا يحبهما قلبي، إنهما متقلبا المزاج، وقد تشرّبا الكثير من الروح الألمانية. لعلّه، إذن، ميلوسلافسكي؟
- لا، ليس هو.
- طيّب، لا يهّم، فهو غنيّ لكنّه غبيّ. من الخاطب إذن؟ يليتسكي؟ لفوف؟ لا، ليس أيّا منهما؟! أيعقل أن يكون راغوزينسكي؟! الرأي رأيك: أنا لم أعد قادرة على التفكير. ترى لمن جاء القيصر يخطب ناتاشا؟
- للحبشي إبراهيم.
- تأوّهت العجوز ضاربة كفًا بكفّ، ورفع الأمير ليكوف رأسه عن الوسادة وهو يكرّر مصعوقًا:
- الحبشي إبراهيم!
- «يا إلهي يا أخي الحبيب»، قالت العجوز بصوت باكٍ، «لا ترسل طفلتك الصغيرة الحبيبة إلى الهلاك، لا ترمِ ناتاشينكا بين مخالب الشيطان الأسود!».
- «ولكن كيف؟»، قال غافريلا أفاناسييفيتش معترضًا، «كيف أرفض طلب القيصر الذي وعد مقابل ذلك أن يشملنا برعايته، أنا وعائلتنا كلها؟».
- «كيف؟»، صاح الأمير العجوز وقد فارقه النعاس تمامًا، «ناتاشا، حفيدتي أنا، يتزوّجها حبشي مشترى بالمال؟».
- «إنّه ليس وضع النسب»، قال غافريلا أفاناسييفيتش، «إنّه ابن سلطان الحبشة، أسره الكفّار وباعوه في تساريغراد، فافتداه سفيرنا وأهداه



للقيصر. فيما بعد جاء إلى روسيا الأخ الأكبر لهذا الحبشي حاملاً فدية ضخمة غير»...

- «هات المهم يا أبت غافريلا أفاناسييفيتش»، قاطعته العجوز، «نحن نعرف حكاية الأمير بوف وردسلان لازارييفيتش، الأفضل أن تقول لنا بماذا أجب القيصر على طلبه».

- قلت له: 'إنَّ الأمر أمرٌ في التعامل معنا، وما دورنا نحن الحاشية، سوى طاعتك في كل شيء'.

علت في هذه اللحظة ضجّة خلف الباب، فمضى غافريلا أفاناسييفيتش ليفتحه، ولكنّه أحسّ بثقل خلفه، فدفعه بقوة. فُتح الباب ورأى الجميع وراءه ناتاشا ممدّدة على الأرض المدمّاة وهي غائبة عن الوعي.

لقد وجف قلبها حين اختلى القيصر وأبوها وراء الباب المغلق، ووخز صدرها إحساس غامض بأنَّ الأمر يتعلّق بها. وحين طلب غافريلا أفاناسييفيتش منها مغادرة المكان معلناً أنّه يريد التحدّث إلى عمّتها وجدّها، لم تستطع أن تقاوم الفضول الأنثوي، فتسلّلت عبر الغرف الداخلية إلى باب غرفة النوم، ولم تفتّها أية كلمة من الحديث الفظيع كله. وما إن سمعت كلمات أبيها الأخيرة حتى فقدت الوعي، واصطدم رأسها وهي تهوي إلى الأرض بالصندوق المصفّح بالحديد الذي كانت تحتفظ فيه ببائنة زواجها.

تراكض الخدم، فرفعوا ناتاشا وحملوها إلى غرفتها ومدّدوها على السرير. حين صحت من غيبوبتها بعد وقت قصير، فتحت عينيها، ولكنها لم تعرف أباهَا أو عمّتها. فقد انتابتها حمّى شديدة فراحت تهذي بالكلام على حبشي القيصر وحفل الزفاف، وفجأة صرخت بصوت حادّ مستغيث:

- فاليريان، حببي فاليريان، حياتي أنت! أنقذني، ها هم قادمون، ها هم قادمون!

نظرت تاتيانا أفاناسييفنا إلى أخيها بقلق، وقد عضّ على شفتيه، وعلا الشحوب وجهه، وهو يغادر الغرفة صامتاً، عائداً إلى الأمير العجوز الذي لم يستطع صعود الدرج فبقي في الطابق الأرضي.

- «كيف حال ناتاشا؟»، سأله الأمير.
- «سيئة!»، أجاب الأب في انفعال، «أسوأ ممّا تصوّرت. إنّها فاقدة الوعي تهذي باسم فاليريان».
- «من هذا فاليريان؟»، سأل العجوز في قلق، «أهو ذلك اليتيم ابن الجندي الذي ربّيته في بيتك؟».
- «هو نفسه»، أجاب غافريلا أفاناسيفيتش، «من سوء حظّي أنّ أباه أنقذ حياتي في زمن التمرد الفلاحى، فألهمني الشيطان أن أقبل في بيتي ذلك الذئب الصغير. بعد عامين ألحقناه بأحد الأفواج بناءً على طلبه، وقد بكت ناتاشا كثيرًا في وداعه، أمّا هو فكان جامدًا كحجر. لقد بدا لي الأمر مثيرًا للشكوك فحدّثت أختي بذلك. غير أنّ ناتاشا لم تذكره أبدًا منذ ذلك الحين، وهو أيضًا اختفى، ولم نعد نسمع عنه شيئًا. ظننتها نسيته، ولكنّي، على ما يبدو، أخطأت. قُضي الأمر: سأزوّجها للحبشي».
- لم يعترض الأمير ليكوف، فالاعتراض لم يكن مجدّيًا. ذهب إلى بيته، وظلّت تاتيانا أفاناسيفنا إلى جانب ناتاشا. أما غافريلا أفاناسيفيتش فأرسل في طلب الطبيب، وأغلق على نفسه باب غرفته، وخيّم الهدوء والحزن على البيت كله.
- الخطبة المفاجئة أدهشت إبراهيم، ليس أقل ممّا أدهشت غافريلا أفاناسيفيتش نفسه. وإليكم كيف حدث ذلك.
- قال بطرس لإبراهيم وهما منهما مكان في العمل:
- أرى يا صاحبي أنّ همّتك قد فترت. قل بصراحة، ما الذي ينقصك؟
- فأكّد إبراهيم للقيصر أنّه راضٍ عن حاله ولا يتمنّى أفضل ممّا هو فيه.
- «طيّب»، قال القيصر، «إذا كنت ضجرًا من دون سبب، فأنا أعرف كيف أدخل السرور إلى قلبك». وبعد انتهائهما من العمل سأله:
- أتعجبك تلك الفتاة التي رقصت معها رقصة المينويت في الحفلة الماضية؟

- إنها، يا سيدي القيصر، لطيفة جدًا، ويبدو أنها فتاة متواضعة وطيبة القلب.
- إذن، سأعرّف كلا منكما بالآخر. باختصار، هل ترغب في الزواج منها؟
- أنا، يا سيدي القيصر؟
- اسمع يا إبراهيم، أنت إنسان وحيد، من دون أهل أو عشيرة، غريب بالنسبة إلى الآخرين جميعًا ما عداي. فما الذي سيحل بك يا حبشي المسكين لو أنا مت اليوم؟ لا بد لك من جماعة تنتمي إليها قبل فوات الأوان، لا بد لك من سند من خلال علاقات جديدة تربطك بطبقة من النبلاء الروس.
- سيدي القيصر، أنا سعيد برعاية جلالتكم لي وعطفكم عليّ، ولا قدّر الله لي العيش من بعدك يا سيدي وولي نعمتي. أنا لا أريد أي شيء غير ذلك. أمّا بشأن الزواج فإني أتساءل هل ستوافق الصبيّة وأهلها عليه؟ إنّ مظهري...
- مظهرك! ما هذا الهراء! ما العيب فيك؟ على الصبيّة أن تُطيع أبويها، وسنرى ما الذي سيقوله العجوز غافريلا رجيفسكي حين سأخطبها لك أنا شخصيًا؟
- قال القيصر هذه الكلمات ثم أمر بإحضار العربة، ومضى تاركًا إبراهيم غارقًا في أفكاره.
- قال الأفريقي في سرّه: «أنا أتزوج! ولم لا؟ هل قدّر لي أن أعيش وحيدًا لا أعرف طعم أفضل مسرّات الإنسان وأقدس واجباته، لا شيء إلّا لأنني وُلدت تحت خطّ العرض الخامس عشر؟ ألا أمل لي في أن أكون محبوبًا؟! كلام صبيان! هل بمقدورنا أن نثق بالحبّ؟ هل هو موجود في قلوب النساء المتقلّبة؟ لقد هجرت إلى الأبد متع اللهو المحبّبة، ولكنّي اكتسبت مُتعة جديدة، أكثر أهميّة. القيصر محقّ: يجب أن أوّمن مستقبلي. زواجي من الأميرة الشابة

رجيفسكايا سيضمُّني إلى طبقة النبلاء الروس الأبيَّة، فأكفَّ عن كوني لاجئًا غريبًا في وطني الجديد. لن أطلب زوجتي بالحبِّ، سأكتفي منها بالإخلاص، أمَّا ودُّها، فسأكسبه بالرفقة الدائمة والثقة والتواضع».

لم يستطع إبراهيم أن يشغل نفسه بالعمل كعادته. كان تفكيره مشتتًا جدًّا. فترك الأوراق ومضى يتجوَّل من دون هدف على ضفاف نهر نيفا. وفجأة، سمع صوت بطرس. التفت فرأى القيصر الذي ترجَّل من عربته ولحق به وقد بدا عليه المرح.

- «قُضي الأمر يا صاحبي»، قال بطرس وهو يمسك بذراعه، «خطبتها لك. اذهب غدًا إلى حميك، ولكن انتبه! عليك أن ترضي الكبرياء الذي يتَّسم به ككل النبلاء: اترك عربتك عند البوابة، واجتز الفناء راجلاً، حدِّثه عن خدماته، وعراقه نسبه، وسيهيم بك حبًّا». تابع القيصر وهو يهزُّ عكَّازَه، «والآن، أوصلي إلى المحتال دانييلتش، فأنا أريد أن أحادثه في أمر نزواته الجديدة».

شكر إبراهيم بطرس من أعماق قلبه على رعايته الأبوية، ورافقه حتى قصر الأمير مينشيكوف الرائع، ثم قفل راجعًا إلى بيته.

## الفصل السادس

انتشر ضوء المصباح خافتاً أمام الخزانة الزجاجية التي التمع فيها بريق أيقونات قديمة توارثتها العائلة مزركشة بالذهب والفضّة. وغمر الضوء الضعيف الراعش كله السرير والطاولة الصغيرة، التي تناثرت فوقها أوانٍ زجاجية، عليها لصاقات تشير إلى محتوياتها. وإلى جانب الموقد جلست خادمة تنسج على نول يدوي، لم يكن يخرق الصمت سوى الحفيف الصادر عنه.

- «من هناك؟»، سأل صوت ضعيف.

فنهضت الخادمة في الحال واقتربت من السرير ورفعت ذيل الكِلّة بهدوء.

- «هل الصبح قريب؟»، سألت ناتاليا.

- «نحن الآن في منتصف النهار»، أجابت الخادمة.

- آه، يا إلهي! ما سبب هذه الظلمة إذن؟

- النوافذ مغلقة يا أميرتي.

- أعطني ملابسي بسرعة.

- ممنوع يا أميرتي، الدكتور لم يسمح بذلك.

- هل أنا مريضة؟ منذ متى؟

- منذ أسبوعين تقريباً.

- أحقّاً؟ أنا لا أشعر أنني رقدت في السرير إلا مساء البارحة...

صمتت ناتاشا وهي تحاول تجميع أفكارها المشتتة. لقد حدث شيء ما،

ولكن لم تستطع أن تتذكّر ما الذي حدث بالضبط؟ أمّا الخادمة فظلت واقفة

أمامها تنتظر الأوامر. وعلت في هذه الأثناء ضجّة مكتومة.

- «ما هذا؟»، سألت المريضة.
- «لقد انتهى السادة من تناول الطعام»، أجابت الخادمة، «إنهم ينهضون عن المائدة، وستصعد الآن إلى هنا تاتيانا أفاناسيفنا».
- بدا أن ناتاشا سرت لذلك. لوحت بيدها الضعيفة، فأسدلت الخادمة الستارة على السرير وجلست إلى نولها اليدوي من جديد.
- بعد بضع دقائق أطلّ من الباب رأس تغطيه قُبعة بيضاء عريضة، تزيّنها شرائط غامقة اللون، وسألت صاحبة القُبعة بصوت خفيض:
- ما حال ناتاشا؟
- «أهلاً يا عَمَّتِي»، همست المريضة، فاندفعت تاتيانا أفاناسيفنا نحوها.
- «استعادت الأميرة الصغيرة وعيها»، قالت الخادمة وهي تقدّم للعمّة المقعد بحذر.
- قَبِلَت العجوز، وعيناها تدمعان، وجه ابنة أخيها الشاحب المرهق، ثم جلست إلى جانبها. وجاء في إثرها الطبيب الألماني بقفطانه الأسود وشعره العُلمائي المستعار، فجسّ نبض ناتاشا وأعلن باللغة اللاتينية، ثم باللغة الروسية، أنَّ الخطر قد زال. بعد ذلك طلب ورقة بيضاء ومحبرة، فكتب للمريضة وصفة جديدة ثم مضى. أما العجوز فنهضت وقَبِلَت ناتاليا مرّة ثانية، انطلقت بعدها مسرعة إلى الطابق السفلي، حاملة النبا السعيد إلى غافريلا أفاناسيفيتش.
- في صالة الضيوف جلس حبشيُّ القيصِر بزيّه الرسمي وسيفه، ممسكاً بيديه قَبْعته وهو يتبادل الحديث باحترام مع غافريلا أفاناسيفيتش. أمّا كورساكوف الذي تمدّد على أريكة محشوّة بالريش، فكان يستمع إليهما شارد الذهن وهو يداعب كلب حراسة مدرّباً، وحين أضجره ذلك، وقف أمام المرأة التي اعتاد أن يشغل أوقات فراغه في الوقوف أمامها، وفي المرأة رأى تاتيانا أفاناسيفنا وهي ترسل من وراء الباب إشارات غير ملحوظة لأخيها.
- «إنهم ينادونك يا غافريلا أفاناسيفيتش»، قال كورساكوف موجّهاً كلامه إليه قاطعاً بذلك حديث إبراهيم.

- توجّه غافريلا أفاناسيفيتش على الفور إلى حيث أخته وأغلق وراءه الباب.
- «يدهشني صبرك»، قال كورساكوف مخاطبًا إبراهيم، «ساعة كاملة وأنت تصغي إلى هذيانه عن عراقة أصول عائلتي ليكوف ورجيفسكي، بل تضيف إلى ذلك تعليقاتك عن الأخلاق الفاضلة أيضًا! لو كنت مكانك لنسيت أمر هذا العجوز الكذاب وكل عائلته، بما في ذلك تلك الناتاليا غافريلوفنا التي تتمنّع وتتظاهر بالمرض وبأنّها *une petite santé*<sup>(1)</sup>. قل لي بشرفك، هل أنت حقًا مغرم بهذه *Mijaurée*<sup>(2)</sup> الصغيرة؟ اسمع يا إبراهيم! اتبع نصحي لو مرّة واحدة، فأنا، في الحقيقة، أكثر حكمة ممّا يبدو لك. دعك من هذه الفكرة الضالّة. لا تتزوّج. يبدو لي أن عروسك لا تكنُ لك أي شعور بالودّ. من يدري ما الذي يمكن أن يحدث في الحياة؟ أنا مثلاً لست قبيحًا طبعًا، ولكنّي استطعت أحيانًا أن أخدع أزواجًا ليسوا أسوأ منّي في شيء. أنت نفسك... ألا تذكر صاحبنا الباريسي الأمير د.؟ لا يستطيع المرء أن يثق بإخلاص النساء، وسعيد من ينظر إلى هذا الأمر من دون مبالاة! ولكن أنت! أنت ذو الطبع الحادّ، الشكّاك، الواسع الخيال، أنت ذو الأنف الأفتس والشفيتين المنتفختين وهذا الشعر الكثّ، كيف ستتزوّج وتعرّض نفسك لكل هذا الخطر؟».
- «أشكرك على نصيحتك الأخوية»، قاطعه إبراهيم ببرود، «أنت تعرف المثل القائل: لا تشغل بالك بأطفال غير أطفالك...».
- «احذر يا إبراهيم!»، علّق كورساكوف ضاحكًا، «احذر الاضطرار إلى أن تصبح برهناً واقعيًا على صحّة هذا المثل بمعناه الحرفي».
- أمّا الحديث في الغرفة المجاورة فكان يزداد حرارة.

(1) ضعيفة.

(2) المدلّة.

- «أنت تقتلها»، قالت العجوز، «لن تحتمل حتى رؤيته».

- «طيب، احكمي بنفسك»، ردّ الأخ العنيد معترضاً، «ها قد مضى أسبوعان وهو يتردد على بيتنا عريساً من دون أن يرى عروسه حتى الآن. وقد يظنُّ، في نهاية الأمر، أنَّ مرضها مجرد كذبة، وأننا لا نبحث إلا عن تضييع الوقت، علَّنا نتخلَّص منه بشكل ما، وما الذي سيظنُّه القيصر أيضاً؟ ها هو ذا يرسل للمرَّة الثالثة من يسأل عن صحَّة ناتاليا. أنت حرَّة. أمَّا أنا فلا أرغب في مخاصمته».

- «يا ربِّي ومولاي»، قالت تاتيانا أفاناسيفنا، «ماذا سيحلُّ بها، بهذه المسكينة؟ دعني، على الأقل، أهيتها لهذه الزيارة».

وافق غافريلا أفاناسيفيتش على ذلك، ومضى عائداً إلى صالة الضيوف.

- «الحمد لله»، قال لإبراهيم، «زال الخطر. ناتاليا أفضل بكثير الآن. ولولا خجلي من أن أترك ضيفنا العزيز وحده، لرافقتك الآن إلى الطابق العلوي كي ترى عروسك».

هنأ كورساكوف غافريلا أفاناسيفيتش ورجاه ألا يقلق بشأنه، مؤكِّداً أنَّه مضطَّرَّ إلى المغادرة، ثم أسرع إلى المدخل، من دون أن يحمل سيّد الدار عناء مرافقته.

في هذه الأثناء، أسرع تاتيانا أفاناسيفنا كي تهَيِّئ المريضة لاستقبال الضيف القبيح. دخلت إلى الغرفة وجلست إلى جانب سرير ناتاشا وهي تتنفس بصعوبة، ثم أمسكت بيدها، ولكنَّ الباب فُتح حتى قبل أن تتفوَّه بكلمة. فسألت ناتاشا:

- من أتى؟

جمدت العجوز من وقع المفاجأة وفقدت القدرة على النطق. أزاح غافريلا أفاناسيفيتش الستارة، وألقى نظرة باردة على المريضة وهو يسألها عن حالها. أرادت أن تبتسم ولكنَّها لم تستطع، صعقتها نظرة الأب الصارمة وتملَّكها القلق. وبدا لها أنَّ أحدهم كان في هذه الأثناء يقف عند رأسها، رفعته بصعوبة، فرأت،



فجأة، حبشي القيصر. هنا تذكّرت كل شيء، وتجلّت لها فضاة المستقبل كلّها، غير أنّ جسدها المرهق لم يرتعد ارتعادًا ملحوظًا. أسندت رأسها إلى الوسادة من جديد وأغمضت عينيها... وكان قلبها يخفق خفقانًا مؤلمًا. أرسلت تاتيانا أفاناسيفنا لأخيها إشارة مفادها أنّ المريضة تريد أن تنام، فخرج الجميع من الغرفة في هدوء ما عدا الخادمة التي عادت فجلست إلى نولها اليدوي.

فتحت الجميلة التعيسة عينيها فلم تجد أحدًا بالقرب من سريرها، فنادت الخادمة وأرسلتها في طلب القزمة. وفي اللحظة نفسها كانت العجوز الضئيلة تتدحرج ككرة صغيرة مقتربة من السرير. كانت السنونوة -هكذا كانوا يسمّون القزمة- قد صعدت خلف غافريلا أفاناسيفيتش وإبراهيم مستعينة بكلّ ما في ساقها القصيرتين من قدرة، واختبأت تنصّت وراء باب الغرفة، يدفعها إلى ذلك الفضول الذي يتّسم به الجنس اللطيف كلّهُ. صرفت ناتاشا الخادمة حين رأت القزمة التي جلست على مقعد صغير بالقرب من سريرها.

لا مثيل أبدًا لما ينطوي عليه جسد هذه القزمة الصغير من نشاط روحي. كانت تتدخل في كلّ شيء، وتعرف كلّ شيء، وتسعى إلى كلّ شيء، وتستطيع، بعقلها المراوغ المتلصّص أن تكتسب حبّ سادتها وكره جميع أهل البيت الذين كانت تسيّرهم كما تشاء. كان غافريلا أفاناسيفيتش يصغي إلى وشاياتها وشكاواها ويلبّي طلباتها الصغيرة، وكانت تاتيانا أفاناسيفنا تستشيرها في كلّ شيء، وتعمل بنصائحها. أمّا ناتاشا فكانت متعلّقة بها تعلّقًا لا حدود له، تأتمنها على أسرارها وكلّ خلجات قلبها، قلب الفتاة ذات السنّة عشر ربيعًا.

- «أتدريين يا سنونوة»، قالت ناتاشا، «أبي يريد تزويجي للحبشي».

أرسلت القزمة تنهيدة عميقة وازداد عبوس وجهها العابس أصلًا.

- «أما من أمل»، تابعت ناتاشا، «في أن يُشفق أبي على حالي؟».

هزّت القزمة رأسها علامة النفي.

- ألن يدافع عني جدّي أو عمّتي؟

- كلاً يا أميرتي الصغيرة. لقد أدار الحبشي عقول الجميع في أثناء

مرضك. السيد يكاد يُجنُّ إعجابًا به، والأمير لا يلهج إلا باسمه، أما تاتيانا أفاناسيفنا فتقول: 'المؤسف أنه حبشيّ، فلولا ذلك لكان حرامًا علينا أن نتمنّى عريسًا أفضل منه'.

- «يا إلهي، يا إلهي!»، هتفت ناتاشا المسكينة بصوت متوجّع.  
- «لا تحزني يا حلوتنا»، قالت القزمة وهي تلثم يدها الضعيفة، «أنت ستكونين في كامل حرّيتك حتى لو تزوّجت من الحبشيّ. الحال اليوم غير ما كانت عليه في الماضي، فما عاد الأزواج يوصّدون الأبواب على زوجاتهم، والحبشيّ، كما سمعت، ثري، وسيكون بيتكما كالكأس المترعة، ستعيشين عيشة فارهة»...

- «مسكين فاليريان!»، قالت ناتاشا بصوت خافت.  
لم تستطع القزمة إلا أن تخمّن ما قالته من كلمات لم تسمعها.  
- «هذه هي المشكلة إذن يا أميرتي الصغيرة»، قالت وهي تخفض صوتها كي لا يسمعه الآخرون، «لو أنّك قلّلت من تفكيرك باليتيم ابن الجندي، لو أنّك لم تهذي باسمه وأنت محمومة، لما غضب أبوك».  
- «ماذا؟»، قالت ناتاشا وقد تملّكها الخوف، «كنت أهذي باسم فاليريان وسمع أبي ذلك وغضب!».

- «هذي هي المصيبة»، أجابت، «فإذا طلبت منه الآن ألا يزوّجك للحبشيّ، ظنّ أنّ فاليريان هو السبب في ذلك. لا سبيل أمامك إلا الاستسلام لإرادة والدك وليكن ما يكون».

لم تعترض ناتاشا، لو بكلمة، على ما قالته القزمة، فقد سيطر على خيالها بقوة أنّ أباهما يعرف السرّ الذي سكن قلبها. ولم يبقَ لها غير أمل واحد هو أن تموت قبل إتمام هذا الزواج. هدأت هذه الفكرة روعها، فاستسلمت لقدرها ضعيفة حزينة الروح.

## الفصل السابع

في دارة غافريلا أفاناسيفيتش، إلى يمين المدخل، غرفة ضيقة متواضعة لها نافذة صغيرة واحدة. في هذه الغرفة سرير بسيط عليه غطاء من الوبر، وأمامه طاولة صغيرة من خشب السرو عليها شمعة مضاءة من شحم الخنزير، وإلى جانبها دفاتر نوبة موسيقية. وعلى الجدار عُلِّقت بزّة رسمية زرقاء مهترئة وإلى جانبها قُبعة لا تقلُّ عنها قِدَمًا، وفوقها تُبِتت بثلاثة مسامير لوحة من القماش المشمَّع تصوِّر كارل الثاني عشر على ظهر جواد. كانت أصوات المزمار تصدح في أرجاء هذا العشِّ المتواضع. وكان أستاذ الرقص الأسير الذي يعيش فيه وحيدًا يضع قُبعة مخروطة الشكل على رأسه وشالًا صينيًّا على كتفيه، وقد راح يسليّ ضجر الأمسية الشتوية بعزف بعض المارشات السويدية القديمة التي كانت تذكِّره بأيَّام صباه. وبعد أن قضى ساعتين كاملتين في هذا العمل، فكَّك مزماره ووضعه في الدُّرج وشرع يخلع ملابسه استعدادًا للنوم. في هذه اللحظة صرَّ القفل وفُتِح الباب، فدخل إلى الغرفة شابٌّ جميل طويل القامة يرتدي زيًّا رسميًا.

وقف السويدي دهشًا أمام هذا الضيف غير المنتظر.

قال الزائر الشاب بصوت متهدِّج:

- أنت لم تعرفني يا غوستاف أداميتش. لقد نسيت الفتى الذي كنت تعلِّمه الأبجدية السويدية، والذي كدت أن تشعل معه حريقًا في هذه الغرفة الصغيرة، وأنتما تطلقان النار من مدفع أطفال صغير.
- حملك غوستاف أداميتش يتفحَّصه بنظره، وصاح أخيرًا وهو يعانقه:

- إي إي إي. مرخبًا، هل أنت هنا من سمان. اجلس، وخذني عن  
أحوالك التيبة...

(1827 - 1828)

## دوبروفسكي

كتب بوشكين هذا العمل عام 1833 (بدأ في كتابته أواخر عام 1832)، وتاريخ الانتهاء منه غير محدّد.

موضوع الرواية مبنيّ على وقائع حقيقية، رواها لبوشكين صديق له اسمه ناشوكين، عن أحد النبلاء البيلاروسيين غير الأثرياء يُدعى أوستروفسكي (في البداية حملت الرواية اسمه) خاض مع جاره معركة قضائية حول ملكية مزرعته، خسرها وهُجّر من المزرعة مع فلاحيه، فتحوّل إلى قاطع طريق. قرار المحكمة الوارد في الرواية نسخة حقيقية عن القرارات القضائية آنذاك، استخدم بوشكين في صياغته قرار القضاء في قضية الإقطاعيين كريكوف وموراتوف.



# الجزء الأول

## الفصل الأول

قبل بضعة أعوام انتقل النبيل الروسي العريق كيرىلا بتروفيتش ترويكوروف، للعيش في إحدى ضيعه. وقد منحته ثروته وعراقة أصله وعلاقاته وزناً كبيراً في المقاطعات التي ضمت أملاكه. كان الجيران مستعدين لإرضاء حتى أصغر نزواته عن طيب خاطر، والموظفون الحكوميون يرتعدون خوفاً عند ذكر اسمه. وكان كيرىلا بتروفيتش يتقبل مظاهر الخنوع هذه بوصفها أمراً واجباً. كان بيته يغص دائماً بالضيوف المستعدين لتسلية في فراغه الأرستقراطي، ومشاركته في مرحة الصاخب، بل الهائج في بعض الأحيان، وما من أحد كان يجروء على رفض دعوته، أو التخلف عن الحضور إلى بلدة بوكروفسكويه في أيام معلومة لتقديم فروض الاحترام. في حياته المنزلية تجلّت عيوب الإنسان الجاهل كلها. كان كل ما حوله يشعره بالدلال، فعوّده ذلك على أن يطلق العنان لكلّ اندفاعات طبعه النزق، وكلّ ألعايب عقله المحدود للغاية. وهو، على الرغم من إمكانيات بدنه الخارقة، كان يشكو كلّ مساء مرّتين أو أكثر من التخمة، وتبدو عليه علامات السكر. كانت ستّ عشرة فتاة يُقمن في أحد أجنحة منزله، ويشتغلن في أعمال الزينة والتطريز وغيرها ممّا يناسب جنسهنّ. كانت نوافذ الجناح محجوبة بشبكة من القضبان الخشبية، والأبواب موصدة بأقفال يحتفظ كيرىلا بتروفيتش بمفاتيحها. وكانت الفتيات السجينات يخرجن في ساعات محدّدة إلى الحديقة،

ويتنزهن تحت رقابة امرأتين عجوزين. وكان كيرىلا بتروفيتش يزوج بعضهن بين وقت وآخر، فتحل محلهن جديداً. تعامله مع الفلاحين وخدم المنزل كان صارماً ومزاجياً، لكنهم تفاخروا بثراء سيدهم ومجده، وتناولوا بدورهم على جيرانهم مستندين إلى قدرته الفائقة على حمايتهم.

أشغال ترويكوروف الدائمة، جولاته على أملاكه الشاسعة والولائم المتواصلة، والمقالب اليومية المبتكرة التي يقع ضحيتها عادة أحد معارفه الجدد، كانت شغله الدائم. لكن أصحابه القدامى لم يكونوا بمنجاة من مقابله دائماً، ما عدا واحداً هو أندريه غافريلوفيتش دوبروفسكي. كان دوبروفسكي ضابطاً متقاعداً من سلاح الفرسان، وهو أقرب جيران ترويكوروف، يملك سبعين نفساً من الأبقان. وكان ترويكوروف المتعالي في علاقاته حتى مع الناس ذوي الألقاب الرفيعة، يحترم دوبروفسكي بغض النظر عن ثروته المتواضعة. لقد كانا ذات يوم رفيقين في الخدمة العسكرية، وهناك عرف ترويكوروف بالتجربة طبعه النزق وحزمه. ثم فرقتهما الظروف مدة طويلة. واضطر دوبروفسكي الذي تبددت ثروته، إلى الاستقالة، والإقامة في الضيعة الوحيدة المتبقية منها. حين علم كيرىلا بتروفيتش بأمره عرض عليه حمايته، لكن دوبروفسكي شكره وبقي فقيراً ومستقلاً. وبعد بضع سنوات انتقل الجنرال أول المتقاعد ترويكوروف للعيش في ضيعته. وهكذا التقيا ففرح كل منهما بلقاء الآخر. ومنذ ذلك الوقت راحا يلتقيان يوميًا. وكان كيرىلا بتروفيتش الذي لم يمنح أحدًا شرف استضافته في يوم من الأيام، يزور ببساطة زميله القديم في بيته المتواضع. لقد كانا متقاربين في السن، ولدا في طبقة اجتماعية واحدة، وتلقيا تربية متماثلة، ولذا تشابها إلى حد ما في الطبع والميول، بل كان مصيراهما أيضًا متشابهين في بعض جوانبهما. لقد تزوج كل منهما عن حب لكنهما ترملا بسرعة، ولدى كل منهما مولود. ابن دوبروفسكي تربى في بيتربورغ، وابنة كيرىلا بتروفيتش كبرت أمام عيني والدها، وكان ترويكوروف يقول لدوبروفسكي في أحيان كثيرة:



- اسمع يا أخى أندريه غافريلوفيتش، ما دام لابنك فولودكا مستقبل طيب، سأزوجه ابنتي ماشا، فلا معنى لبقائك فقيراً أجرد كالصقر. فيهِزُّ أندريه غافريلوفيتش رأسه ويجيب عادة:

- لا، يا كيرىلا بتروفيتش، ابني فولودكا لا يصلح عريساً لماريا كيريلوفنا. إنَّ زواج نبيل فقير مثله من نبيلة فقيرة يكون فيه سيّد بيته، خير من أن يصبح وكيل أعمال امرأة مدلّلة.

كان الجميع ينظرون بحسد إلى الوفاق السائد بين ترويكوروف المتعجرف وجاره الفقير، ويدهشون لشجاعة هذا الأخير حين كان، وهو على مائدة كيرىلا بتروفيتش، يعبر عن رأيه صراحة، سواء أكان مخالفاً أم موافقاً آراء ربِّ الدار. وقد حاول بعضهم أن يقلّده ويخرج عن حدود الطاعة، ولكنَّ كيرىلا بتروفيتش أخافهم إلى حدٍّ أفقدهم إلى الأبد الرغبة في مثل هذه التجاوزات. وظلَّ دوبروفسكي الوحيد الذي لا يخضع لذلك القانون العام. لكنَّ حدثاً مصادفاً خرَّب وغير كلَّ شيء.

ذات مرّة، في بداية الخريف، أراد كيرىلا بتروفيتش القيام برحلة صيد طويلة. عشية الرحلة صدرت الأوامر لمدرّبي الكلاب وسائسي الخيل بأن يكونوا جاهزين في الساعة الخامسة صباحاً. وتمَّ إرسال الخيمة والمطبخ مسبقاً إلى المكان الذي سيتناول فيه كيرىلا بتروفيتش طعام الغداء. ومضى صاحب الدار وضيوفه إلى حظيرة الكلاب حيث كان يعيش ما يزيد على خمسمئة من كلاب الصيد والحراسة في رفاهة ودفع، وهي تُشيد بكرم كيرىلا بتروفيتش بلغتها الكلبية. في الحظيرة مشفى ميداني للكلاب المريضة يُشرف عليه المعالج البيطري الرئيس تيموشكا، وجناح تلد فيه الكلبات الأصيله جراءها وترضعها. وكان كيرىلا بتروفيتش يفخر بهذه المنشأة الرائعة، ولا يفوّت مناسبة من دون أن يتباهى بها أمام ضيوفه الذين زاروها من قبل عشرين مرّة على الأقل. راح يتجول في الحظيرة محاطاً بضيوفه، يرافقه تيموشكا ومدرّبو الكلاب الرئيسيون، فيتوقّف أمام بعض بيوت الكلاب تارة، ويستفسر تارة عن صحّة المريضة منها،

أو يبدي ملاحظات صارمة وعادلة إلى هذا الحدّ أو ذاك، أو ينادي كلابًا يعرفها متحدّثًا إليها بودّ. كان الضيوف يُعدّون إبداء الإعجاب بحظيرة كلاب كيريل بتروفيتش أمرًا واجبًا. دوبروفسكي هو الوحيد الذي ظلّ صامتًا عابثًا. لقد كان صيادًا مولعًا بالصيد، ولكنّ حالته الماديّة لم تكن تمكّنه من اقتناء أكثر من كلبين سلوقيين ومجموعة صغيرة من كلاب المطاردة. وقد شعر، رغمًا عنه، ببعض الحسد عند رؤيته هذه المنشأة الخلّابة.

- «لم أنت عابس يا أخي؟»، سأل كيريل بتروفيتش، «ألا تُعجبك حظيرة كلابي؟».

- «لا، الحظيرة تحفة»، أجاب بجفاء، «أشكّ في أن يكون سكن فلاحيك كسكن كلابك».

استاء أحد مدرّبي الكلاب.

- «نحن»، قال المدرّب، «بفضل الله وسيّدنا لا نشكو من سكننا، ولكنّ

الحقّ حقّ، فقد يكون من الأفضل لبعض النبلاء أن يستبدل مسكنه

بأي بيت من بيوت الكلاب هذه، فهنا سيجد طعامًا أكثر، ودفعًا أكثر».

ضحك كيريل بتروفيتش بصوت عالٍ لملاحظة خادمه الوقحة، وجاراه

الضيوف مقهقهين، رغم أنّهم شعروا بأنّ نكتة مدرّب الكلاب يمكن أن تمسّهم

أيضًا. شحب وجه دوبروفسكي ولم ينطق بكلمة. وفي هذه الأثناء جاء العمّال

إلى كيريل بتروفيتش بسلة فيها جراء حديثة الولادة، فانشغل بها، انتقى منها

جروين وأمر بإغراق البقية، أما أندريه غافريلوفيتش فاختفى من دون أن يلحظ

أحد ذلك.

لم يلحظ كيريل بتروفيتش غياب دوبروفسكي إلّا بعد أن عاد مع ضيوفه

من حظيرة الكلاب وجلس إلى مائدة العشاء. سأل عنه، فأجابه الخدم أنّ

أندريه غافريلوفيتش ذهب إلى بيته، فأمر ترويكوروف أن يلحقوا به في الحال

ويعيدوه حتمًا، فهو لم يكن يخرج للصيد من دون دوبروفسكي الخبير بالكلاب،

والعارف ميزاتها بدقّة، والقادر على حلّ شتّى إشكالات الصيد من دون أخطاء.

عاد الخادم الذي لحق بدوبروفسكي، وهم ما يزالون على مائدة العشاء، وأخبر سيّده بأنّه لم يستجب لدعوته ورفض العودة. غضب كيريل بتروفيتش كعادته، وزاد الشراب في هياجه، فأمر الخادم نفسه بالعودة ثانية إلى أندريه غافريلوفيتش وإبلاغه بأنّه هو، ترويكوروف، سيخاصمه إلى الأبد إذا لم يعد فورًا للمبيت في بوكروفسكويه. انطلق الخادم مسرعًا، أمّا كيريل بتروفيتش فنهض عن المائدة، وصرف ضيوفه، وذهب لينام.

كان أوّل سؤال طرحه في صباح اليوم التالي:

- هل أندريه غافريلوفيتش هنا؟

فقدّموا له، بدلًا من الجواب، ورقة مطويّة على شكل مثلث، طلب من كاتبه

أن يقرأها جهريًا، فسمع ما يلي:

سيّدي الفاضل،

أنا لا أنوي القدوم إلى بوكروفسكويه، إلّا بعد أن ترسلوا إليّ مدرّب الكلاب باراموشكا معذّرًا، وسيكون لي الخيار في عقابه أو الصفح عنه. فأنا غير مستعدّ لتقبّل مزحات خدمكم، بل غير مستعدّ لقبولها منكم، لأنّي لست مهزّجًا، بل نبيل عريق. ختامًا، سأظلّ خادمكم المطيع.

أندريه دوبروفسكي

إنّ هذه الرسالة، بحسب فهمنا لقواعد الإتيكيت، وقحة للغاية، ولكنّ ما

أغضب كيريل بتروفيتش فيها، ليس أسلوبها الغريب، ولهجتها، بل محتواها.

- «كيف؟»، أرعد ترويكوروف وهو يقفز من سريره حافيًا، «أنا أرسل

إليه خدمني معذّرين، ويكون له الحقّ في معاقبتهم أو الصفح عنهم!

من يظنّ نفسه، أترأه لا يعرف من يواجهه؟ سأريه... سأجعله يندم

كثيرًا، وسيعرف ما عاقبة الهجوم على ترويكوروف!«.

ارتدى كيريل بتروفيتش ملابسه وانطلق في رحلة الصيد بالفخامة المعتادة،

لكنّ الصيد لم يكن ناجحًا. لم يروا طول اليوم سوى أرنب واحد، وحتى هذا

لم يفلحوا في اقتناصه. ولم يكن الغداء في الهواء الطلق تحت الخيمة موفّقًا،

بل إنه، على الأقل، لم يُعجب كيرىلا بتروفيتش الذي ضرب الطَّبَاح، وشمّ الضيوف، وتعمّد في طريق العودة من صيده، اجتياز حقول دوبروفسكي. مرّت أيّام من دون أن تهدأ الخصومة بين الجارين. لم يعد أندريه غافريلوفيتش يزور بوكروفسكويه، وأصاب الضجر كيرىلا بتروفيتش، وانصبت كآبته عبارات مهينة للغاية أطلقها بصوت عالٍ، وانتقلت، بفضل جهود النبلاء المحليين، إلى مسامع دوبروفسكي مزيدة ومنقّحة. ودمّر حدث جديد آخر أمل في الصلح بين المتخاصمين.

كان دوبروفسكي يطوف ذات يوم متفقّداً ضيعته الصغيرة، فسمع، حين اقترب من حرج أشجار البتولا، صوت ضربات فأس، تلتها طقطقة سقوط إحدى الأشجار. أسرع إلى داخل الحرج، فوجد فلّاحين من بوكروفسكويه يسرقون أشجاره في هدوء. تفرّق الفلّاحون هاربين حين رأوه، ولكنّ دوبروفسكي وحوزيّته تمكّنا من القبض على اثنين منهم، واقتاداهما مقيّدين إلى باحة منزله. وغنم المنتصر في هذه المعركة ثلاثة من خيول الأعداء. كان دوبروفسكي غاضباً للغاية، فقبل اليوم لم يجرؤ أبداً أتباع ترويكوروف، المشهورون بعدوانيتهم، على العبث بأملكه، لعلمهم بالصدّاقة التي تربطه بسيّدهم. وقد رأى الآن أنّهم استغلّوا القطيعة التي حدثت، فقرّر، مخالفاً كلّ مفاهيم قانون الحرب، أن يجلد أسيريه بالأغصان اللينة التي اقتطعها من حرجه، ويضمّ إلى ماشيته الخيول التي غنمها وبيعها للعمل.

وصل خبر هذه الحادثة إلى كيرىلا بتروفيتش في اليوم نفسه. أخرجه ذلك عن طوره، فأراد في الدقيقة الأولى من غضبه أن يشنّ، هو وجميع فلّاحيه، هجوماً على كيستينيوفكا (هكذا كانت تُسمى قرية جاره)، فيدمرها عن آخرها، ويسجن مالکها نفسه في دارته. لم يكن مثل هذه البطولات مستغرباً منه، ولكن، سرعان ما اتّخذت أفكاره اتّجاهاً آخر.

راح يذرع الصالة جيئةً وذهاباً بخطوات ثقيلة، ألقي نظرة مصادفة عبر النافذة، فرأى عربة ترويكّا متوقّفة عند البوّابة، ورجلاً ضئيلاً يعتمر قبّعة جلدية

ويرتدي معطفًا سميًا يترجّل منها ويتّجه إلى الملحق بالدار حيث يقيم وكيل أعمال المزرعة. عرف ترويكوروف الرجل، إنّه شابشكين، العضو المحلّف في المحكمة المحليّة، فأمر باستدعائه، وبعد لحظة كان شابشكين يقف أمام كيريل بتروفيتش يحيّيه بانحناءات متتالية، وينتظر أوامره بلهفة وتذلّل.

- «مرحبًا يا هذا، نسيت اسمك»، قال له ترويكوروف، «ما الذي جاء بك؟».

- «كنت ذاهبًا إلى المدينة يا صاحب السموّ»، أجاب شابشكين، «فعرّجت على إيفان ديميyanوف، لأعرف إن كان لدى سموّكم أية توجيهات».

- لقد جئت في وقت مناسب للغاية يا هذا، نسيت اسمك، أنا أحتاج إليك. اشرب كأسًا من الفودكا، وأصغِ إليّ.

أبهج هذا الاستقبال اللطيف العضو المحلّف في المحكمة وأذهله. اعتذر عن تناول الفودكا، وراح يصغي إلى كيريل بتروفيتش بكلّ ما وسعه من الانتباه.

- «عندي هنا جار»، قال ترويكوروف، «ملّاك صغير فظّ، أريد الاستيلاء على أملاكه، فما الذي تقترحه في هذا الشأن؟».

- يا صاحب السموّ، إذا كان لديكم بعض الوثائق أو...

- لا تغلظ يا صاحبي، ليست هناك وثائق. هناك أوامر. القوّة كلّها تكمن في أن يُستولى على الأملاك من دون أي وجه قانوني. لكن، مهلاً، هذه الأملاك كانت لنا في يوم من الأيام، اشتريناها من رجل يُدعى سبيتسين، وبعناها فيما بعد لوالد دوبروفسكي. ألا يمكن الطعن في هذا؟

- ذلك صعب يا صاحب المكانة السامية، أغلب الظنّ أنّ البيع تمّ بطريقة قانونية.

- فكّر يا صاحبي، ابحث جيّدًا.

- ليتكم يا صاحب السموّ، تستطيعون، مثلاً، أن تحصلوا من جاركم بطريقة ما، على السند، أو عقد البيع الذي امتلك بموجبه ضيعته، عندها، تستطيعون طبعًا...

- أفهم ذلك، ولكن المصيبة هي أن أوراقه كلها احترقت حين شَبَّت النار في منزله.
- ماذا تقولون يا صاحب السمو؟ احترقت أوراقه؟! أئمة ما هو أفضل لكم من ذلك؟ اعملوا معروفًا، وتصرفوا في هذه الحالة بحسب القوانين، فما من شك في أنكم ستنالون ما يرضيكم تمام الرضا.
- أظنُّ ذلك؟ حسنًا، ستكون أنت المسؤول. أنا أعتد على جهودك، ولك أن تثق بأنِّي سأكافئك عليها.

انحنى شابشكين محييًا حتى كاد يلامس الأرض ثم انصرف مسرعًا، وشرع منذ ذلك اليوم بالسعي لتحقيق ما انتواه. وبفضل حنكته تسلَّم دوبروفسكي بعد أسبوعين بالضبط، دعوة من المدينة لتقديم التفسيرات اللازمة فورًا، حول ملكيَّته لقرية كيستينوفكا الصغيرة.

أما أندريه غافريلوفيتش الذي أذهله هذا الطلب المفاجئ، فكتب في اليوم نفسه جوابًا جافًّا اللهجة أعلن فيه أن قرية كيستينوفكا الصغيرة آلت إليه بعد وفاة المرحوم والده، وأنه يملكها بموجب قانون الوراثة، وليس لترويكوروف أية علاقة بها، وأنَّ كلَّ ادِّعاء للغرباء بشأن ملكيَّته الخاصَّة هذه لا يعدو أن يكون دسيسةً واحتيالًا.

تركت هذه الرسالة انطباعًا سائرًا في نفس العضو المحلَّف شابشكين، فقد رأى فيها أولًا، أن دوبروفسكي لا يفقه الكثير في مثل هذه الأمور، وثانيًا، أن رجلاً نزقًا ومتهورًا إلى هذه الدرجة، يسهل حشره في أشدَّ المواقف إحراجًا. أمَّا أندريه غافريلوفيتش الذي تمعَّن في طلبات عضو المجلس بأعصاب باردة، فرأى أن من الضروري أن يقدِّم إجابة وافية، لذا كتب عريضة مقنعة، ظهر، فيما بعد، أنها لم تكن كافية.

طال النظر في القضية. ولكنَّ أندريه غافريلوفيتش المؤمن بعدالة موقفه لم يقلق كثيرًا، ولم تكن لديه الرغبة أو القدرة على بعثرة النقود من حوله. ومع أنَّه كان دائمًا أوَّل من يسخر من فساد ضمائر معشر الكتبة، لم يخطر في باله أنَّه

سيكون ضحيةً للدسيسة. كما أنّ ترويكوروف لم ينشغل كثيرًا بالسعي لكسب القضية التي رفعها، كان شابشكين يقوم بذلك نيابة عنه، يعمل باسمه، يهدّد القضاة ويرشوهم، ويتحايل في تفسير شتى القوانين على هواه. وأيًا كانت الحال، فقد تسلّم دوبروفسكي عن طريق شرطة البلدية، دعوة كي يمثل أمام قاضي ناحية-- للاستماع إلى قراره في قضية الأملاك موضوع النزاع بين الملازم دوبروفسكي والجنرال أوّل ترويكوروف، والتوقيع على قبول أو رفضه ذلك القرار. في اليوم نفسه، توجه دوبروفسكي إلى المدينة. لحق به ترويكوروف في الطريق وسبقه. نظر كلّ منهما إلى الآخر بتعالٍ، ولاحظ دوبروفسكي ابتسامة حاقدة على وجه خصمه.

## الفصل الثاني

حين وصل أندريه غافريلوفيتش إلى المدينة، نزل ضيفاً على أحد معارفه من التجّار. بات عنده، وفي صباح اليوم التالي حضر إلى محكمة الناحية. لم يكثرث به أحد. وحضر بعده كيرىلا بتروفيتش، فهبّ الكتبة واقفين وقد وضعوا ريشات الكتابة وراء آذانهم، واستقبله أعضاء المحكمة بخنوع عميق، قدّموا له أريكة احتراماً لرتبته، وسنّه، وامتلاء جسمه، فجلس قرب باب القاعة المفتوح. أمّا أندريه غافريلوفيتش فظلّ واقفاً مستنداً إلى الجدار. ساد سكّون عميق، وراح الكاتب يقرأ بصوته الرفيع قرار المحكمة الذي سنعرّضه كاملاً مفترضين أنّ كلّ امرئ سيُسّر حين يرى إحدى الطرق التي يمكن في روسيا أن نُحرّم بها من أملاكنا التي هي حقّ لنا من دون منازع.

«في 27 تشرين الأوّل (أكتوبر) من عام --18 نظرت محكمة ناحية -- القضية التي موضوعها استيلاء الملازم في سلاح الفرسان أندريه بن غافريلا دوبروفسكي على الأملاك العائدة للجنرال أوّل كيرىلا بن بتر ترويكوروف، الكائنة في مقاطعة -- في بلدة كيستينوفكا وتضمّ (... ) نفساً من الأفنان الذكور، و (... ) دونماً من الحقول والبساتين. وقد جاء في القضية ما يلي: في 9 تمّوز (يوليو) الماضي من عام --18 تقدّم الجنرال أوّل ترويكوروف المذكور أعلاه، إلى هذه المحكمة بشكوى يقول فيها إنّ والده المتوفّى، الزميل المساعد الحائز على وسام، بتر بن يفيم ترويكوروف، اشترى حين كان يعمل أميناً للمجلس البلدي في ناحية -- في 14 آب (أغسطس) من عام --17 من النبيل الموظّف الإداري فادي بن يغور سبيتسين أملاكه الكائنة في ناحية -- في بلدة كيستينوفكا (كانت



تسمى بحسب سجلّات إحصاء -- ضاحية كيستينوفكا)، مع كلّ الأقنان الذكور المدوّنين في الإحصاء الرابع، وكلّ المتاع الفلاحي والأبنية الزراعية والأراضي المزروعة البور، والغابات والمراعي وحقّ صيد الأسماك في النهر المسمّى كيستينوفكا، وكلّ ما يعود إلى تلك الملكية من منتفعات وكذلك بيت المالك الخشبي، أي كلّ ما بقي له بعد أبيه الشرطي النبيل، يغور بن تيرنتيه سبيتسين، وصار ملكه بالوراثة، من دون إنقاص شيء أو نفس واحدة من الأقنان، مقابل 2500 روبل، وتمّ تنظيم عقد البيع في اليوم نفسه في ديوان محكمة --، وفي 26 آب (أغسطس) من العام نفسه سجّلت المحكمة في -- الوالد مالكا، وبُتت تنازل المالك السابق لصالحه. وأخيرًا، في 6 أيلول (سبتمبر) من عام -- 17 مات الأب بمشيئة الله، بينما كان المستدعي الجنرال أوّل ترويكوروف منذ عام -- 17، أي منذ كان فتى تقريبًا، في الخدمة العسكرية، التي أدّى معظمها في الحملات خارج الحدود، لذا لم يكن بمقدوره أن يعرف شيئًا عن موت أبيه والتركة التي ورثها عنه. والآن، بعد أن استقال نهائيًا من تلك الخدمة وتقاعد وعاد إلى أملاك والده الكائنة في مقاطعتي -- و-- وفي نواحي -- و--، وفي بلدات متعدّدة، وتضمّ ما يصل إلى 3000 نفس من الأقنان، وجد أنّ الملازم في سلاح الفرسان أندريه دوبروفسكي المذكور سابقًا قد تملّك من بين تلك الأملاك الموصوفة أعلاه، الضيعة المذكور عدد أقنانها في الإحصاء -- (والبالغ بحسب الإحصاء الحالي ما مجموعه -- نفسًا) بأرضها وكلّ منافعها، من دون أيّ سند قانوني، لذا فهو يُرفق بهذه الدعوى عقد البيع الأصلي الذي أعطاه البائع سبيتسين لأبيه، ويطلب بمصادرة الضيعة المذكورة من مالكها من دون حقّ دوبروفسكي ووضعها، بحسب عائداتها، بتصرّفه، هو ترويكوروف، التام. ونظرًا لحصول دوبروفسكي من دون حقّ على مداخيل تلك الضيعة واستفادته منها، يطلب المستدعي بإقرار المدّعى عليه بمقدار تلك المداخيل، وتغريمه، هو دوبروفسكي، بها بحسب القانون، وإعادتها لصاحبها ترويكوروف.

وبناء على قرار المحكمة المحليّة في -- فُتح التحقيق فقدّم المالك الحالي المذكور للضيعة موضوع النزاع، الملازم في سلاح الفرسان دوبروفسكي، شرحاً لكاتب مجلس النبلاء المحليّ يقول فيه إنّ الضيعة التي يملكها حالياً في بلدة كيستينوفكا المذكورة أعلاه، تضمّ العدد -- من الأفنان وأراضي ومنتفعات، وأنّه امتلكها بالوراثة بعد موت أبيه الصف ضابط في سلاح المدفعية غافريلا بن بفغراف دوبروفسكي، الذي وصلت إليه شراء من والد المستدعي، ترويكوروف الذي كان يعمل أمين سرّ في مجلس المنطقة ثم أصبح زميلاً مساعدًا، وذلك بموجب التصريح المقدم من والد المستدعي والمؤرخ في 30 آب (أغسطس) من عام --17 والمصدّق في محكمة -- المحليّة من المستشار الاعتباري غريغوري بن فاسيلي سوبوليف الذي يتّضح منه أنّ والده اشترى تلك الأملاك، فقد جاء فيه بالضبط، أنّه، هو ترويكوروف، باع لوالده، دوبروفسكي، جميع الأملاك والأراضي التي اشتراها من الموظف الإداري سبيتسين، وهي تضمّ من الأفنان العدد -- وأنّه قبض من والده المبلغ المتفق عليه وقدره 3200 روبل كاملاً بموجب عقد غير قابل للنكول، وطلب من المستشار الاعتباري المذكور، سوبوليف، أن ينظّم سند التملك لوالده أصولاً. وينصّ التصريح على أنّه وإلى حين إتمام تنظيم سند التملك، وبعد دفع كامل المبلغ، توضع الأملاك المشتراة منه بتصرّف المشتري بوصفه المالك الحقيقي، ولا يحقّ للبائع، ترويكوروف، بعد الآن، ولا لأحد أن يتدخل في شؤون تلك الملكية. لكنّه، هو أندريه دوبروفسكي، لا يعرف متى بالضبط، وفي أيّ مكان سلّم المستشار سوبوليف أباه سند التملك، لأنّه كان في ذلك الوقت طفلاً صغيراً، وهو لم يستطع العثور بعد موت أبيه، على ذلك السند الذي يظنّ أنّه احترق مع الأوراق والأشياء الأخرى في أثناء الحريق الذي شبّ في منزلهم في عام --17، وهذا أمر يعرفه سكّان تلك القرية. أمّا الأملاك المشار إليها فيملكها آل دوبروفسكي من دون منازع، منذ أن باعها ترويكوروف، أو منذ أن أصدر سوبوليف سند التملك، أي منذ عام --17، وقد استمرّ ذلك بعد موت الوالد في عام

--17، وما زال حتى اليوم، وهذا ما شهد عليه سكان المنطقة وعددهم 52 شخصًا، أجابوا تحت القسم أن ما يستطيعون تذكره هو أن السادة دوبروفسكي يمارسون ملكيتهم للضيعة موضوع الدعوى منذ سبعين عامًا من دون أي منازع، ولكنهم لا يعرفون بأي حق قانوني أو سند تملكهم هم يفعلون ذلك. أما المشتري السابق للضيعة، المذكور في هذه القضية، أمين سرّ مجلس المنطقة آنذاك، بيتر ترويكوروف، فلا يتذكرون ولا يتذكرون ملكيته للضيعة. وهم يتذكرون أن بيت آل دوبروفسكي احترق قبل نحو ثلاثين عامًا في النار التي شبت في الضيعة ليلاً، وقد قدر أناس محايدون أن دخل الأملاك المتنازع عليها يبلغ بدءًا من تلك الأيام ما لا يقلّ مجمله عن 2000 روبل سنويًا.

وفي نقض ذلك كلّ، تقدّم الجنرال أوّل كيرلا بن بيتر ترويكوروف في الثالث من كانون الثاني (يناير) من هذا العام، إلى هذه المحكمة بدعوى مفادها أن الملازم في سلاح الفرسان أندريه دوبروفسكي، الذي تقدّم عند التحقيق في هذه القضية بتوكيل أعطاه أبوه المتوفى غافريلا دوبروفسكي للمستشار الاعتباري سوبوليف بشأن الأملاك المبيعة له، لم يرفق بهذا التوكيل عقد بيع أصليًا، ولم يقدّم أية أدلة واضحة على إتمام البيع وفق ما نصّ عليه الفصل التاسع عشر من المرسوم الصادر في 29 تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1752، وبالتالي فإنّ التوكيل أصبح لاغيا تمامًا بعد وفاة من أعطاه، وذلك طبقًا لما نصّ عليه المرسوم الصادر في يوم... من شهر أيار (مايو) عام 1818، الذي نصّ أيضًا على إعطاء الملكية لمن يملك سند تملك، أو لمن يثبت بالتحقيق أنه المالك.

وقد ذكر ترويكوروف في الدعوى أن الضيعة المذكورة ملك لأبيه، وقدّم برهانًا على ذلك عقد بيع يستوجب، على أساس القوانين المشار إليها، نزع ملكيتها غير المشروعة من المدعو دوبروفسكي وإعطائها له بحكم الوراثة. ولمّا كان الإقطاعيان دوبروفسكي قد تملّكا من دون أي سند ضيعة لا يملكانها وحصلًا منها من دون حقّ على مداخيل ليست لهما تقدّر بمبلغ (... ) على الأقلّ، يطالب المدّعي بتحصيل تلك المبالغ

من الإقطاعي دوبروفسكي وإعطائها له، هو ترويكوروف. وبعد النظر في القضية وما دُون فيها وفي القوانين، تبَيَّن للمحكمة المحليَّة في -- ما يلي: يتَّضح من هذه القضية أنَّ الجنرال أوَّل كيرلا بن بتر ترويكوروف قدَّم بشأن الضيعة موضوع النزاع التي يملكها حاليًا الملازم في سلاح الفرسان أندريه بن غافريلا دوبروفسكي، وتضمُّ العدد (..) من الأقان الذكور، وأراضٍ، ومنافع أخرى، عقد بيع أصليًا لتلك الضيعة صادرًا في العام --17 من الموظَّف في مجلس النبلاء فادي سبيستين، لوالده المتوفَّى أمين سرِّ مجلس المقاطعة الذي أصبح فيما بعد زميلًا مساعدًا، إضافة إلى ذلك، يتَّضح من الحاشية المدوَّنة على العقد أنَّ هذا المشتري، ترويكوروف، حضر في العام نفسه إلى المحكمة المحليَّة -- حيثُ بُتَّ مالكا لتلك الضيعة بقرار منها، وأنَّ الملازم في سلاح الفرسان أندريه دوبروفسكي قدَّم من جانبه للردِّ على ذلك وكالة أعطاهها المشتري المتوفَّى ترويكوروف للمستشار الاعتباري سوبوليف من أجل إتمام عقد البيع لوالد دوبروفسكي الذي سبق ذكره، وإنَّ مثل هذه الوثائق لا يعتمد لإثبات امتلاك العقارات غير المنقولة، كما أنَّ القانون رقم (...) لا يسمح بامتلاك العقارات امتلاكًا مؤقتًا... أضف إلى ذلك أنَّ التوكيل يُعتبر لاغيا تمامًا بموت مانحه. ودوبروفسكي لم يقدِّم أية وثائق أخرى تبَيِّن متى وأين تمَّ عقد بيع الضيعة موضوع القضية التي ذكرها التوكيل، ولا أية أدلة قاطعة تثبت ذلك، منذ بدء دراسة القضية، أي منذ عام --18، حتى الآن. لذا قرَّرت هذه المحكمة تثبيت الضيعة البالغ عدد أقنانها (..) نفْسًا، والأراضي والمنافع التابعة لها كما هي في وضعها الراهن ملكًا للجنرال أوَّل ترويكوروف بموجب عقد البيع المقدَّم إلى المحكمة، وإبلاغ المحكمة المحليَّة في -- نزع حقِّ التصرُّف بالضيعة من الملازم في سلاح الفرسان دوبروفسكي ووضعها بتصرُّف السيد ترويكوروف الذي انتقلت ملكيَّتها إليه بالوراثة. أما بشأن مطالبة الجنرال أوَّل ترويكوموروف، علاوة على ذلك، بتعويض من الملازم في سلاح الفرسان دوبروفسكي مقابل تملُّكه، من دون وجه حقِّ، للضيعة التي ورثها، واستفادته من مداخيلها،

فإن الضيعة المذكورة، كما بينت شهادة المسنين من أهلها، كانت لأعوام عدة ملكًا بلا منازع لآل دوبروفسكي، وليس في القضية ما يشير إلى أي اعتراض سابق من جهة السيد ترويكوروف على ملكية دوبروفسكي لتلك الضيعة، أضف إلى ذلك أن القانون ينص على أنه: 'إذا زرع شخص ما أرضًا أو أقام مباني في مزرعة ليست ملكًا له، تقدّم صاحبها بشكوى ثبتت صحتها، تُسلم الأرض وما زرع فيها من قموح وخضراوات وما شئد من مبانٍ، إلى صاحب الحق مباشرة'.

استنادًا إلى ما تقدّم تردّد المحكمة مطالبة الجنرال أول ترويكوروف بتعويض من الملازم في سلاح الفرسان دوبروفسكي، لأنّ الضيعة التي يملكها تُعاد إليه من دون اجتزاء أي شيء منها، وعندما تؤول ملكية الضيعة إليه من دون نقصان لا يبقى له ما يطالب به. إلا أنّ المحكمة تمنح، إلى جانب ذلك، الجنرال أول ترويكوروف الحقّ بمثل هذه المطالبة إذا امتلك أدلة قانونية قاطعة، وعليه، في هذه الحالة، أن يرفع بذلك قضية مستقلة. يبلغ هذا القرار للمدعي والمدعى عليه عن طريق الشرطة حسب الأصول القانونية، ويُدعيان إلى هذه المحكمة للاستماع إلى هذا القرار والتوقيع عليه بالقبول أو الرفض.

أُخذ هذا القرار بالإجماع ووقع عليه جميع أعضاء المحكمة الحاضرين.

صمت كاتب المحكمة، ووقف رئيس الجلسة محيّا ترويكوروف بانحناءة كبيرة، طالبًا منه أن يوقع الورقة المقدّمة إليه، فأخذ ترويكوروف المنتصر الريشة منه ووضع توقيعه في ذيل قرار المحكمة معربًا عن قبوله التامّ له. وجاء دور دوبروفسكي، فحمل الكاتب الورقة إليه. لكنّ دوبروفسكي ظلّ صامتًا مطرق الرأس.

كرّر الكاتب دعوته له إلى التوقيع بالقبول التامّ أو الرفض الصريح، إذا كان يشعر في ضميره أنّ قضيتّه محقّة، ويرغب في الاعتراض على القرار أمام الجهة صاحبة الشأن ضمن المهلة القانونية المحدّدة. ظلّ دوبروفسكي صامتًا... ثم

رفع رأسه فجأة، كانت عيناه تلتمعان، ضرب الأرض بقدمه، دفع الكاتب دفعة قوية أسقطته أرضاً، أمسك بالمحبرة وقذف بها رئيس المحكمة. ارتعب الجميع. - «ويحكم! تدنسون بيت الله! اغربوا عن هذا المكان يا معشر السفلة!»، ثم التفت مخاطباً كيريل بتروفيتش: «أسمعت بمثل هذا، يا صاحب السمو!»، وتابع قائلاً، «مدرّبو الكلاب يقودونها إلى كنيسة الرب! الكلاب تترافض في الكنيسة. انتظروا، سألقنكم درساً»...

هرع الحراس حين سمعوا الضجّة، سيطروا عليه بصعوبة، ثم أخرجوه وأجلسوه في زخافته. وخرج ترويكوروف من بعده محاطاً بهيئة المحكمة كلها. لقد أثر فيه جنون دوبروفسكي المفاجئ تأثيراً شديداً، سمّ إحساسه بالظفر. أمّا القضاة، الذين أملوا بالحصول على مكافأة، فلم يفوزوا منه حتى بكلمة إطراء واحدة، فقد غادر في اليوم نفسه عائداً إلى بوكروفسكويه، بينما كان دوبروفسكي طريح الفراش، يعالجه الطبيب المحلي الذي، لحسن الحظ، لم يكن جاهلاً تماماً حجم المريض، وعلّق له دود العلق والذباب الهندي، فصارت حاله أفضل بحلول المساء، واستعاد وعيه، وفي اليوم التالي نقلوه إلى كيستينوفكا التي يوشك أن يفقدها.

## الفصل الثالث

مضى بعض الوقت وصحّة المسكين دوبروفسكي ما زالت سيّئة. صحيح أن نوبات الجنون لم تتكرّر، ولكنّ قواه ضعفت ضعفاً ملحوظاً. صار ينسى أعماله التي كان يمارسها، ولا يخرج من غرفته إلا نادراً، ويقضي أياماً بكاملها غارقاً في تأملاته. يغوروفنا، العجوز الطيّبة التي كانت ترعى ابنه في الماضي، أصبحت الآن مرّيته. راحت تُعنى بشؤونه كأنّه طفل صغير، تُذكره بموعد الطعام، وموعد النوم، تُطعمه، وتُجهّزه للنوم. وكان أندريه غافريلوفيتش يُطيعها في هدوء، ولا يتعامل إلاّ معها. لم يكن قادراً على التفكير في أموره، أو في شؤون المزرعة، لذا رأت يغوروفنا أنّ من الضروري أن تُخبر بذلك دوبروفسكي الشاب الذي يخدم في أحد أفواج مشاة الحرس المرابطة آنذاك في بيتربورغ. هكذا انتزعت ورقة من دفتر الحسابات، وأملت على الطّبّاخ خاريتون، المتعلّم الوحيد في كيستينوفكا، رسالة أرسلتها في اليوم نفسه إلى مركز البريد في المدينة.

والآن، حان الوقت كي نعرّف القارئ ببطل قصّتنا الحقيقي.

تربّى فلاديمير دوبروفسكي في المدرسة العسكرية وتخرّج منها ضابطاً في الحرس. لم يخل الأب بشيء في سبيل تأمين حياة لائحة لابنه، وهكذا حصل الفتى من بيت أبيه على أكثر ممّا بإمكانه أن يتوقّع، فنشأ متلاقاً، مغروراً، يسمح لنفسه بنزوات مكلفة، ويلعب القمار، فغرق في الديون غير آبه بالمستقبل، آملاً أن يحظى، عاجلاً أو آجلاً، بعروس ثريّة كسائر الشباب الفقراء.

وذات مساء، حين كان بعض الضباط يضجعون على الأرائك في منزله، يدخّنون غلايينهم الكهربائية، سلّمه وصيْفُه غريشا رسالة، أذهله اسم مُرسلها وخاتمها، ففضّها على عجل وقرأ فيها ما يلي:

يا سيّدنا فلاديمير أندريفيتش،

أنا مربّيُكَ العجوز، رأيت أن أخبرك بحال أليك الطيّب. حاله سيّئة جدًّا، إنّه يهذي أحيانًا، ويظلُّ اليوم بكامله جالسًا كطفل بليد. إنّ الأعمار بيد الله. تعال إلينا يا صقري الوضّاح، سنرسل الخيول لاستقبالك في محطة بيسوتشنيه. يقولون إنّ المحكمة المحليّة قادمة إلينا، لوضعنا بتصرّف كيريل بتروفيتش ترويكوروف، لأنّنا، في زعمهم، ملك له، ولكنّا ملككم منذ الأزل، ولم نسمع أبدًا بذلك المالك. قد تستطيع، وأنت تعيش في بتربورغ، أن تبلغ أبانا القيصر بأمرنا، فهو لن يتركنا للظلم.

عبدتك المخلصة أبدًا، المريّة

أورينا يغوروفنا بوزيريفا

أبعث بتبريكاتي كأُمّ إلى غريشا. أتراه يخدمك جيّدًا؟ للأسبوع الثاني يستمرّ عندنا هطول الأمطار، والراعي روديا مات عشية يوم القديس نيكولا.

قرأ فلاديمير دوبروفسكي مرّات متتالية هذه السطور المشوّشة للغاية، بقلق غير عادي. لقد فقد أمّه منذ نعومة أظفاره، وأرسلوه في الثامنة من عمره إلى بتربورغ وهو لا يكاد يعرف أباه. لكنّه، ومع ذلك، كان متعلّقًا به تعلّقًا رومانسيًا، وهذا ما زاد توقه للحياة الأسرية التي لم يستمتع بأفراحها المتواضعة.

حرّزت في قلبه فكرة فقدانه لأبيه، وأفزعته وضع المريض المسكين الذي استشفّه من رسالة المريّة. تخيّل أباه مُهملاً في القرية النائية بين يدي العجوز البلهاء والخدم، يتهدّد خطر كارثة مجهولة، وهو عاجز يدوي في آلامه الجسدية والروحية، ولام فلاديمير نفسه على استهتاره الآثِم، فهو، على الرغم من أنّ زمنًا طويلاً قد مضى من دون أن يتلقّى رسائل من أبيه، لم يفكّر في السؤال عنه، مفترضًا أنّه منشغل في أسفاره أو في إدارة شؤون الضيعة.



قَرَّرَ أن يسافر إليه، بل أن يستقيل إذا كانت حالة أبيه المَرَضِيَّة تتطلب بقاءه إلى جانبه. زملاؤه غادروه حين لاحظوا قلقه، ولمَّا بقي وحيدًا كتب طلب إجازة، ثم أشعل غليونًا وغاص في تفكير عميق.

بدأ في اليوم نفسه سعيه في طلب الإجازة، وبعد ثلاثة أيَّام كان في طريق السفر. اقترب فلاديمير أندرييفيتش من المحطَّة التي كان عليه أن ينطلق منها إلى كيستينوفكا. كان قلبه يغصُّ بهواجس حزينة، فقد خاف ألا يدرك أباه حيًّا، وتخيل نمط الحياة الكئيب الذي ينتظره في القرية: المكان النائي، وانعدام الحياة الاجتماعية، والفقر، ومعالجة أمور لا يفقه فيها شيئًا. وصل إلى المحطَّة، ودخل على ناظرها طالبًا منه جِإدًا، فسأله الناظر عن الوجهة التي يقصدها، ثم أبلغه أنَّ الجِإد قد أرسلت إليه من كيستينوفكا، وأنَّها في انتظاره منذ أربعة أيَّام. وسرعان ما حضر بين يدي فلاديمير أندرييفيتش الحوذيُّ العجوز أنطون الذي كان في الماضي يرافقه إلى الاصطبل ويعتني بحصانه الصغير. دمعت عينا أنطون حين رآه، وانحنى حتى لامس الأرض تحيةً له، وأبلغه أنَّ سيِّده العجوز ما يزال حيًّا، ثم هرع يسرج الخيول. اعتذر فلاديمير أندرييفيتش عن عدم دعوته للإفطار وأسرع في الرحيل. انطلق به أنطون في الطريق بين القرى، ودار بينهما الحديث التالي:

- قل لي يا أنطون، من فضلك، ما المشكلة بين أبي وآل ترويكوروف؟
- الله العليم يا أبتِ فلاديمير أندرييفيتش... سمعنا أنَّ السيِّد اختلف مع كيريل بتروفيتش، فلجأ هذا إلى المحكمة، مع أنَّه كان هو من يحكم وينفذ في معظم الأحيان. ليس لنا، نحن الأقنان أن نناقش أمور السادة، ولكن، أقسم بالربِّ أنَّ أباك أخطأ بمعاداته لكيريل بتروفيتش، فأنت لا تستطيع أن تحطَّم الصخرة بالسوط.
- أفهم من ذلك أن كيريل بتروفيتش هذا يفعل عندكم ما يشاء؟
- وأكثر من ذلك يا سيِّدي، فالقاضي في نظره لا يساوي قرشًا، ورئيس الشرطة مجرَّد صبيٍّ في خدمته، والسادة يجيئون إليه لإظهار الولاء، يقول المثل: إذا وُجد المعلنف حضرت الخنازير.

- هل صحيح أنه سيتزع الضيعة منّا؟
  - أه، يا سيدي، لقد سمعنا نحن أيضًا بذلك. قبل أيّام قال راعي كنيسة بوكروفسكويه في حفل عماد عند عمدتنا: 'لقد انتهى زمان لهوكم، فكريبًا ستقعون في قبضة كيريلًا بتروفيتش'، فردّ عليه ميكيتا الحدّاد قائلاً: 'كفاك يا سافيليتش، لا تكدرّ قريبك، ولا تعكرّ مزاج الضيوف'. كيريلًا بتروفيتش شيء، وأندريه غافريلوفيتش شيء آخر، ونحن جميعًا عبيد الربّ والقيصر. أنت لن تستطيع أن تقفل فم أحد بزّر، على كلّ حال.
  - وإذن، أنتم لا ترغبون في أن تصبحوا ملكًا لترويكوروف؟
  - ملكًا لكيريلًا بتروفيتش! أنقذنا يا ربّ، وجنبنا ذلك: إنّه، في معظم الأحيان، يظلم فلاّحيه، وهو إذا ما حصل على أقنان جدد لن يكتفي بسلخ جلودهم، بل سيمزّق لحمهم أيضًا. كلًّا، أطال الله عمر أندريه غافريلوفيتش، أمّا إذا اختاره الربّ إلى جواره، فلا نريد أحدًا سواك راعيًا لنا، لا تسلّمنا له، ونحن سنقف إلى جانبك...
- قال أنطون هذه الكلمات، ثم لوّح بالسوط، وهزّ عنان الخيل فانطلقت تعدو بخطى واسعة.
- ظلّ دوبروفسكي، الذي أثر فيه إخلاص الحوذنيّ العجوز، صامتًا، واستسلم لأفكاره من جديد. انقضى أكثر من ساعة قبل أن تُوقظ غريشا صيحة مفاجئة: «هي ذي بوكروفسكويه!»، رفع دوبروفسكي رأسه. كانت العربّة تسير على شاطئ بحيرة كبيرة، يتفرّع منها نهر صغير يسيل متعرّجًا بين التلال البعيدة التي ارتفع فوق إحداها وسط حرج أخضر كثيف سطحّ حجري ضخّم، وارتفعت فوق أخرى كنيسة ذات خمس قباب وبرج أجراس قديم، تناثرت حولها أكواخ الفلّاحين بحواكيرها وآبارها. عرف دوبروفسكي هذه الأماكن، وتذكّر أنّه كان يلعب فوق تلك التلّة مع ماشا ترويكوروفا. الطفلة التي تصغره بعامين، الطفلة التي كانت ملامحها تبشّر بحسناء في المستقبل. أراد أن يسأل عنها أنطون، غير أنّ الخجل منعه من ذلك.

حين اقترب من بيت الإقطاعي، رأى ثوبًا أبيض، لاح له بين أشجار الحديقة. وفي اللحظة نفسها ساط أنطون الخيل مستسلمًا للغرور الذي يتَّصف به حوذيو الأرياف وسائقو العربات في المدن على حدٍّ سواء، فاندفعت العربَة بأقصى سرعة عبر الجسر متجاوزة القرية. صعدت العربَة، بعد تجاوزهما القرية، أحد المرتفعات، فرأى فلاديمير حرج أشجار البتولا في فسحة وإلى يساره، رأى بيتًا رماديًا صغيرًا ذا سقف من القرميد الأحمر، خفق قلبه بشدَّة. لقد رأى أمامه كيستينوفكا وبيت أبيه المتواضع.

بعد عشر دقائق دخل فلاديمير فناء بيت مالك الضيعة، وجال ببصره متأملًا ما حوله بانفعال لا يُوصف. إنَّه لم يرَ موطنه منذ اثني عشر عامًا. أشجار البتولا التي عرفها يوم كان هنا غرساتٍ صغيرةٍ زُرعت قرب السور، أصبحت الآن أشجارًا عالية كثيرة الأغصان. والفناء الذي كانت تزينه ذات يوم ثلاثة أحواض من الزهور متقنة البناء يمرُّ بينها درب عريض مننَّظف بعناية، تحوَّل إلى مرج نَمَت فيه الأعشاب مهملة ترعاها فرس مقيدة. شرعت الكلاب تعوي، ولكنها صمتت حين عرفت أنطون وراحت تهزُّ ذيولها الشعثاء. تقاطر الخدم من أكواخهم وأحاطوا بالسيد الشاب معبرين بصخب عن فرحهم. شقَّ الشابُّ طريقه بصعوبة وسط الحشد المهتاج، وهرول صاعدًا الدرجات المتهالكة نحو المدخل حيث كانت يغور وفنا تنتظره. عانقته باكية، أمَّا هو فراح يكرَّر:

- «مرحبًا، مرحبًا، يا نانا»، ضامًّا العجوز الطيبة إلى صدره، «ما بال أبي؟ أين هو؟ كيف حاله؟».

في هذه اللحظة، دخل إلى الصالة عجوز طويل القامة يحرك ساقيه بصعوبة. كان شاحبًا، نحيلًا يرتدي ثوبًا منزليًا وقبعة.

- «مرحبًا بك يا فالودكا!»، قال بصوت ضعيف، فعانق فلاديمير أباه بحرارة.

هزَّت الفرحة المريض هزةً شديدة جدًّا، فخارت قواه، خذلته ساقاه وكاد يقع لولا أن تداركه ابنه بالمساعدة.

- «لماذا نهضت من السرير؟»، قالت له يغوروفنا، «ساقاك لا تقويان

على حملك، ومع ذلك تندفع إلى حيث يندفع الناس».

حُمِلَ العجوز إلى غرفة نومه. بذل جهده محاولاً الحديث مع ابنه، لكنَّ

الأفكار اختلطت في رأسه، وفقدت الكلمات كلَّ ترابط فيما بينهما، فصمت

وراح في غيبوبة. صُعِقَ فلاديمير لحال أبيه، جلس في غرفة نومه، وطلب من

الخدم أن يتركوه معه على انفراد. أذعن الخدم لطلبه، والتفتوا حينذاك إلى

غريشا. اقتادوه إلى غرفة الخدم، وهناك رَحَّبوا به على طريقتهم القروية، مظهرين

كلَّ أشكال الفرح الممكنة، وأرهقوه بكثرة الأسئلة وعبارات الترحيب.

## الفصل الرابع

على المائدة، حيث كان الطعام، كان التابوت.

قصيدة «في رثاء الأمير ميشيرسكي»

درجاين

أراد دوبروفسكي الشاب، بعد أيام من وصوله، مباشرة العمل. لكن الأب لم يكن في حالة تسمح له بإعطائه الإرشادات اللازمة، ولم يكن لدى أندريه غافريلوفيتش وكيل أعمال. فُتّش في أوراقه، فلم يجد غير رسالة القاضي الأولى، ومسوّدة ردّ أبيه عليها، ولم يستطع أن يحصل من خلالهما على فهم واضح للنزاع، لذا قرّر أن ينتظر العواقب، معتمداً على عدالة القضية ذاتها.

في هذه الأثناء، كانت صحّة أندريه غافريلوفيتش تزداد سوءاً ساعة بعد ساعة، فشعر فلاديمير بقرب نهاية الرجل العجوز الذي ارتدّ إلى طفولته، فلم يبارحه.

انتهت المهلة المحددة للاعتراض من دون أن يتقدّم به أحد، فصارت كيستينوفكا مُلكاً لترويكوروف. وجاءه شابشكين تسبقه تحيّاته وتهانيه، طالباً منه تحديد الموعد المناسب للقيام بإجراءات تسليم الضيعة الجديدة لسموّه، هو نفسه، أو لمن يرغب في منحه توكيلاً بذلك. ارتبك كيريل بتروفيتش. هو بطبعه لم يكن جشعاً، ولكنّ الرغبة في الانتقام ساقته بعيداً جداً. شعر بتأنيب الضمير. كان يعرف الحالة التي وصل إليها خصمه، زميل صباه القديم، غير أنّ الانتصار لم يبهج قلبه. ألقي على شابشكين نظرة مخيفة، باحثاً عن سبب لمشاجرته، لشمته بأقذع الشتائم، لكنّه لم يجد سبباً كافياً لذلك، فقال له غاضباً:

- انقلع من هنا، لا وقت لديّ أضيّعه معك.

حين رآه شابشكين بهذا المزاج السيء، انحنى محيئًا وغادر مسرعًا. أمّا كيرىلا بتروفيتش، الذي بقي وحيدًا، فراح يذرع المكان جيئةً وذهابًا وهو يدندن: «زمجر يا رعد الانتصار»، وهذا كان دائمًا يعني أنّه يشكو من اضطراب غير عادي في أفكاره.

أمر أخيرًا أن تُسرج له عربة خفيفة، ارتدى ملابس سميكة - كان الوقت أواخر أيلول (سبتمبر) - وقاد العربة بنفسه مغادرًا الفناء.

بعد قليل رأى بيت أندريه غافريلوفيتش الصغير، فامتلأت روحه بمشاعر متناقضة. الانتقام وشهوة السلطة اللذان تحقّقا، حجبا إلى حدٍّ ما المشاعر الأكثر نبلاً، ولكنّ هذه الأخيرة انتصرت في نهاية المطاف، فقرّر أن يُصالح جاره القديم، ويقضي على آثار الخلاف، ويُعيد له أملاكه. اطمأنت روح كيرىلا بتروفيتش لهذه النية الطيبة، فانطلق بالخييل خبيئًا إلى بيت جاره، ودخل الفناء مباشرة.

المريض الذي كان في هذه الأثناء جالسًا قرب النافذة، عرف كيرىلا بتروفيتش فارتسمت على وجهه علامات اضطراب فظيع: حلّت الحمرة القانية محلّ الشحوب العادي في وجنتيه، والتمعت عيناه، وراح يتلفّظ بأصوات مبهمّة. رفع ابنه، الجالس بقربه يراجع سجلّات المزرعة، رأسه فأذهلته حالة أبيه. كان المريض يشير بإصبعه إلى الفناء في خوف وغضب وقد جمع بسرعة أذبال رداثه وهو يهمُّ بالوقوف. شرع ينهض... ثم سقط فجأة. اندفع الابن نحوه، غير أنّ العجوز كان يرقد مشلولاً من دون أنفاس أو حراك.

- «أسرعوا إلى المدينة، أحضروا الطبيب!»، صرخ فلاديمير.

- «كيرىلا بتروفيتش يسأل عنك»، قال خادم دخل لتوّه، فرماه فلاديمير بنظرة مريّة.

- قل لكيرىلا بتروفيتش أن ينقلع من هنا بسرعة قبل أن أمر بطرده من الفناء... هيّا، اغرب عن وجهي!

غادر الخادم مسرعًا كي ينفذ أمر سيّده، وقد أبهجه ذلك الأمر. أما يغوروفنا

فصفت كفاً بكفٍّ، وقالت بصوت رفيع:

- يا ولدي أنت بذلك تحطّم رأسك! كيرىلا بتروفيتش سيلتهمنا.

- «اصمتي يا نانا»، قال فلاديمير بغضب، «أرسلني الآن أنطون إلى المدينة لإحضار الطبيب».

خرجت يغوروفنا.

كان المدخل خاليًا، فالجميع هرعوا إلى الفناء ليروا كيرىلا بتروفيتش. خرجت إلى الشرفة، فسمعت جواب الخادم الذي نقله عن لسان السيّد. استمع إليه كيرىلا بتروفيتش وهو جالس في عربته. صار وجهه أشدّ ظلمة من الليل، ابتسم ابتسامة احتقار، وألقى نظرة رهيبة على الخدم، ثم انطلق بعربته متمهلاً بالقرب من السور. نظر عبر النافذة إلى حيث كان يجلس، قبل دقيقة، أندريه غافريلوفيتش الذي لم يعد موجودًا هناك. كانت المربيّة تقف في الشرفة، وقد نسيت ما أمرها به السيّد، وكان الخدم يناقشون بصخب ما حدث. وفجأة ظهر فلاديمير بين الناس، وقال بصوت متهدّج:

- لا داعي للطبيب، لقد مات أبي.

ساد الاضطراب. واندفع الناس إلى غرفة السيّد العجوز. كان راقداً في الأريكة التي حمله إليها فلاديمير، يده اليمنى مدلاة تلامس الأرض، ورأسه يتدلّى فوق صدره، وقد خلا ذلك الجسد الذي لم يبرد بعد، من كلّ علامات الحياة، وأكسبه الموت شكلاً مختلفاً. كانت يغوروفنا تنوح، أمّا الخدم الذين تُركت الجثة في عهدهم، فأحاطوا بها وغسلوها، وألبسوها البزة الرسمية المخيطة منذ عام 1797، ثم مدّدوها على الطاولة نفسها التي ظلّوا سنين طويلة يقدّمون عليها الطعام لسيّدهم.

## الفصل الخامس

تمّ الدفن في اليوم الثالث. كان جسد العجوز المسكين مسجّى على الطاولة، مغطّى بالكفن، محاطاً بالشموع، وغرفة الطعام مكتظة بالخدم المتهيّين لحمله. حمل فلاديمير وثلاثة من الخدم التابوت. مشى الكاهن أمامه، ورافقه سادن يرثل أدعية جنازية. اجتاز مالك كيستنيوفكا عتبة منزله للمرّة الأخيرة. ساروا بالتابوت عبر حُرَج البتولا، الذي تقع الكنيسة وراءه. وكان النهار صافياً بارداً والأوراق الخريفية تساقط عن الشجر.

عند خروجهم من الحُرَج، برزت أمامهم كنيسة كيستنيوفكا الخشبية والمقبرة وأشجار الزيزفون العتيقة. هناك رقد جسد والدّة فلاديمير، وثمّة حفرة حفرت حديثاً غير بعيد عن قبرها.

غصّت الكنيسة بفلاحِي كيستنيوفكا الذين جاؤوا لإلقاء تحيّة الوداع على سيّدهم. كان دوبروفسكي الشاب واقفاً بالقرب من جوقة الإنشاد. لم يكن يبكي، أو يصلّي، لكنّ وجهه كان مخيفاً. انتهى الطقس الحزين. تقدّم فلاديمير الجميع، ودّع الجثمان، وودّعه من بعده جميع الخدم. ثم جاؤوا بغطاء للتابوت فبثّوه بالمسامير. كانت النسوة يندبن بصوت عالٍ، أمّا الرجال فكانوا يمسحون دموعهم بقبضاتهم بين الفينة والأخرى. حمل فلاديمير والخدم الثلاثة التابوت إلى المقبرة، يرافقهم أهل القرية كلّهم. أنزلوا التابوت في القبر، وألقى كلّ واحد من الحاضرين حفنة تراب فوقه، ثم ردموا الحفرة، وانحنوا مودّعين، وانصرفوا. غادر فلاديمير المكان مسرعاً، وسبق الجميع في الاختفاء بين أشجار حرج كيستنيوفكا.



دعت يغوروفنا باسمه، الكاهن وجميع العاملين في الكنيسة إلى وليمة جنازية، معلنة أنَّ السيّد الشاب لا ينوي حضورها. وهكذا توجه الأب أنطون وزوجته فيدوتوفنا والسادن إلى فناء بيت السيّد سيرًا على الأقدام، وهم يتحدثون مع يغوروفنا عن فضائل المرحوم، ويناقشون المصاعب التي يرون أنَّها ستواجه ورثته، فخير زيارة تريويكوروف والاستقبال الذي حظي به، كان قد انتشر في الناحية كلّها، وراح السياسيون المحليون يتنبّؤون بعواقب هامة لكلّ ذلك.

- «ليكن ما يكون»، قالت زوجة الكاهن، «ولكن، من المؤسف ألا يصبح فلاديمير أندرييفيتش سيّد ضيعتنا. إنّه شاب رائع، لا جدال في ذلك».
- «ومن سيصبح سيّدنا، إذا لم يكن هو»، قاطعتها يغوروفنا، «عبدًا يتحدّى كيريلًا بتروفيتش، فهو لا يواجه جبانًا. إنّ صقري الفتى يستطيع الدفاع عن نفسه بنفسه، وبإذن الله، لن يتخلّى عنه الناس الأفاضل. كيريلًا بتروفيتش متغطرس للغاية، ولكنّه طوى ذيله حين صاح غريشا حبيبي في وجهه: 'انقلع من هنا أيّها الكلب العجوز! ارحل عن بيتي!'».
- «آه يا يغوروفنا»، قال السادن، «أتعجّب من غريغوري، كيف طاوعه لسانه، أظنّ أنّ شتم أسقف أسهل عليّ من تصويب نظرة غضب إلى كيريلًا بتروفيتش. فمجرّد رؤيته تثير خوفًا واضطرابًا يرغمانك على الانحناء، ويتقوّس ظهرك من تلقاء نفسه، ينثني تلقائيًا...».
- «باطل الأباطيل»، قال الكاهن، «إنّ كيريلًا بتروفيتش نفسه سيشتيع أيضًا إلى الأبدية، تمامًا مثل أندريه غافريلوفيتش، الفارق فقط هو أنّ الجنازة ستكون أكثر فخامة، وسيُدعى عدد أكبر من الضيوف، ولكن، أليس ذلك كلّه سيّان عند الربّ!».
- آه يا أبتاه! نحن أيضًا أردنا أن ندعو الناحية كلّها، غير أنّ فلاديمير أندرييفيتش رفض ذلك: الخير كثير عندنا، وهناك ما نقدّمه للضيوف، ولكن ما باليد حيلة. وما دام أناس غير مدعوّين، دعوني، على الأقل، أحتمي بكم يا ضيوفنا الأعزاء.

حَثَّ هذا الإغراء الرقيق والإيحاء بوجود طعام لذيذ، المتحدثين على الإسراع في المشي، فوصلوا بسلام إلى منزل السيّد حيث كانت المائدة ممدودة والفودكا حاضرة.

في هذه الأثناء، كان فلاديمير يتوغّل في عمق الغابة محاولاً أن يُخمد بالحركة والإجهاد حزن روحه. كان يسير على غير هدى، يصطدم في سيره بأغصان الأشجار اليابسة، فتسبّب له الخدوش، وتغوص قدماه في وحل المستنقع، لكنّه لم يكن يلحظ شيئاً. وأخيراً، وصل إلى مرج صغير تحيط به أشجار الغابة من الجهات كلّها، فيه غدير ينساب ماؤه متعرجاً صامتاً بين الأشجار التي جعلها الخريف نصف عارية. توقّف فلاديمير. جلس على كومة جافّة باردة من جذور النبات. وراحت الأفكار تتتالى وتزاحم في روحه وكلُّ منها أشدُّ قتامة من سابقتها... شعر شعوراً حاداً بوحده. وبدا له المستقبل ملبّداً بسُحب سوداء مخيفة. العداوة بينه وبين ترويكوروف تنذر بهنكبات جديدة. ثروته الضئيلة قد تنتقل منه إلى أيدي غريبة، وفي هذه الحالة لن يجد في انتظاره غير الفقر. ظلّ فترة طويلة يجلس ساكناً في مكانه، يتأمّل الانسياب الهادئ للغدير الذي كان يجرف معه بعض أوراق الشجر الشاحبة، فيرى في ذلك صورة حيّة صادقة للحياة، صورة مألوفة جداً. وحين لاحظ، أخيراً، أنّ الظلام بدأ يهبط، نهض ومضى يبحث عن الطريق إلى بيته، لكنّه تاه طويلاً في الغابة التي يجهلها، قبل أن يعثر على درب قاده مباشرة إلى باب البيت.

التقى دوبروفسكي في طريقه الكاهن وجماعته، فخطر له أن ذلك نذير شؤم. فانتحى جانب الطريق لا إرادياً، واختبأ وراء إحدى الأشجار. لم تلحظه الجماعة التي كانت تتحدث بحرارة وهي تمرّ بجانبه.

- «ابتعدي عن الشرّ، وافعلي الخير»، قال القسّ لزوجته، «لا داعي لبقائنا هنا، فالهَمُّ ليس همّك أيّاً كانت نهاية الأمر».

أجابته زوجته بكلام ولكن فلاديمير لم يتمكّن من سماعه.

حين وصل فلاديمير، رأى جمعا غفيراً من الفلاحين والخدم يحتشد في فناء الدار. وسمع، وهو ما يزال بعيداً، ضجّة وصخباً غير عاديين. كان ثمة

- عربتا ترويكاً تقفان إلى جوار الحظيرة، وعلى الشرفة وقف عدد من رجال غرباء يرتدون الزي الرسمي، وقد بدا أنهم يتحادثون في أمر ما.
- «ما معنى هذا؟»، سأل بغضب أنطون الذي هرع لملاقاته، «من هؤلاء، وماذا يريدون؟».
- «آه يا أبت فلاديمير أندرييفيتش!»، أجاب أنطون وهو يلتقط أنفاسه، «لقد حضرت هيئة المحكمة. إنهم يسلموننا إلى ترويكوروف، وينتزعوننا من رعايتك الرحيمة».
- أطرق فلاديمير برأسه، وتحلّق الناس حول سيدهم المنكوب.
- «يا أبانا!»، صرخوا وهم يقبلون يديه، «لا نريد سيّداً سواك، إن أمرتنا أن نطرد المحكمة، سنفعل. نموت ولا نستسلم».
- نظر إليهم فلاديمير فتملّكته مشاعر غريبة.
- «اهدؤوا»، قال لهم، «أنا سأكلّم هؤلاء الموظفين».
- «كلّمهم يا أبانا»، صاح به المجتمععون، «وبّخ هؤلاء الملاعين».
- اقترب فلاديمير من الموظفين. كان شابشكين معتمراً قبعته، وقد وقف واضعاً يديه على خاصرته، وراح ينظر بتعالٍ إلى ما حوله. أمّا رئيس الشرطة، وهو رجل طويل القامة، بدين، في الخمسين من العمر، ذو شارب، أحمر الوجه، فصرخ حين رأى دوبروفسكي قادمًا، وقال بصوت أجشّ:
- وهكذا، أعود فأكرّر ما قلته لكم سابقًا: أنتم من الآن فصاعدًا ملك كيربلا بتروفيتش ترويكوروف بموجب قرار المحكمة المحليّة، ويمثّله هنا السيّد شابشكين. أطيعوه في كلّ ما يأمر به، أما أنتنّ يا نسوان فأحبيبنه واحترمته، فهو مولع للغاية بكنّ.
- قهقه رئيس الشرطة ضاحكًا لمزحته الوقحة هذه، وفعل شابشكين وسائر الأعضاء الشيء نفسه. استشاط فلاديمير غضبًا.
- «اسمحوا لي أن أعرف ما معنى هذا»، توجه بسؤاله إلى رئيس الشرطة وهو يتظاهر ببرودة الأعصاب.

- «إِنَّ هَذَا يَعْنِي»، أجب موظف متفدلك، «أنا جئنا لنسلم هذه الضيعة إلى كيرىلا بتروفيتش ترويكوروف، ونطلب من سائر الغرباء مغادرتها بسلام وعن طيب خاطر».
- ولكن، أظن أنه كان بمقدوركم أن تتوجهوا إليّ قبل أن تتوجهوا إلى فلاحي، كي تعلموا المالك بنزع سلطته...
- «ومن أنت؟»، قال شابشكين وهو يرميه بنظرة وقحة، «الإقطاعي السابق أندريه بن غافريلا دوبروفسكي توفاه الله، أما أنت فلا نعرفك ولا نريد أن نعرفك».
- «إنه فلاديمير أندرييفيتش، سيدنا الشاب»، قال صوت من الحشد.
- «من الذي تجرأ وفتح فمه»، قال الرئيس متوعدًا، «أيّ سيد، وأيّ فلاديمير أندرييفيتش؟ سيدكم هو كيرىلا بتروفيتش ترويكوروف، ألا تسمعون يا حمقى؟!».
- «هذا مستحيل»، أجب الصوت نفسه.
- «هذا عصيان!»، صرخ الضابط، «هيه، يا عمدة، تعال إليّ!».
- خطا العمدة إلى الأمام.
- جذ لي فورًا من تجرأ على معارضتي، سأريه!
- التفت العمدة إلى الحشد، وسأل:
- من تكلم؟
- ظلّ الجميع صامتين، وسرعان ما سرت في الصفوف الخلفية مهمة، أخذت تعلو، وتحولت في دقيقة إلى صراخ مخيف. خفض الرئيس صوته محاولاً تهدئتهم.
- «لا تلتفتوا إليه!»، صاح الخدم، «هيا يا فتيان! اهجموا عليهم!».
- تحرك الحشد كله. فاندفع شابشكين وبقية الأعضاء إلى الداخل مسرعين، وأغلقوا باب البيت.
- «هيا نقيدهم يا شباب!»، صاح الصوت نفسه.

راح الحشد يضغط محاولاً فتح الباب...

- «توقّفوا!»، صرخ دوبروفسكي، «ما هذا أيّها الحمقى؟ إنكم تُهلكون أنفسكم وتُهلكونني. اذهبوا إلى بيوتكم ودعوني وشأني. لا تخافوا، القيصر رحيم، سأستنجد به. إنّه لن يخذلنا. نحن كلنا أبناءه. ولكن كيف سيقبل أن يحميكم وأنتم تتمردون وتمارسون الأعمال الإجرامية!».

ترك كلام دوبروفسكي الشاب، وصوته الرنّان، ومظهره المهيب، الأثر المطلوب. هدأ الناس، وتفرّقوا، وبات الفناء خاليًا. ظلّ الموظفون جالسين في المدخل. وأخيرًا فتح شابشكين الباب بهدوء، وخرج إلى الشرفة وهو يحيي دوبروفسكي بانحناءات ذليلة ويشكره على حمايته الرحيمة لهم. استمع إليه فلاديمير باحتقار ولم يقل شيئًا.

- «لقد قرّرنا»، تابع رئيس الشرطة، «أن نستأذنكم بالمبيت هنا هذه الليلة، فالظلمة حالكة، وفلاحوكم يمكن أن يهاجمونا ونحن في الطريق. نرجو أن تتكرّم فتأمر أن يفرشوا لنا ولو بعض القشّ في البهو... سنغادر عند طلوع الفجر».

- «افعلوا ما تشاءون»، أجابه دوبروفسكي بجفاء، «أنا لست المالك هنا».

قال ذلك ودخل غرفة أبيه وأغلق الباب خلفه.

## الفصل السادس

«هكذا انتهى كلُّ شيء»، قال فلاديمير لنفسه، «حتى هذا الصباح كنت أملك مكاناً للعيش وقطعة خبز. غداً يجب أن أترك هذا البيت الذي وُلدت فيه ومات فيه أبي، لمن كان السبب في موته وفقرى». توقَّفت عيناه تنظران جامدتين إلى صورة أمّه التي رسمها الفنان مستندة إلى الدرابزون في ثوب صباحي أبيض، تزِين شعرها وردة حمراء قانية. «وهذه اللوحة سيحصل عليها عدوُّ أسرتي»، فكَّر، «وسيلقي بها في المستودع مع الكراسي المخلَّعة أو يعلِّقها في المدخل موضوعاً لسخرية مَرُوضي كلابه، أمّا في غرفة نومها، في الغرفة التي مات فيها أبي، فسيقم وكيله، أو سيجعلها سكناً لحريمه. لا، لا، يجب ألا يكون هذا البيت البائس الذي يطردني منه، مُلكاً له». صرَّ فلاديمير على أسنانه، وتوالت الأفكار المخيفة في رأسه.

تناهت إلى سمعه أصوات الموظفين، كانوا يتصرَّفون وكأنَّهم أصحاب البيت، يأمرّون بإحضار كذا أو كذا، فيشتُّون بشكل مزعج استغراقه في أفكاره الحزينة. ثم هداً أخيراً كلُّ شيء.

فتح فلاديمير الخزائن الصغيرة والأدراج وانهمك في التفتيش في أوراق المتوفى. كان معظمها أوراق حسابات ومراسلات تتعلَّق بقضايا متنوّعة، مرَّقها فلاديمير من دون أن يقرأها. ثم عثر على مغلف كُتبت عليه عبارة «رسائل زوجتي». اهتزَّت مشاعر فلاديمير بقوة وشرع بقراءتها. الرسائل مكتوبة في زمن الحرب على تركيا ومُرسلّة إلى بريد الجيش من كيستينوفكا. وفيها تصف له حياتها الخاوية، وتُحدِّثه عن أشغال المزرعة، وتشكو برقة ألم الفراق، وترجوه

أن يعود إلى بيته، إلى أحضان زوجته الطيبة. وفي إحداها عبّرت له عن قلقها على صحة فلاديمير الصغير، وفي أخرى عن فرحها بمواهبه المبكرة، وتنبأت له بمستقبل باهر سعيد. استغرقت القراءة فلاديمير، فنسي كلّ ما في الدنيا، وغرقت روحه في عالم السعادة العائلية، فلم يشعر بمرور الوقت. دقّت الساعة الجدارية معلنة الحادية عشرة. فدرّس الرسائل في جيبه وحمل شمعة وغادر المكتب. في الصالة كان الموظفون نائمين على الأرض، وعلى الطاولة تكوّمت الكؤوس التي أفرغوها، وفاحت في الغرفة كلّها رائحة الروم القوية، فشعر فلاديمير بالقرف وهو يمرّ بجانبهم. كان باب البيت موصداً. وحين لم يجد المفتاح، عاد إلى الصالة. وجد المفتاح على الطاولة. فتح فلاديمير الباب، فإذا برجل يقبع متخفّياً في الزاوية وفي يده بلطة تلتمع. وجّه نحوه ضوء الشمعة فعرفه. إنّه الحدّاد أرخب.

- «ماذا تفعل هنا؟»، سأله.
- «آه، يا فلاديمير أندرييفيتش، هذا أنت إذن!»، أجاب أرخب هامساً، «ليلطف بك الربّ ويحميك! من حسن الحظّ أنّك تمشي حاملاً شمعة!».

نظر إليه فلاديمير دهشاً، ثم سأله:

- لماذا تختبئ هنا؟
- «أنا أردت... أنا جئت... لأرى إن كان الجميع في البيت»، أجابه أرخب بصوت خفيض، متلعثماً.
- ولماذا تحمل البلطة؟
- لماذا البلطة؟ وهل يستطيع المرء أن يتجوّل في هذه الأيّام من دون بلطة! إنّ هؤلاء الموظفين، كما ترى، مشاكسون، وقد يحدث ما ليس في الحساب...

- أنت سكران، ارمِ البلطة، واذهب فخذ كفايتك من النوم.
- أنا سكران؟ يشهد الله، يا أبتِ فلاديمير أندرييفيتش، أنّي لم أضع

قطرة شراب واحدة في فمي... وأي شراب يمكن أن يخطر في البال!  
من يصدّق أنّ الموظّفين قرّروا الاستيلاء علينا، وأنّهم يطردون سادتنا  
من بيوتهم... انظر كيف يشخر هؤلاء الملاعين، أتمنّى لو أقضي  
عليهم بضربة واحدة، ثم أختفي من دون أثر.

عبس دوبروفسكي.

- «اسمع يا أرخب» قال بعد صمت قصير، «ما فكّرت فيه خطأ.  
المذنب ليس الموظّفون. أشعل المصباح واتبعني».
- أخذ أرخب الشمعة من يد سيّده، وأخرج المصباح من وراء الموقد، أضاءه  
ثم نزل الاثنان من الشرفة وسارا معًا في هدوء بمحاذاة الفناء. شرع الحارس  
يقرع لوح الإنذار الحديدي وعوت الكلاب.
- «مَن الحرّاس؟»، سأل دوبروفسكي.
- «نحن يا أبت، فاسيليا ولوكيريا»، أجابه صوت رفيع.
- «اذهبا إلى بيتكما»، قال لهما دوبروفسكي، «لا حاجة إلى وجودكما».
- «شاباش»، قال أرخب.
- «شكرًا يا وليّ نعمتنا»، أجابت المرأتان وغادرتا إلى بيتيهما في الحال.
- تابع دوبروفسكي سيره. اقترب منه رجلان ونادياه، فعرف دوبروفسكي من  
صوتيهما أنّهما أنطون وغريشا.
- «لماذا ما زلتما ساهرين؟»، سألهما.
- «وكيف لنا أن ننام ونحن فيما نحن فيه!»، أجاب أنطون، «من كان  
يتصور»...
- «اهدأ!»، قاطعه دوبروفسكي، «أين يغوروفنا؟».
- «إنّها في بيتك يا سيّدي، في حجرتها الصغيرة»، أجاب غريشا.
- اذهب، وأحضرها إلى هنا، وأخرج جميع أتباعنا من المنزل،  
واحرص على ألا يبقى فيه أحد غير الموظّفين، أمّا أنت يا أنطون  
فجهّز العربة.



- انصرف غريشا ثم عاد بعد دقيقة ترافقه أمُّه، فالعجوز لم تكن قد بدّلت ملابسها للنوم، في تلك الليلة التي لم يغمض فيها جفن لأحد غير الموظّفين.
- «هل الجميع هنا؟»، سأل دوبروفسكي، «هل بقي أحد في المنزل؟».
  - «لا أحد سوى الموظّفين»، أجاب غريشا.
  - «أحضروا العشب الجافّ، أو القشّ إلى هنا»، قال دوبروفسكي.
  - هرع الحاضرون إلى الحظيرة وعادوا يحملون رزمًا من القشّ.
  - ضعوها تحت الشرفة. هكذا. هيّا يا فتیان، أشعلوا النار!
  - رفع أرخب زجاجة المصباح، فأشعل دوبروفسكي حزمة من القشّ.
  - «مهلاً!»، قال لأرخب، «يبدو أنّي أفلتت باب البيت وأنا أستعجل الخروج، اذهب بسرعة، وافتحه».
  - ركض أرخب فوق القشّ. الباب كان مفتوحًا. أغلقه أرخب وقفّله بالمفتاح، وهو يدمدم: «أفتحه! هذا محال!». ثمّ عاد إلى دوبروفسكي.
  - قَرَّب دوبروفسكي الحزمة المشتعلة من القشّ فاشتعل، وارتفع اللهب مضيئًا الفناء كلّهُ.
  - «ويلي»، صرخت يوغوروفنا متوجّعة، «ماذا تفعل يا فلاديمير أندرييفيتش؟».
  - «اسكتي»، قال دوبروفسكي، «طيّب. وداعًا يا أولاد، سأرحل إلى حيث يشاء الله. أمّا أنتم فاسعدوا بسيّدكم الجديد».
  - «يا أبانا، يا وليّ نعمتنا»، أجابه الناس، «نموت ولا نتركك، سنذهب معك».
  - جاؤوا بالعربة، فركبها دوبروفسكي يرافقه غريشا، بعد أن حدّد لهم مكانًا للقاء في حرج كيستينيوفكا، ثم ساط أنطون الجياد فانطلقت العربة خارجة من الفناء. هبّت الريح. وفي لحظة لفّ اللهب البيت كلّهُ. تلوّى الدخان الأحمر فوق السطح. وطقطق الزجاج متحطّمًا، وتقصّفت الأعمدة الخشبية المشتعلة وتهاوت، وعلا العويل وصرخات الاستنجاد:

- نحن نحترق، أنجدونا، أنجدونا!
- «وكيف لا!»، قال أرخبيل وهو ينظر إلى الحريق ويتسمم ابتسامة حاقدة.
- «أرخبيل تشكا»، نادته يغوروفنا، «أنقذ هؤلاء الملاعين، وستنال الثواب من الله».
- «وكيف لا!»، أجاب الحدّاد.
- في هذه اللحظة ظهر الموظفون في النوافذ وهم يحاولون تحطيم أطرها المزدوجة. غير أن السقف انهار في صخب، وهدأ الصراخ.
- وسرعان ما تقاطر الخدم إلى الفناء. هرعت النسوة مولولات، يحاولن إنقاذ متاعهن البائس. وتقافز الأولاد مستمتعين بمنظر الحريق. وتطاير الشرر كعاصفة نارية فاحترقت الأكواخ.
- «كل شيء على ما يرام الآن»، قال أرخبيل، «يا له من حريق، ها؟ أظنُّ أنَّ المنظر سيبدو رائعًا من بوكروفسكويه».
- اجتذب انتباهه في هذه اللحظة منظر جديد، ثمّة قطّة كانت تركض على سطح الحظيرة المشتعلة، وهي لا تدري إلى أين تقفز، فاللهب أحاط بها من كلِّ جانب. كانت القطّة المسكينة تموء مستغيثة، أمّا الفتیان فكادوا يموتون ضحكًا وهم يتأملون وضعها البائس.
- «ما الذي يُضحككم أيُّها الشياطين الصغار؟»، صرخ فيهم الحدّاد غاضبًا، «ألا تخافون الله! مخلوق من مخلوقات الله يموت، وأنتم لغبائكم تضحكون!».
- ثم أسند سلّمًا إلى السطح المحترق وصعد إلى القطّة. أمّا هي فأدركت نيّته، وكتعبير عاجل عن الشكر تشبّثت بكُم سترته. نزل الحدّاد، الذي لفحته النار، بغنيمته إلى الأرض.
- «والآن، وداعًا أيُّها الفتیان»، قال للخدم المرتبكين، «لم يبقَ لي ما أفعله هنا. حظًّا سعيدًا، لا تذكروني بسوء».

رحل الحدّاد، وظلّ الحريق مضطرباً بعض الوقت. وأخيراً شرع يهدأ،  
توهّجت كتل الجمر تسطع من دون لهب في ظلام الليل، وراح يهيم بالقرب  
منها سكّان كيستينيوفا الذين احترقت بيوتهم.

## الفصل السابع

انتشر في اليوم التالي خبر الحريق في المنطقة كلّها. وتحدّث الجميع عنه، وقدّموا شتّى التخمينات والافتراضات. بعضهم أكّد أنّ رجال دوبروفسكي، بعد أن سكرُوا في التشييع، أحرّقوا البيت بسبب إهمالهم، وأنّهم آخرون الموظّفين الذين احتفلوا في المكان الجديد، وأكّد كثيرون منهم أنّ دوبروفسكي نفسه وهيئة المحكمة وكلّ الخدم احترقوا أيضًا. لكنّ بعضهم خمن حقيقة ما حدث، وأكّد أنّ المسؤول عن هذه المصيبة الفظيعة كان دوبروفسكي نفسه، مدفوعًا بحقده ويأسه. وفي ذلك اليوم نفسه وصل ترويكوروف إلى مكان الحريق وقام شخصيًا بالتحقيق، فبيّن له أنّ رئيس الشرطة، وعضو هيئة المحكمة المحلّف، والوكيل المكلف، والكاتب، وكذلك فلاديمير دوبروفسكي، والمربيّة إيغوروفنا، والخدم غريغوري، والحدّاد أنطون، والحدّاد أرخب اختفوا في جهة مجهولة. وقد أكّد الخدم جميعًا أنّ الموظّفين احترقوا عند سقوط السقف، وأنّ عظامهم المحترقة قد جُمعت. وقالت الخادمتان فاسيليا ولوكيريا، إنّهما شاهدتا دوبروفسكي والحدّاد أرخب قبل اشتعال الحريق بدقائق، كما أكّدت الإفادات أنّ الحدّاد أرخب كان حيًّا، ومن المحتمل أن يكون هو المسؤول الرئيس، إن لم يكن الوحيد، عن الحريق. وكذلك حامت شكوك قويّة حول دوبروفسكي. أنهى كيريل بتروفيتش التحقيق وأرسل إلى المحافظ تقريرًا مفصّلًا بكلّ ما حدث، وفُتحت قضية جديدة.

بعد فترة وجيزة، راحت أخبار أخرى تغذي فضول الناس وأحاديثهم، فقد ظهر في ناحية -- قطّاع طرق نشروا الرعب في المناطق المجاورة كلّها. لم تكن

الإجراءات التي اتَّخذتها الحكومة ضدَّهم كافية، فتتالت حوادث السطو، كلُّ واحدة منها تفوق سابقتها عنفًا. فُقد الأمن على الطرقات، وفي القرى. وراح عدد من عربات الترويكما المملأى بقطَّاع الطُّرق يطوف نهارًا في أنحاء المحافظة كلَّها، فيعترضون المسافرين وعربات البريد، ويمرُّون بالقرى، فينهبون بيوت الإقطاعيين، ويشعلون فيها النار. وقد اشتهر زعيم هذه العصابة بذكائه وبسالته وشهامته، وزُويت عنه المعجزات. شاع اسم دوبروفسكي على كلِّ لسان، وكان الجميع واثقين من أنَّه هو، وليس أي إنسان آخر، من يقود هؤلاء الأشرار الشجعان. غير أنَّ أمرًا واحدًا كان يُدهش الناس: وهو أنَّ ممتلكات ترويكوروف لم تتعرَّض لسوء، فقُطَّاع الطُّرق لم ينهبوا أيَّ حظيرة من حظائره، ولم يعترضوا أيَّ حمل من أحماله. وقد عزا ترويكوروف هذا الاستثناء، انطلاقًا من تعالیه واستكباره المعتاد، إلى الخوف الذي عرف كيف يبيِّته في المحافظة كلَّها، وكذلك أيضًا إلى الشرطة الممتازة التي عيَّنها في قُراه. في البداية، سخر الجيران فيما بينهم من عنجهية ترويكوروف، وراحوا ينتظرون في كلِّ يوم زيارة الضيوف غير المدعوِّين لبوكروفسكويه، حيث سيجدون ما يغنمون، لكنَّهم اضطروا في نهاية المطاف، إلى موافقته، والاعتراف بأنَّ قُطَّاع الطُّرق أيضًا، يَكُونُ له احترامًا غير مفهوم... انتصر ترويكوروف وكان عند كلِّ خبر عن عملية سطو لدوبروفسكي ينهال بالسخرية على المحافظ ومسؤولي الشرطة وقادة السرايا، الذين كان دوبروفسكي يفلت منهم سليمًا دائمًا.

وحلَّ أخيرًا يوم الأول من تشرين الأول (أكتوبر)، يوم الاحتفال بعيد الكنيسة في قرية ترويكوروف. لكن، قبل أن أبدأ بوصف ذلك الاحتفال والأحداث التي تلتها، يجب أن أعرِّف القارئ بأشخاص جدد بالنسبة إليه، أو سبق أن ذكرتهم عرضًا في بداية قصَّتنا.

## الفصل الثامن

أغلب الظنُّ أنَّ القارئ أدرك أنَّ ابنة كيرىلا بتروفيتش، التي لم نقل عنها سوى بضع كلمات حتى الآن، هي بطلة قصتنا. كان عمرها، في الزمن الذي نتكلَّم عنه سبعة عشر عامًا، وكان جمالها في كامل ازدهاره. أحبَّها أبوها إلى حدِّ الجنون، وكان يتعامل معها بحسب مزاجه الخاصِّ، فيحرص تارة على تلبية أي نزوة من نزواتها مهما كانت ضئيلة الشأن، ويُخيفها تارة بمعاملته لها معاملة صارمة، بل قاسية أحيانًا. كان واثقًا من تعلُّقها به، لكنَّه لم يستطع أبدًا أن يحظى بثقتها، فقد اعتادت إخفاء مشاعرها وأفكارها، لأنَّها، على ما أظنُّ، لم تستطع يومًا أن تعرف كيف سيستقبل تلك المشاعر والأفكار. لم يكن لديها صديقات، فقد نشأت في عزلة. زوجات الجيران وبناتهم نادرًا ما كنَّ يزرن كيرىلا بتروفيتش الذي كانت أحاديثه وضروب مرجه تتطلَّب صحبة من الرجال أكثر ممَّا تتطلَّب وجود السيِّدات. ولم تكن غادتنا الجميلة تظهر بين الضيوف المدعوين عند أبيها إلَّا نادرًا. المكتبة الضخمة المكوَّنة في غالبيتها من مؤلَّفات الكتَّاب الفرنسيين في القرن الثامن عشر، كنت موضوعة تحت تصرُّفها، غير أنَّ أباهما الذي لم يقرأ شيئًا غير كتاب «الطاهية المثالية»، كان غير قادر على مساعدتها في اختيار ما تقرؤه، وكان من الطبيعي أن تختار ماشاء، بعد تقليب شتَّى المؤلَّفات، قراءة الروايات، وهي بذلك استكملت تربيتها التي بدأت في وقت ما بإشراف الديموزيل ميمي، وهي سيِّدة كان كيرىلا بتروفيتش يميل إليها، ويثق بها ثقة كبيرة، لكنَّه اضطرَّ أخيرًا إلى نقلها إلى قرية أخرى في هدوء، بعد أن صارت نتائج صداقتهما ظاهرة للغاية. تركت ديموزيل ميمي ذِكْرًا حسنًا جدًّا، فهي كانت

فتاة طيبة لم تستخدم أبداً نفوذها على كيرىلا بتروفيتش لأغراض شريرة، وهذا ما ميّزها من مثيلاتها الأخريات اللواتي كان يغيّرهنّ باستمرار. وقد بدا أنّ كيرىلا بتروفيتش نفسه أحبّها أكثر من الأخريات، لا سيّما وأنّ الطفل الأسود العينين، الكثير الحركة، ذا الأعوام التسعة، الذي تُذكر ملامحه بملامح الديموزيل ميمي بوضوح، تربّى في كنفه، وقد اعترف به ابناً له، في حين أنّ الكثيرين من الأولاد الحفاة الذين يُشبهونه شبّها شديداً ظلّوا يترامضون تحت نوافذه بوصفهم من الخدم. استدعى كيرىلا بتروفيتش لصغيره ساشا معلّماً فرنسيّاً من موسكو، وصل إلى بوكروفسكويه في وقت الأحداث التي نصفها.

أعجب هذا المعلّم كيرىلا بتروفيتش بمظهره المريح وتعامله المتّسم بالبساطة. قدّم المعلّم شهادته ورسالة من أحد أقارب ترويكوروف عمل عنده وصيفاً مدّة أربعة أعوام. وتفحص كيرىلا بتروفيتش ذلك كلّهُ، فلم يزعجه سوى صغر سنّ الفرنسي - ليس لأنّه افترض أنّ هذا العيب اللطيف يتناقض مع الصبر والخبرة الضروريين جدّاً في مهنة المعلّم الشقيّة، بل لأنّ شكوكاً أخرى ساورتها وقرّر أن يوضحها له على الفور، فأمر من أجل ذلك باستدعاء ماشا (كيرىلا بتروفيتش لم يكن يتكلّم الفرنسية وكانت ماشا تؤدي دور المترجم).

- تعالي يا ماشا. قلّلي لهذا المسيو إنّّي سأقبله للعمل، لكن شرط ألاّ يتجرّأ فيحوم حول البنات عندي، وإلاّ فإنّ ابن الكلب هذا سيرى مني... ترجمي له هذا، يا ماشا.

احمّرت ماشا خجلاً، وتوجّهت إلى المعلّم قائلة بالفرنسية إنّ والدها يعتمد على تواضعه وسلوكه الحسن.

انحنى لها الفرنسي وأجاب أنّه يأمل أن يكون أهلاً للاحترام حتى لو لم يحظَ باستلطافهم. ترجمت ماشا جوابه كلمة كلمة.

- «حسنًا، حسنًا»، قال كيرىلا بتروفيتش، «إنّه ليس بحاجة إلى الاستلطاف والاحترام، عمله هو رعاية ساشا وتعليمه اللغة والجغرافية، ترجمي هذا له».

لَطَفَتْ مَارِيَا كِيرِيلُوفُنَا فِي تَرْجُمَتِهَا تَعَابِيرَ أُيُّهَا الْفُظَّةُ. وَهَكَذَا صَرَفَ كِيرِيلَا بَتْرُوفِيْتِشَ مُوْظَفَهُ الْفَرَنْسِيَّ إِلَى الْجَنَاحِ الَّذِي خُصِّصَتْ لَهُ غُرْفَةٌ فِيهِ.

مَا شَأْنُ لَمْ تَهْتَمَّ أَبَدًا بِالْفَرَنْسِيَّةِ الشَّابِّ، فَالْمَعْلَمُ فِي نَظَرِهَا، هِيَ الَّتِي تَرَبَّتْ عَلَى التَّقَالِيدِ الْأَرِسْطَقْرَاطِيَّةِ، وَاحِدٌ مِنَ الْخُدَمِ أَوْ أَصْحَابِ الْحِرَفِ، وَالْخَادِمُ أَوْ صَاحِبُ الْحِرْفَةِ، لَمْ يَكُنْ فِي نَظَرِهَا رَجُلًا. هِيَ لَمْ تَلَاظِ حَتَّى الْإِنْطِبَاعَ الَّذِي تَرَكْتَهُ فِي نَفْسِ الْمَسِيوِ دِي فُورْجٍ، أَوْ ارْتِبَاكِهِ، أَوْ خَجَلِهِ، أَوْ تَبَدُّلِ صَوْتِهِ. وَقَدْ التَقَتْهُ كَثِيرًا فِي عِدَدٍ مِنَ الْأَيَّامِ التَّالِيَةِ، مِنْ دُونِ أَنْ تَمْنَحَهُ إِهْتِمَامًا كَبِيرًا. لَكِنَّهَا فَهَمَّتْهُ فَهَمًّا جَدِيدًا تَمَامًا، بِشَكْلِ مَفَاجِئٍ.

كَانَ كِيرِيلَا بَتْرُوفِيْتِشَ يُرَبِّي عَادَةً عِدَدًا مِنَ الدَّبَّةِ الصَّغِيرَةِ فِي بَاحَةِ دَارِهِ، وَكَانَتْ هَذِهِ الدَّبَّةُ إِحْدَى وَسَائِلِ التَّسْلِيَةِ الرَّئِيسَةِ لِمَالِكِ بُوْكْرُوفْسْكُويِه. كَانُوا يَجِيثُونَ بِهَذِهِ الدَّبَّةِ فِي طِفُولَتِهَا الْمُبَكَّرَةِ إِلَى غُرْفَةِ الْمَعِيشَةِ يَوْمِيًّا، حَيْثُ يَلْهُو بِهَا كِيرِيلَا بَتْرُوفِيْتِشَ سَاعَاتٍ طَوِيلَةٍ وَيَحْرُضُهَا عَلَى مَهَاجِمَةِ الْقَطْطِ وَالْجِرَاءِ. ثُمَّ صَارُوا، بَعْدَ أَنْ كَبُرَتْ، يَقَيِّدُونَهَا بِالسَّلَاسِلِ فِي انْتِظَارِ مَنَاسِبَةٍ لِمَصْرَاعِ حَقِيقِي. وَكَانُوا، فِي حَالَاتٍ نَادِرَةٍ، يَجِيثُونَ بِهَا إِلَى بَاحَةِ مُقَابِلِ نَوَافِذِ بَيْتِ السَّيِّدِ، وَيُدْحَرِجُونَ أَمَامَهَا بِرَمِيلٍ نَبِيذٍ خَشْبِيًّا دُقَّتْ عَلَيْهِ مَسَامِيرُ، يَشُمُّ الدَّبُّ الْبَرْمِيلَ ثُمَّ يَلْمَسُهُ بِهَدْوٍ فَتَنْخَدِشَ يَدُهُ، فَيَغْضِبُ وَيُدْفَعُ الْبَرْمِيلَ بِقُوَّةٍ أَكْبَرَ، فَيَشْعُرُ بِالْمِ أَكْبَرَ، وَيُصَابُ بِسُعَارٍ كَامِلٍ، فَيَنْقُضُ عَلَى الْبَرْمِيلِ يَعَارِكُهُ وَهُوَ يَجْأَرُ، وَيَظُلُّ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَنْتَزِعُوا مِنَ الْحَيَوَانِ الْمَسْكِينِ مَا هَيَّجَهُ هِيَاجًا لَا جَدْوَى مِنْهُ. وَكَانَ يَحْدُثُ أحيانًا أَنْ يَشْدُوا إِلَى الْعَرَبَةِ دُبَّيْنِ، فَيَرْكَبُهَا الضِّيُوفُ بِرَغْبَتِهِمْ أَوْ رُغْمًا عَنْهُمْ، ثُمَّ يُطْلِقُونَهَا تَتَقَافَزُ هَائِمَةً عَلَى غَيْرِ هَدْيٍ. غَيْرَ أَنَّ التَّسْلِيَةَ الْأَفْضَلَ عِنْدَ كِيرِيلَا بَتْرُوفِيْتِشَ كَانَتْ التَّالِيَةَ: يَحْجِزُونَ دُبًّا جَائِعًا فِي غُرْفَةِ فَارِغَةٍ، وَيَرْبِطُونَهُ بِحَبْلِ إِلَى حَلْقَةٍ مُثَبَّتَةٍ فِي الْجِدَارِ. طَوَّلَ الْحَبْلُ يَسَاوِي تَقْرِيبًا طَوَّلَ الْغُرْفَةِ، بِحَيْثُ لَا يَبْقَى فِي الْغُرْفَةِ مَكَانٌ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ آمِنًا مِنْ هَجَمَاتِ الْوَحْشِ الْمَخِيفِ سِوَى زَاوِيَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الرُّكْنِ الْمُقَابِلِ. ثُمَّ يَجِيثُونَ بِضَيْفٍ مُنْضَمٍّ حَدِيثًا لِمَجْلِسَاتِهِمْ إِلَى بَابِ الْغُرْفَةِ وَيُدْفَعُونَهُ إِلَى الدَّخْلِ بِشَكْلِ يَبْدُو غَيْرِ مُتَعَمِّدٍ، فَيَنْغَلِقُ الْبَابُ وَيَبْقَى الضَّحِيَّةُ الْبَائِسُ وَحِيدًا



في مواجهة وحش البراري الأشعث. ويكتشف الضيف المسكين بسرعة الزاوية الآمنة، وقد تمزّقت ثيابه وأصيب بخدوش دامية، لكنّه يكون مضطراً أحياناً إلى البقاء ساعات واقفاً، ملتصقاً بالجدار، وهو يرى، على بعد خطوتين منه، ذلك الوحش المسعور بجأراً، ويثب، ويقف على قائمتيه الخلفيتين، ويندفع بكلّ قوّته محاولاً الوصول إليه. هكذا كانت التسلّيات النبيلة للإقطاعي الروسي!

بعد انقضاء عدّة أيّام على وصول المعلّم تذكّره ترويكوروف، ونوى أن يستضيفه في غرفة الدبّ، فاستدعاه ذات صباح لهذا الغرض، وسار به في ممّرات معتمة، وإذ بباب جانبي يُفتح، ويقوم خادمان بدفع الفرنسي إلى الداخل ثم يغلقان الباب بالمفتاح. حين أفاق المعلّم من وقع المفاجأة رأى الدبّ المقيّد. كان الوحش قد بدأ ينتفج متشّماً ضيفه عن بُعد، ثم نهض فجأة على قائمتيه الخلفيتين وهجم عليه... لم يرتبك الفرنسي، ولم يهرب، بل وقف ينتظر الهجوم. اقترب الدبّ، فأخرج دي فورج مسدّساً صغيراً وضع فوهته في أذن الوحش الجائع وأطلق النار، فسقط الدبّ صريعاً. تراكض الجميع إلى المكان، وفُتح الباب، ودخل كيريل بتروفيتش مذهولاً من هذه النهاية التي آلت إليها مزحته، وطلب بإصرار تقديم توضيح للأمر كلّ: من نَبّه دي فورج على المزحة التي أعدّت له، ولماذا كان يحمل في جيبه مسدّساً محشوّاً. أرسل يستدعي ماشا، فجاءت مسرعة وترجمت للفرنسي أسئلة أبيها.

- «أنا لم أسمع بالدبّ»، أجاب دي فورج، «لكنّي أحمل دائماً مسدّسين لأنّي لست مستعدّاً لتحمل إهانة لا يسمح لي وضعي بطلب الاعتذار عنها».

نظرت ماشا إليه بدهشة، وترجمت كلماته لكيريل بتروفيتش. لم يعلّق بشيء، بل أمر بسحب الدبّ وسلخ جلده، ثم توجّه إلى رجاله قائلاً:

- يا له من فتى! لم يجبن، والله، لم يجبن.

لقد أحبّه منذ تلك اللحظة ولم يعد يفكر في اختباره.

غير أنّ هذا الحادث ترك انطباعاً أكبر عند ماريا كيريلوفنا. الحدث صعق خيالها: رأت الدبّ الميت، ودي فورج يقف فوقه يحادثها في هدوء، ورأت أنّ

الشجاعة والاعتزاز بالنفس ليسا وقفاً على فئة اجتماعية محدّدة، وصارت، منذ ذلك الحين تعامل المعلّم الشابّ باحترام، وراح اهتمامها به يزداد ساعة بعد ساعة، ونشأت بينهما بعض الوشائج. كانت ماشا تملك صوتاً رائعاً، وقدرات موسيقية كبيرة، فتطوّع دي فوج لإعطائها دروساً في الموسيقى والغناء. بعد هذا لن يصعب على القارئ أن يخيّن أنّ ماشا أحبّته حتى قبل أن تدرك هي نفسها ذلك.

## الجزء الثاني

### الفصل التاسع

عشيّة الاحتفال بدأ الضيوف يتوافدون، بعضهم نزل في بيت مالك القرية، والأجنحة الملحقة به، وآخرون نزلوا في بيت الوكيل، ونفر ثالث عند الخوري، ورابع عند الفلاحين الميسورين. امتلأت الاصطبلات بخيول السفر، وغصّت باحات الدّور والحظائر بالعربات المختلفة. وفي الساعة التاسعة صباحًا تمّ الإعلان عن القدّاس، فزحف الجميع إلى الكنيسة الحجرية الجديدة التي بناها كيرىلا بتروفيتش، وازدانت بما كان يقدّمه من هبات سنويًا. وقد اجتمع عدد كبير من المصلّين الوجهاء، فلم يبق للفلاحين البسطاء مكان داخل الكنيسة فوقفوا على درجات المدخل وفي الفناء. لم يبدأ القدّاس، فقد كانوا ينتظرون كيرىلا بتروفيتش، الذي وصل في عربة تجرّها سِتّة أحصنة، ومشى بخطوات توحى بالمهابة إلى مكانه، ترافقه ماريّا كيرىللوفا. فاتجهت أنظار الرجال والنساء إليها؛ الرجال أدهشهم جمالها، والنساء تأملن ملابسها باهتمام. بدأ القدّاس، ورتّل المنشدون المحليّون الأدعية مصطفّين في جوقة، وقد شاركهم كيرىلا بتروفيتش نفسه في الإنشاد، وصلى من دون أن يلتفت يمينه أو يسرة، ثم انحنى في استسلام مشوب بالاعتزاز، إلى الأرض، حين ذكر الشّمّاس اسمه بصوت مرتفع في دعائه لباني هذا المعبد.

انتهى القدّاس. وكان كيرىلا بتروفيتش أوّل من اقترب من الصليب، وتحرك الجميع خلفه، بعد ذلك تجمّع الجيران حوله باحترام. تحلّقت النساء حول

ماشاً. ودعا كيرىلا بتروفيتش، وهو خارج من الكنيسة، الجميع للغداء عنده، ثم ركب عربته عائداً إلى البيت. تبعه الجميع، وغصّت الغرف بالضيوف، ففي كلّ لحظة كان يدخل ضيوف جدد، يشقّون طريقهم نحو صاحب البيت بصعوبة. جلست السيّدات بوقار متحلّقات على شكل نصف دائرة، وقد ارتدين ملابس غالية الثمن، مع أنّها قديمة ومتخلّفة عن «الموضة»، وتزيّن بالكثير من الماسات والجواهر، واحتشد الرجال بالقرب من الكافيار والفودكا، وهم يتحدّثون بأصوات مختلفة صاحبة. أعدّت المائدة في الصالة لثمانين شخصاً، وتراكم الخدم يوزعون زجاجات الشراب والأباريق ويمدّون المفارش فوق الطاولات. وأخيراً، أعلن الوصيف أنّ «المائدة جاهزة»، فمشى كيرىلا بتروفيتش في المقدمة ليحتلّ مكانه على المائدة، وتبعته السيّدات، فجلسن في أماكنهنّ برزانه، مراعاتاً نوعاً من الترتاب. أمّا الأنسات فتلاصقن، وتدافعن كقطيع مرتبك من العنزات الصغيرات، وانتقين أماكنهنّ واحدة قرب أخرى. قبالتهنّ جلس الرجال، وجلس في الطرف الأخير من المائدة المعلم إلى جانبه ساشا الصغير.

بدأ الخدم بتوزيع أطباق الطعام بحسب مراتب الضيوف، مسترشدين في حال التباس الأمر، بإرشادات لافاتير<sup>(1)</sup>، التي جنبّتهم الخطأ في معظم الأحوال. واختلط رنين الصحون والملاعق بحديث الضيوف الصاخب، وراح كيرىلا بتروفيتش يتأمّل مائدته بابتهاج، ويستمتع تماماً بسعادة تقاسم الخبز والملح مع ضيوفه. في هذه الأثناء دخلت إلى الفناء عربة تجرّها سة أحصنة.

- «من هذا؟»، سأل صاحب البيت.

- «أنطون بافنوتيتش»، أجابت عدّة أصوات.

فُتح الباب، واندفع أنطون بافنوتيتش سبتسين، الرجل البدين البالغ قرابة الخمسين من العمر، ذو الوجه الأحمر المستدير المزدان بلحية ثلاثيّة

(1) لافاتير (1741-1801) كاتب سويسري، حاول في كتابه «علم تعبير الوجوه» تحديد طباع الشخص على أساس ملامح وجهه.

الطبقات، إلى داخل قاعة الطعام وهو ينحني محيَّيًا، مبتسمًا، ويستعدُّ لتقديم الاعتذار...

- «هاتوا طقم أدوات طعام إلى هنا»، صاح كيرىلا بتروفيتش، «تفضَّل يا أنطون بافنوتيتش، اجلس، وقل لنا ما معنى أن تغيب عن قَدَّاسي، وتتأخَّر على الغداء. إنَّ هذا ليس من عادتك، فأنت رجل مؤمن ومحبُّ للطعام أيضًا».

- «أنا مذنب»، أجاب أنطون بافنوتيتش وهو يعلِّق منشفة المائدة بعروة قفطانهِ الأصغر، «أنا مذنب يا أبت كيرىلا بتروفيتش. انطلقت في الطريق إليكم مبكرًا، لكن ما إن اجتزت عشرة فراسخ حتى انقسم كاوتشوك العجلة الأمامية إلى نصفين. ما رأيك؟ من حسن الحظَّ أننا لم نكن بعيدين عن القرية! ومع ذلك استغرق وصولنا إليها، والعثور على الحدَّاد، وإصلاح الخلل كيفما اتفق، ثلاث ساعات كاملة، أضعناها مرغمين. ولم أجرؤ على سلوك الطريق الأقرب عبر غابة كيستينيوفكا، فلجأت إلى الالتفاف»...

- «هو هو!»، قاطعه كيرىلا بتروفيتش، «أنت، على ما يبدو، لست من الشجعان! ما الذي أخافك؟».

- كيف تجهل ما أخافني يا أبت؟ إنَّه دوبروفسكي، الذي قد أقع بين يديه في أيَّة لحظة. إنَّه فتى لا يطيش سهمه، ولا يفلت من شبابه أحد. أمَّا أنا، فأظنُّ أنه سيسلخ جلدي مرَّتين.

- ولماذا يا أخي سيخصُّك بهذه الميزة؟

- كيف 'المذا' يا أبت كيرىلا بتروفيتش؟ ألسْتُ أنا من شهد إرضاءً لجناحك، أي إرضاء للضمير والعدالة، أن آل دوبروفسكي يملكون كيستينيوفكا من دون أيِّ سند قانوني، وأنَّ ما يمكنهم من ذلك هو فقط تسامحكم. وقد وعد المرحوم - أسكنه الله الجنة - أن يحاسبني على طريقته، وأنا أعتقد أن الابن سيحقِّق وعد أبيه. أنا أحمد الله أنهم

لم ينهبوا من عندي سوى عنبر حبوب واحد، حتى الآن، لكنهم قد يصلون إلى مسكني في أية لحظة.

- «وسيكون لهم في مسكنك مرتع خصب»، قال كيرىلا بتروفيتش ملاحظًا، «أنا أظنُّ أنَّ العلبة الحمراء ممتلئة عن آخرها»...

- من أين؟ يا أبتِ كيرىلا بتروفيتش. لقد كانت ممتلئة، أمَّا الآن فهي خالية تمامًا.

- كفى كذبًا يا أنطون بافنوتيتش. نحن نعرفك. أين تُراك تُنفق مالك وأنت تعيش في البيت عيش الخنازير، لا تستقبل أحدًا، وتنهب فلاحيك، ولا تعرف غير كنز النقود.

- «أنت دائم المزاح يا أبتِ كيرىلا بتروفيتش»، دمدم أنطون بافنوتيتش باسمًا، «لكننا، والله، أفلسنا».

راح أنطون بافنوتيتش يبتلع نكتة صاحب المنزل مع قطعة من فطيرة دسمة. أمَّا كيرىلا بتروفيتش فتركه، واتَّجه إلى قائد الشرطة الجديد، الذي يزوره للمرأة الأولى، وكان جالسًا في الطرف المقابل بالقرب من المعلم:

- ما قولك أيُّها السيّد الرئيس، هل ستقبضون، أنتم، على الأقل، على دوبروفسكي؟

جبن قائد الشرطة. انحنى، وابتسم، وتلعثم، ثم قال أخيرًا:

- سنبذل جهدنا يا صاحب المعالي.

- هم! 'سنبذل جهدنا'. منذ زمن بعيد يبذلون جهودهم، ولكن من دون

جدوى. في الحقيقة ليس هناك من سبب للقبض عليه. إنَّ في أعمال سطو دوبروفسكي كلّ الخير لقادة الشرطة: السفريات، والتحقيقات، واستخدام عربات الآخرين، وحشو الجيوب بالنقود. فكيف يجوز

القضاء على محسن كهذا؟ أليس ما أقوله صحيحًا أيُّها القائد؟

- «إنَّه الحقيقة خالصة يا صاحب المعالي»، أجاب قائد الشرطة الذي تملّكه الارتباك كليًا.

- أحبُّ في هذا الفتى الصدق، ويؤسفني موت قائد شرطتنا المرحوم تاراس أليكسييفيتش. لو لم يحرقوه لكان الوضع في ناحيتنا أهدأ. تُرى ما هي أخبار دوبروفسكي؟ وأين شوهد آخر مرّة؟

- «عندي يا كيريل بتروفيتش»، فحَّ صوت نسائي غليظ، «لقد تناول الغداء عندي يوم الثلاثاء الماضي»...

اتَّجهت الأنظار كلّها إلى أنا سافيشنا غلوبوفا، وهي أرملة بسيطة للغاية، أحبّها الجميع لطبعها الطيّب المرح، واستعدّوا يَتملّكهم الفضول للاستماع إلى قصّتها.

- يجب أن تعرفوا أنّي قبل ثلاثة أسابيع أرسلت وكيلي إلى البريد ليحوّل نقودًا لولدي فانيوشا. أنا لا أدلّل ابني، بل لست في وضع يسمح لي بتدليله حتى لو أردت ذلك. لكنكم، أنتم أنفسكم تعرفون أنّ الضابط في الحرس يجب أن يحيا حياة لائقة، وها أنذا أتقاسم مع فانيوشا مداخيلي الصغيرة كلّما استطعت ذلك. لقد أرسلت له ألفي روبل، وقد خطر في بالي دوبروفسكي أكثر من مرّة، لكنني قلت لنفسني: المدينة قريبة، لا تبعد سوى سبعة فراسخ، وقد يمرُّ الأمر على خير بإذن الله، وإذ بوكيلي يعود في المساء ماشيًا، شاحبًا، ممزّق الملابس. صرخت متألّمة: 'ما هذا؟ ماذا أصابك؟'، أجباني: 'أيتها الأمّ أنا سافيشنا، قُطّع الطُّرق نهوني وكادوا يقتلونني، دوبروفسكي نفسه كان هناك، أراد شنقي، لكنّه أشفق عليّ وتركني، بعد أن سلّمني كلّ شيء، واستولى حتى على الحصان والعربة'. صُعقت! إلهي الذي في السماوات، ماذا سيحلُّ بابني فانيوشا؟ لم يكن هناك ما أستطيع فعله. كتبت لابني رسالة، أخبرته بالأمر، وأرسلت له تبريكاتي من دون أيّة نقود. مضى أسبوع، تلاه آخر، وفجأة تأتي إليّ عربة، تدخل فناء منزلي ويطلب جنرال لا أعرفه مقابلتي، فرحّبت به. وإذ يدخل للقائي

رجل في الخامسة والثلاثين تقريباً، أسمر، أسود الشعر، بشارين، ولحية، صورة طبق الأصل من كولنيف<sup>(1)</sup>، يقدّم نفسه كصديق وزميل في الخدمة لزوجي المرحوم إيفان أندرييفيتش، ويقول إنّه كان يمرُّ بالقرب من البيت فلم يستطع إلّا أن يعرّج لزيارة أرملة صديقه التي يعرف أنّها تعيش هنا. قدّمت له ما رزقني الله من ضيافة، وتحدّثنا في أمور مختلفة، وأخيراً حدّثته عن دوبروفسكي والمصيبة التي حلّت بي. عبس الجنرال، وقال: 'هذا غريب، لقد سمعت أنّ دوبروفسكي لا يهاجم كلّ الناس بل يهاجم أغنياء معروفين، وهو، لا يسلب حتى هؤلاء كلّ شيء، بل يتقاسم معهم ما يملكون، ولم يحدث أن اتّهمه أحد بالقتل، لا، لا بدّ من أنّ في الأمر خدعة! مري، إذا سمحت، باستدعاء وكيلك'. أرسلتُ استدعي الوكيل. حضر، لكن ما أن رأى الجنرال حتى جمّد في مكانه. 'قل لي يا أخي، كيف نهبك دوبروفسكي، وكيف أراد أن يشنقك'. ارتجف وكيلى وارتمى على قدمي الجنرال: 'أنا مذنب يا أبت، الإثم أغراني، كذبت'. 'ما دام الأمر كذلك، قال الجنرال، 'تفضّل، إذن، وأخبر السيدة كيف حدث كلّ ذلك، وأنا سأسمعك'. لم يستطع الوكيل تمالك نفسه. 'طيّب، تابع الجنرال، 'أخبرنا: أين التقيت بدوبروفسكي؟'. 'بالقرب من شجرتي السرو يا أبت، بالقرب من شجرتي السرو'. 'وماذا قال لك؟'. 'سألني: من أنت، وإلى أين أنت ذاهب، ولماذا'. 'حسناً، وماذا حدث بعد ذلك؟'. 'بعد ذلك طلب مني الرسالة والنقود'. 'طيّب'. 'أعطيته الرسالة والنقود'. 'وهو؟... قل، ماذا فعل هو؟'. 'مذنب يا أبت'. 'طيّب، قل ماذا فعل؟...'. 'أعاد إليّ النقود وقال: امض في رعاية الله، سلّم هذه الأشياء للبريد'. 'حسناً، وأنت؟'. 'أنا مذنب، يا أبت'. 'أنا سأعرف كيف أتعامل

(1) جنرال روسي أحرز عدّة انتصارات ضدّ السويديين عامي 1808 و1809.



معك يا تافه، قال الجنرال بصوت رهيب، 'أمّا أنتِ يا سيّدتِي فمُري أن يفتّشوا صندوق هذا المحتال، وسلّميني إيّاه كي ألقّنه درسًا. أنتِ تعرفين أنّ دوبروفسكي نفسه كان ضابطًا في الحرس، وهو لن يقبل أن يُساء إلى زميله'. حمّنت من يكون معاليه، ولم أكن بحاجة إلى الحديث معه عن ذلك. قام الحوذّيون بتقييد الوكيل إلى عربته. وجدنا النقود، وتناول الجنرال الغداء عندي ثم غادر على الفور مصطحبًا الوكيل معه. وفي اليوم التالي وجدوا وكيلِي في الغابة عاريًا كورقة تين ومقيّدًا إلى شجرة سنديان.

استمع الجميع إلى حديث آنا سافيشنا، ولا سيّما الآنسات. وكثيرات منهنّ تمنّين لدوبروفسكي الخير سرًّا، فقد رأوا فيه بطلًا رومانسيًا، وخصوصًا، ماريا كيريلوفنا، الحالمة ذات الخيال الجامح المتشرّبة بروايات رادكليف الممتلئة بالرعب الغامض.

- «أتظنّين يا آنا سافيشنا أنّ من كان عندك هو دوبروفسكي نفسه؟»، سأل كيريل بتروفيتش، «أنت، مخطّئة تمامًا. أنا لا أعرف من كان في ضيافتك، لكنّه ليس دوبروفسكي».

- كيف ليس دوبروفسكي يا أبتِ، ومن يكون، ذلك الذي يخرج إلى الطريق فيوقف المارّة ويفتّشهم، إن لم يكن هو؟

- لست أدري، لكنّه ليس دوبروفسكي بالتأكيد. أنا أتذكّره طفلًا. آنذاك كان فتى ذا شعر أجعد، فاتح اللون، أنا لا أعرف إن كان شعره قد اسودّ فيما بعد، لكنّي أعرف بالتأكيد أنّ دوبروفسكي يكبر ابنتي ماشا بخمس سنوات، فهو إذن، ليس في الخامسة والثلاثين، بل في حوالي الثالثة والعشرين.

- «هو كذلك بالضبط، يا صاحب المعالي»، صاح قائد الشرطة، «عندي، في جيبي أوصاف فلاديمير دوبروفسكي، وفيها مذكور بالضبط أنّ عمره ثلاثة وعشرون عامًا».

- «آها!»، قال كيرىلا بتروفيتش، «بالمناسبة، اقرأ لنا وسنسمعك، فمن المستحسن أن نعرف أوصافه، حتى لا يستطيع الفرار منّا إذا وقع بصرنا عليه».

أخرج قائد الشرطة من جيبه ورقة متسخة إلى حدّ كبير، فردّها بطريقة توحى بأهمّيّتها، وراح يقرأ بصوت منغمّ:

- أوصاف فلاديمير دوبروفسكي مدوّنة وفق إفادات الناس الذين كانوا في خدمته، العمر: 23 عامًا، القامة: متوسطة الطول، الوجه: نظيف، الذقن: حليقة، العينان: عسلّيتان، الشعر: فاتح اللون، الأنف: مستقيم، العلامات الفارقة: لا يوجد.

- «أهذا كلّ ما عندك؟»، سأل كيرىلا بتروفيتش.

- «هذا كلّ ما عندي»، أجاب قائد الشرطة وهو يطوي الورقة.

- أهنتك أيّها السيّد القائد. يا لروعة هذه الورقة! بهذه الأوصاف لن يصعب عليك العثور على دوبروفسكي. فمن منّا ليس معتدل القامة، ومن منّا شعره ليس فاتح اللون، ومن منّا أنفه غير مستقيم، ومن منّا عيناه ليستا عسلّيتين! أراهن أنّك قد تتحدّث ثلاث ساعات متواصلة مع دوبروفسكي نفسه، من دون أن تدرك مع من جمعك القدر. الحقّ أنّ ذكاء رؤوس موظّفيك أمر لا جدال فيه!

وضع قائد الشرطة الورقة بخنوع في جيبه، وشرع يأكل لحم الإوز المطبوخ مع الملفوف في صمت. وفي هذه الأثناء طاف الخدم على الضيوف عدّة مرّات يملؤون كؤوسهم. وفرقت سدّادات بعض زجاجات نبيذ «غورسكي» و«تسيمليانسكي» بصوت مرتفع، فعدّها الشاربون بطيب خاطر زجاجات شمبانيا، وبدأت الوجوه تحمّر، وصارت الأحاديث أعلى رنينا وأكثر تفكّكًا ومرحًا.

- «لا»، تابع كيرىلا بتروفيتش، «نحن لن نرى بعد اليوم قائدًا للشرطة مثل المرحوم تاراس أليكسييفيتش! كان رجلًا لا يطيش سهمه، لا يغفل

عن أمر. من المؤسف أنهم أحرقوا الفتى، لولا ذلك، لما أفلت من قبضته أحد من العصابة كلها، ولكان ألقى القبض عليهم جميعاً حتى آخر فرد منهم، ولأخفق حتى دوبروفسكي نفسه في الإفلات منه أو رشوته. تاراس أليكسييفيتش كان سيأخذ منه النقود طبعاً لو عرض عليه نقوداً، ولكنّه لن يطلق سراحه: هذه كانت عادة المرحوم. يبدو أنّه لا خيار أمامي، وأنّي سأضطرّ إلى معالجة هذا الأمر بنفسي وملاحقة قُطاع الطُّرق مع رجالي. سأجهّز في البداية نحو عشرين رجلاً، كي ينظفوا غابة اللصوص. سأنتقيهم من الشجعان، وأحدهم يجرؤ على مهاجمة دبّ بمفرده، ولا يخشى اللصوص».

- «هل دبّك بخير يا أبت كيريل بتروفيتش؟»، سأل أنطون بافنوتيتش، وهو يتذكّر الدبّ الأشعث الذي عرفه، وبعض المزحات التي كان هو ضحيّتها في وقت ما.

- «دبّي الحبيب ميشا، أطال الله عمرك»، أجاب كيريل بتروفيتش، «مات ميتة مجيدة بيد عدوّ. انظر إلى المنتصر عليه»، أشار كيريل بتروفيتش إلى دي فورج، «تأمل صاحبي الفرنسي. لقد انتقم لك... اسمح لي أن أقول؛ انتقم لـ... أتذكر؟».

- «وكيف لا أذكر؟»، قال أنطون بافنوتيتش وهو يحكّ رأسه، «أذكر ذلك جيّداً. هكذا، إذن، مات ميشا. يحزنني موت ميشا، يحزنني والله! لقد كان مزوحاً! كم كان ذكياً! إنّه دبّ لا مثيل له. لكن لماذا قتله المسيو؟».

راح كيريل بتروفيتش يتحدّث بمتعة عظيمة عن عمل رجله الفرنسي البطولي، لأنّه كان لحسن الحظّ يملك قدرة على التباهي بكلّ ما يحيط به. وأصغى الضيوف باهتمام إلى قصّة موت «ميشا» وهم ينظرون بإعجاب إلى دي فورج، الذي لم يكن يعرف أنّ الحديث يدور على شجاعته، فجلس في مكانه بهدوء يوجّه ملاحظات سلوكية لتلميذه الكثير الحركة.

الغداء الذي استمرَّ ثلاث ساعات انتهى. وضع ربُّ البيت منشفته على الطاولة فنهض الجميع، واتَّجهوا إلى الصلاة حيث كانت تنتظرهم القهوة وألعاب الورق ومواصلة الشرب الذي بدؤوه بدايةً مجيدة في قاعة الطعام.

## الفصل العاشر

في حوالي الساعة السابعة مساءً رغب بعض الضيوف في المغادرة، لكنَّ ربَّ البيت الذي أثار «البونش» مرحه، أمر بإغلاق البوابات وأعلن بأنَّه لن يسمح لأحد بالخروج قبل صباح اليوم التالي. وسرعان ما صدحت الموسيقى، وفُتحت أبواب الصالة وبدأت حفلة الرقص. جلس صاحب البيت والمقرَّبون منه في زاوية يشربون الكأس تلو الأخرى ويتأملون مرح الشباب. أمَّا العجائز فرحن يلعبن الورق. كان عدد الشباب الرجال، كما في كلِّ مكان لا تقيم فيه قطعة عسكرية، أقلُّ من عدد السيِّدات، وقد تمَّ تجنيد كلِّ الرجال الصالحين لهذا العمل، وتميَّز من هؤلاء جميعًا المعلِّم الذي رقص أكثر من الجميع، وكانت الأنسات يخترنه ويَرين أنَّ رقصة الفالس تكون معه أرشق بكثير. دار المعلِّم مع ماريا كيريلوفنا عدَّة دورات تلاحقهما ملاحظات الأنسات المازحة. وأخيرًا، في منتصف الليل تقريبًا، أوقف ربُّ البيت المتعب الرقص، وأمر بتقديم طعام العشاء، أمَّا هو فذهب للنوم.

أعطى غياب كيريل بتروفيتش الجماعة مزيدًا من الحرية والحيوية. فتجرَّأ الراقصون على الجلوس بجانب السيِّدات، وضحكت الأنسات وتهامسن مع جيرانهنَّ، وتبادلت السيِّدات الكلام عبر الطاولة بأصوات مرتفعة، وشرب الرجال، وتناقشوا، وقهقهوا... باختصار: كان العشاء مرحًا جدًّا، وترك في النفوس الكثير من الذكريات السارة.

رجل واحد لم يشترك في الفرح الشامل، هو أنطون بافنوتيتش الذي جلس عابسًا، صامتًا في مكانه، راح يأكل شارد الذهن. بدا قلقًا للغاية. لقد هيَّجت

الأحاديث عن قُطَاع الطُّرُق خياله. وسنرى سريعاً أن لديه سبباً كافياً للخوف منهم.

إنَّ أنطون بافنوتيتش لم يكن يكذب، ولم يأثم، حين دعا الربَّ ليكون شاهداً على أنَّ العلبة الحمراء فارغة! فالعلبة الحمراء كانت فارغة فعلاً، والنقود التي حُفِظت فيها ذات يوم، انتقلت إلى كيس جلدي يحمله على صدره تحت القميص. فقط ذلك العمل الاحترازي هو ما هدأ شكّه بالجميع وخوفه الدائم. أمّا الآن، وقد اضطر إلى المبيت في بيت غريب، فخاف أن يقوده للنوم في مكان ما في غرفة منعزلة يسهل على اللصوص التسلُّل إليها، لذا راح يبحث بعينه عن زميل يعتمد عليه، واختار أخيراً دي جورج. كان ما دفعه إلى هذا القرار مظهر دي جورج الموحى بالقوّة، والأكثر من ذلك، الشجاعة التي أظهرها عند مواجهة الدبّ الذي لم يكن أنطون بافنوتيتش المسكين يستطيع تذكُّره من دون أن يرتجف خوفاً. وحين غادر الضيوف المائدة، راح أنطون بافنوتيتش يحوم حول الفرنسي الشابّ وهو يتنحّج ويسعل، وأخيراً توجّه إليه مستوضحاً:

- إحم، إحم، ألا يمكنني يا مسيو أن أبيت في غرفتك، لأنّي، في الواقع...

- “Que désire monsieur?”<sup>(1)</sup>، سأله دي جورج وهو ينحني له بهتذيب.

- إيخ، يا للأسف، أنت يا مسيو لم تتعلّم الروسية بعد، جي في، موا، شي فو كوشي<sup>(2)</sup>، هل تفهمني؟

أجاب دي جورج:

- Monsieur, très volontiers. Veuillez donner des ordres en consequence.<sup>(3)</sup>

---

(1) ماذا تريد يا سيدي؟

(2) أريد أن أنام عندك.

(3) يشرفني ذلك سيدي... أصدر التعليمات المناسبة.

انطلق أنطون بافنوتيتش، الراضي جدًا عن معلوماته في اللغة الفرنسية، فورًا لإصدار تعليماته.

ودَّع الضيوف بعضهم بعضًا، وتوجَّه كلُّ منهم إلى الغرفة المخصَّصة لنومه، أمَّا أنطون بافنوتيتش فمضى مع المعلِّم إلى المبنى الملحوق. كانت الليلة دامية الظلام، فأضاء دي فورج الطريق بمصباح جيب، وتبعه أنطون بافنوتيتش بهمة عالية، وهو يتلمَّس من حين لآخر الكيس في عبئه، ليتأكَّد من أنَّ نقوده ما تزال معه. وصلا إلى المبنى الملحوق، فأشعل المعلِّم شمعة، وحين شرع الاثنان يخلعان ملابسهما راح أنطون بافنوتيتش يتجوَّل في الغرفة، يتفحص الأقفال والنوافذ، ويهزُّ رأسه غير مطمئنٍّ إلى نتائج فحصه. الباب يُغلق بمزلاج واحد، وليس للنوافذ إطار مزدوج. حاول أن يشكو الأمر لدي فورج، لكنَّ معرفته باللغة الفرنسية كانت محدودة جدًا بالقياس إلى ما يتطلَّبه توضيح هذا الأمر المعقَّد، لذا لم يفهم الفرنسي ما يقوله، أمَّا هو فاضطر إلى التخلِّي عن شكواه. سريرا هما كانا متقابلين، فرقد الاثنان، وأطفأ المعلِّم الشمعة.

- «بوركوا فو توشي، بوركوا فو توشي<sup>(1)</sup>»، صرخ أنطون بافنوتيتش، وهو يلفظ الفعل الروسي لفظًا ينسجم وقواعد اللغة الفرنسية، «أنا لا أستطيع دورمير<sup>(2)</sup> في العتمة».

لم يفهم دي فورج صرخته فتمنَّى له ليلة طيِّبة.

- «يا للأعجمي الملعون!»، قال سبيتسين متأفِّفًا، وهو يتدبَّر باللحاف، «ما حاجته إلى إطفاء الشمعة... إنَّ هذا أسوأ له. أنا لن أستطيع النوم من دون ضوء. يا مسيو، يا مسيو»، تابع بصوت مسموع، «جي في أفيك بارلي<sup>(3)</sup>».

---

(1) لماذا تطفئها، لماذا تطفئها؟

(2) أنام.

(3) أريد أن أتحدَّث إليك.

لكنَّ الفرنسي لم يُجب، وسرعان ما علا شخيره.

- «الشیطان الفرنسي يشخر»، قال أنطون بافنوتيتش في سرّه، «وأنا لا يخطر لي النوم في بال. قد يدخل اللصوص فجأة عبر الباب المفتوح، أو يتسلَّلون عبر النافذة، وهذا الشيطان لن توقظه حتى المدافع. مسيو، ها مسيو! ليأخذك الشيطان».

صمت أنطون بافنوتيتش، وقد عقلن الإعياء وبخار الخمرة مخاوفه، تدريجيًا، فراح يغالبه الناس، وسرعان ما تملَّكه النوم العميق تملُّكًا تامًّا. ثمَّة أمر غريب كان ينتظره عند يقظته، فقد شعر، وهو ما يزال تحت سيطرة النوم، أنَّ أحدهم يشدُّ بهدوء من ياقة قميصه. فتح أنطون بافنوتيتش عينيه فرأى أمامه في ضوء الصباح الخريفي الشاحب دي فورج. كان الفرنسي يمسك في إحدى يديه مسدَّس جيب، ويفكُّ بالأخرى الكيس الثمين. ذهل بافنوتيتش، وقال بصوت راعش:

- كيسكوسي، مسيو، كيسكوسي<sup>(1)</sup>؟

- «اصمت، اصمت»، أجابه المعلِّم بلغة روسية صافية، «اصمت وإلَّا هلكت. أنا دوبروفسكي».

---

(1) ما هذا يا سيِّد، ما هذا؟



## الفصل الحادي عشر

سنطلب الآن من القارئ أن يسمح لنا بتوضيح الأحداث الأخيرة في قصتنا التي لم تمكّننا الظروف السابقة من توضيحها.

في محطة -- في بيت الناظر الذي سبق لنا ذكره، جلس في إحدى الزوايا مسافر مظهره يدلّ على الاستسلام والصبر اللذين يتحلّى بهما موظّف من الطبقة الوسطى، أو أجنبي، أي أنّ الرجل لم يكن يملك نفوذًا على طريق السفر. وكانت عربته تقف في الفناء تنتظر التشحيم، وفيها حقيبة صغيرة تدلّ بوضوح على ضالة ثروته. لم يطلب المسافر لنفسه شايًا أو قهوة، بل راح ينظر عبر النافذة ويصفّر صفيّرًا أزعج زوجة الناظر الجالسة وراء الحاجز إزعاجًا شديدًا.

- «ها قد أرسل الله لنا مصفّرًا تيًّا!»، قالت بصوت منخفض، «إيخ، ما أكثر صفيّره، ليتّه ينفجر، هذا الأعجمي الملعون».

- «وما شأنك أنتِ؟»، قال الناظر، «ما المشكلة! دعيه يصفّر على هواه».

- «ما المشكلة؟»، اعترضت الزوجة غاضبة، «ألا تعرف العلامات المنذرة بالشؤم؟».

- «أية علامات؟ قولهم إنّ الصفيّر يذهب بالنقود. إيّه! يا بوخوموفنا، بيتنا خالٍ من النقود، سواء أصفّر فيه أم لم يصفّر».

- «ليتك تسفّره يا سيدوريتش. لا فائدة لك في بقائه. أعطه خيولًا وليذهب إلى الشيطان».

- «مهلاً، يا بوخوموفنا! ما عندي في الحظيرة سوى ثلاث ثلاثيات، الترويكّا الرابعة ترتاح. قد يأتي مسافرون ممتازون على غير توقّع. أنا

لا أريد أن أغامر برقبتي من أجل هذا الفرنسي. تشو! ها إنَّ ما تنبأتُ به يحدث! ها هم قادمون. إي - هي - هي، ما أسرع عدوهم! أيمن أن يكون القادم جنراً؟

توقفت العربية أمام المدخل. قفز الخادم عن المقود وفتح باب العربية، وبعد دقيقة دخل على الناظر شاب يرتدي معطفاً عسكرياً وقبعة بيضاء، تبعه خادم يحمل علبة وضعها على حافة النافذة.

- «أريد خيولاً»، قال الضابط بصوت آمر.  
- «حالا»، أجاب الناظر، «أعطني أمر المهمة من فضلك».  
- ليس لدي أمر مهمة. أنا أسافر إلى ناحية فرعية... ألم تعرفني؟  
اضطرب الناظر، واندفع يستعجل الحوذيين. وراح الشاب يمشي في الغرفة جيئة وذهاباً، ثم تجاوز الحاجز وسأل زوجة الناظر بصوت منخفض:  
- من هذا المسافر؟

- «الله وحده يعلم»، أجابت زوجة الناظر، «إنه فرنسي، وها قد انقضت خمس ساعات وهو ينتظر الخيول ويصفّر. لقد أضجرتني هذا الملعون».

خاطب الشاب ذلك المسافر بالفرنسية:

- «إلى أين أنت مسافر؟»، سألته.  
- «إلى أقرب مدينة»، أجاب الفرنسي، «ومن هناك سأسافر إلى إقطاعي استأجرتني غيائياً لأعمل معلماً. قد ظننت أنني سأصل اليوم إلى المكان، لكنَّ السيّد الناظر قرّر غير ذلك على ما يبدو. إنَّ الحصول على خيول في هذه المنطقة أمر صعب أيُّها السيّد الضابط».  
- «عند مَنْ مِنَ الإقطاعيين المحليين ستعمل؟»، سأل الضابط.  
- «عند السيّد ترويكوروف»، أجاب الفرنسي.  
- عند ترويكوروف؟ من هو هذا الترويكوروف؟

- mon officier، Ma foi...<sup>(1)</sup> قليلة هي الأمور الطيبة التي سمعتها عنه. يقولون إنه إقطاعي متعال، ذو مزاج خاص، قاس في معاملته مع العاملين عنده، ولا أحد يستطيع التعايش معه، وإنَّ الجميع يرتعشون حين يسمعون اسمه، وإنَّه لا يحترم المعلمين، وقد جلد اثنين منهم حتى الموت.

- رحماك! ومع ذلك قَرَرْتُ الذهاب للعمل عند هذا الوحش.  
- وما العمل يا سيدي الضابط. إنَّه يقترح منحي راتبًا جيّدًا؛ 3000 روبل في العام، ونفقات إقامتي. سأجرب، فقد أكون أفضل حظًا من الآخرين. إنَّ لديّ أمّا عجوزًا، سأرسل لها نصف راتبي لتأكل، أمّا المتبقي، فأستطيع أن أوفّر منه رأس مال صغيرًا يكفي لكي أعيش مستقلًّا، وأنّذاك، bonsoir<sup>(2)</sup>، سأسافر إلى باريس وأدخل سوق الأعمال التجارية.

- «هل يعرفك أحد في منزل ترويكوروف؟»، سأل الضابط.  
- «لا أحد»، أجاب المعلم، «لقد طلبني من موسكو عن طريق صديق له، طبّاخه ابن بلدي، وهو الذي رشّحني لهذا العمل. أريدك أن تعلم أنّي لم أكن أعد نفسي لأصبح معلّمًا، بل لأكون حلوائيًا، لكنّهم قالوا لي إنَّ لقب معلّم في بلادكم أفضل بكثير...»  
فكّر الضابط برهة.

- «اسمع»، قال للفرنسي مقاطعًا، «ماذا لو عرضوا عليك بدلًا من هذا المستقبل عشرة آلاف نقدًا، شريطة أن تعود فورًا إلى باريس». نظر الفرنسي إلى الضابط دهشًا، ثم ابتسم هازًا رأسه.  
- «الخيول جاهزة»، قال الناظر الذي دخل لتوّه، وأكّد الخادم قوله.

---

(1) في الحقيقة، سيدي الضابط.

(2) ليلة طيبة.

- «لحظة من فضلكما!»، قال الضابط، «اخرجنا من هنا لدقيقة».

خرج الناظر والخادم.

- «أنا لا أمزح»، تابع حديثه بالفرنسية، «10000 أستطيع أن أعطيك إيّاها، ولا أريد منك سوى رحيلك وأوراقك».

ثم فتح العلبة وأخرج منها عدّة رزم من النقود.

جحظت عينا الفرنسي. لم يعد يدري بماذا يفكر.

- رحيلي... أوراقي... أنت تمزح! ما حاجتك إلى أوراقي؟

- هذا ليس شأنك. أنا أسألك: هل توافق أم لا؟

مدّ الفرنسي يده بالأوراق للضابط الشابّ، وهو ما يزال غير مصدّق ما تسمعه أذناه، فأخذ الضابط الأوراق وتفحصها بسرعة.

- جواز سفر... هذا جيّد. رسالة توصية، سنراها. شهادة ميلاد، هذا رائع. حسناً، هاك نقودك، وارحل. وداعاً.

وقف الفرنسي وقد أصابه الجمود. التفت الضابط نحوه، وقال:

- لقد نسيْتُ أهمّ ما في الأمر. أعطني وعد شرف بأنّ كلّ هذا سيبقى سرّاً بيننا، أريد وعد شرف منك.

- «أعدك وعد شرف»، أجاب الفرنسي، «ولكن، أوراقي، كيف سأتصرّف من دونها؟».

- في أوّل بلدة تصل إليها، أخبرهم أنّ دوبروفسكي نهبك. سيصدّقونك ويعطونك الوثائق اللازمة. وداعاً، أتمنّى لك أن تصل سريعاً إلى باريس بعناية الربّ، وأن تجد أمك بخير وعافية.

خرج دوبروفسكي من الغرفة، جلس في عربته وانطلق.

أطلّ الناظر عبر النافذة، وحين غادرت العربة التفت إلى زوجته، وصاح:

- باخوموفنا، هل فهمت شيئاً؟ لقد كان هذا دوبروفسكي.

اندفعت زوجة الناظر في الحال نحو النافذة، لكنّ الوقت قد فات،

ودوبروفسكي صار بعيداً، فراحت توبّخ زوجها:

- أنت لا تخاف الله، يا سيدرويتش. لماذا لم تخبرني بذلك من قبل، لو فعلت لكان بإمكانني إلقاء نظرة على دوبروفسكي، أمّا الآن، فلا أحد يعلم كم سأنتظر مروره من هنا مرّة ثانية. أنت قليل الوجدان حقًا، أنت حقًا قليل الوجدان!

وقف الفرنسي جامدًا، ذاهلاً، وقد بدا له أنّ الاتفاق مع الضابط، والنقود وكلّ ما حدث مجرد حلم. لكنّ رزم النقود كانت هنا، في جيبه، تؤكّد له ببلاغة حقيقة الحدث المدهش.

قرّر استئجار خيول إلى المدينة، وقاد الحوذيّ العربية ببطء، فوصلاً ليلاً. قبل وصولهما إلى الحاجز، حيث ينتصب محرس متهدّم بدلاً من الحرس، أمر الفرنسي الحوذيّ بالتوقّف، ونزل من العربية، ثم مضى راجلاً، وأفهم الحوذيّ بحركات يديه أنّه يهديه العربية والحقيّة ليشرب بثمرهما الفودكا. ذهل الحوذيّ من كرمه، كما سبق أن ذهل الفرنسي من اقتراح دوبروفسكي، لكنّه استنتج من ذلك أنّ الأجنبي فقد عقله، فشكره بانحناء عميقة ورأى أنّه من غير الصواب أن يكمل طريقه إلى المدينة، فتوجّه إلى ملهى يعرفه ويعرف مالكة جيّداً. قضى هناك الليل كلّهُ، وفي صباح اليوم التالي عاد من حيث أتى بترويكّا عارية من دون عربية ومن دون حقيبة، وبوجه متورّم وعينين حمراوين.

بعد أن أخذ دوبروفسكي أوراق الفرنسي توجّه بشجاعة، كما سبق أن ذكرنا إلى ترويكوروف وأقام في بيته. وأيّاً كانت نواياه الخفيّة (نحن سنعرفها لاحقاً) فإنّ سلوكه كان خالياً من كلّ عيب. صحيح أنّه كان قليل الانشغال بتربية ساشا الصغير، بل أعطاه الحرّيّة التامّة في اللهو، ولم يكن يطالبه بحزمٍ بتحضير الوظائف، التي كان يكلفه بها للتّمويه فقط، لكنّه بذل جهداً كبيراً في تتبّع النجاحات الموسيقية لتلميذته، وكثيراً ما كان يجلس معها إلى البيانو ساعات بكاملها. وقد أحبّ الجميعُ المعلّم الشابّ، قد أحبّه كيريل بتروفيتش لشجاعته في الصيد، وأحبّته ماريا كيريلوفنا لما يبذله من جهد غير محدود، ولاهتمامه الخجول، وأحبّته ساشا لتسامحه مع عبثه، وأحبّته الخدم لطيبته وكرمه الذي كان

واضحًا أنه لا يتناسب ووضعه المادي. أمّا هو فبدا متعلّقًا بالأسرة كلّها، وبات يُعدُّ نفسه واحدًا من أفرادها.

مضى نحو شهر بين انتمائه لسلك التعليم، وزمن الاحتفال الشهير، من دون أن يشكَّ أحد بأنّ هذا الفرنسي الشابّ المتواضع هو قاطع الطرق الرهيب، الذي يزرع الفزع في نفوس الإقطاعيين في المنطقة كلّها. لم يغادر دوبروفسكي طول هذه المدة بوكروفسكويه، غير أنّ الإشاعات عن أعمال سطوه لم تهدأ، والفضل في ذلك لاختراعات خيال أهل الريف، وقد يعود إلى كون عصابته استمرّت في عملها حتى في غياب رئيسها.

حين قضى دوبروفسكي الليل في غرفة واحدة مع الرجل الذي يمكن أن يعدّه عدوّه الشخصي، وأحد المسؤولين الأساسيين عن مصيبيته، لم يستطع أن يقاوم إغراء الانتقام منه. كان يعرف بوجود كيس النقود وقرّر الاستيلاء عليه. وقد رأينا كيف أذهل أنطون بافنوتيتش المسكين بتحوّله من معلّم إلى قاطع طرق.

في الساعة التاسعة صباحًا، تجمّع الضيوف الذين قضوا الليل في بوكروفسكويه، واحدًا بعد الآخر في غرفة المعيشة، حيث كان السماور يغلي، وقد جلست أمامه ماريا كيريلوفنا في ثوب صباحي، أمّا كيريل بتروفيتش فكان يرتدي سترة من الكستور وحذاء منزليًا، وراح يشرب الشاي من كوب واسع الفوهة يشبه الطست. كان أنطون بافنوتيتش آخر الواصلين إلى الغرفة، وكان صاحب الوجه بادي الحزن، مظهره أدهش الجميع، وسأله كيريل بتروفيتش مستفسرًا عن صحّته، فأجابه سبتستين بكلام لا معنى له، وهو ينظر برعب إلى المعلّم الذي جلس هنا وكأنّ شيئًا لم يكن. بعد بضع دقائق دخل الخادم وأبلغ سبتستين أنّ عربته جاهزة، فأسرع أنطون بافنوتيتش يودّع الجميع، ورغم إلحاح ربّ المنزل على بقاءه، خرج من الغرفة مسرعًا وغادر على الفور. لم يفهم الحاضرون ما الذي أصابه، وقرّر كيريل بتروفيتش أنّ ضيفه أصيب بالتخمة. وسرعان ما خلت بوكروفسكويه، وعاد كلّ شيء إلى وضعه المعتاد، حين شرع بقيّة الضيوف بالمغادرة بعد الشاي والفظور الوداعي.

## الفصل الثاني عشر

انقضت أيام عدّة من دون أن يحدث شيء يُذكر. حياة سَكّان بوكروفسكويه كانت رتيبة. كيريللا بتروفيتش يخرج للصيد يوميًا، وتنشغل ماريا كيريللوفنا بالقراءة والنزهة والدروس الموسيقية بوجه خاصّ. وقد بدأت تفهم قلبها، فتعترف بأسى لا إرادي، أنّ قلبها ليس غير مبالٍ بمواهب الفرنسي الشاب. أمّا هو فلم يكن يخرج عن حدود الاحترام واللباقة الصارمة، وهذا ما طمأن كبرياءها وهذا الشكوك التي تبعث في نفسها الخوف، فراحت تستسلم باطمئنان أكبر فأكبر لعادتها الجذابة. كانت تكتئب في غياب دي فورج، وتنشغل به في كلّ لحظة حين يكون موجودًا، فتسأله رأيه في كلّ شيء، وتتفق معه في الرأي دائمًا. من المحتمل ألا تكون قد أحبّته بعد، ولكن كان من المحتمّ عند ظهور أوّل عقبة مصادفة، أو أي أمر مفاجئ يخبئه لها القدر، أن يشتعل في قلبها لهيب الهوى. وذات يوم، جاءت ماريا كيريللوفنا إلى الصالة حيث كان المعلّم ينتظرها، فلاحظت، دهشةً، الارتباك على وجهه الشاحب. رفعت غطاء البيانو وأنشدت عدّة نغمات، لكنّ دوبروفسكي اعتذر بحجّة صداع في رأسه، وقطع الدرس، ثم دسّ في يدها خلسة رسالة صغيرة، وهو يغلق كُرّاس النوتات الموسيقية. لم يتّسع لها الوقت كي تفكّر، أخذت الرسالة، وندمت في الوقت نفسه على فعلتها، لكنّ دوبروفسكي كان قد اختفى من الصالة. عادت ماريا كيريللوفنا إلى غرفتها وفتحت الرسالة، فقرأت ما يلي:

كوني اليوم في الساعة السابعة في الاستراحة عند الساقية  
من الضروري أن أتحدث معك.

أثار ذلك فضولها بقوة. لقد كانت تنتظر منذ زمن اعترافه لها بالحبّ، انتظارًا

تشوبه الرغبة والخوف، فقد كانت سُسْرُ لو سمعت تأكيد ما خَمَنَتْه تخمينًا، ولكنها كانت تشعر بأنه لا يليق بها أن تسمع مثل ذلك الاعتراف من رجل لا يستطيع، بحكم وضعه، أن يطلب يدها في يوم من الأيام. قَرَّرَتْ أن تذهب إلى الموعد، لكنها كانت مترددة، لا تعرف كيف ستستقبل اعتراف المعلم، أبغضبٍ أرسقراطي، أم بوعد بالصدقة، أم بنكات مرحة، أم بتعاطف صامت. ومع ذلك، كانت تنظر إلى الساعة لحظة بعد أخرى. حلَّ الظلام، وأشعلوا الشموع، وجلس كيريلًا بتروفيتش يلعب الورق مع الجيران الذين قدِموا لزيارته. دَقَّت ساعة قاعة الطعام السابعة إلَّا ربْعًا فخرجت ماريا كيريلوفنا بهدوء إلى مدخل المنزل، تأملت ما حولها في كلِّ الجهات، ثم ركضت إلى الحديقة.

كانت الليلة حالكة الظلام، والسماء تغطيها السحب، فلم يكن بمقدور المرء أن يرى شيئًا على بعد خطوتين، لكنَّ ماريا كيريلوفنا سارت في الظلام في الدروب التي تعرفها، وبعد دقيقة كانت في الاستراحة، فتوقَّفت هناك، كي تلتقط أنفاسها، وتظهر أمام دي جورج بمظهر اللامبالي، وغير المستعجل. لكن دي جورج ظهر أمامها قبل أن تفعل ذلك.

- «أشكرك لأنك لم ترفضني طلبِي»، قال لها بصوت منخفض وحزين،  
«لقد كنت سأصاب باليأس لو لم تلبي رجائي».

فأجابته ماريا كيريلوفنا بعبرة أعدتها مسبقًا:

- أرجو ألا تجعلني أندم على تسامحي.

ظلَّ صامتًا، وبدا أنه يستجمع عزمته.

- «الظروف تتطلب... أنا يجب أن أتركك»، قال أخيرًا، «قد تسمعين قريبًا...

ولكن يجب عليّ، قبل الفراق، أن أشرح، أنا نفسي، الأمر لك...»

لم تُجب ماريا كيريلوفنا بشيء، فقد ظنَّت أن هذه الكلمات مقدّمة للاعتراف المنتظر.

- «أنا لست من تظنّين»، تابع مطرق الرأس، «أنا لست الفرنسي دي جورج، أنا دوبروفسكي».



- لا تخافي، أستحلفك بالله، يجب ألا تخافي اسمي. أنا هو ذلك البائس الذي حرمه أبوك من قطعة الخبز، وطرده من بيت أبيه، ورماه على الطرقات كي يسطو على الناس. لكن، يجب ألا تخافي على نفسك أو على أهلك. الآن انتهى كل شيء. وأنا سامحته. اسمعي، أنت أنقذته. لقد قرّرت أن يكون ضحيّة أوّل عمل دموي أقوم به. طُفْتُ بالقرب من المنزل محدّدًا المكان الذي يجب أن تشتعل فيه النار، والطريق الذي سأسلكه إلى غرفة نومه، والطريقة التي سأسُدُّ فيها أمامه كلّ سبل الهرب. وفي هذه الأثناء مررت أنت بقربي كطيف سماوي، فهذا قلبي، وأدركتُ أن البيت الذي تعيشين فيه مقدّس، وأنّ لعنتي ينبغي ألا تُصيب أيّ كائن يرتبط بك برباط الدم. تخلّيت عن الانتقام بوصفه جنونًا، وقضيت أيامًا كاملة أهيّم حول حدائق بوكروفسكويه، أملًا أن أرى ثوبك الأبيض لو من بعيد. وصرتُ أتتبعك في نزهاتك الجريئة وأتنقّل متخفّيًا من خميلة إلى أخرى، سعيدًا بفكرة أنني أحملك، وبأنّه لا خطر عليك هناك حيث أوجد سرًّا. وأخيرًا سنحت لي الفرصة، فأقمت في بيتكم. لقد كانت هذه الأسابيع الثلاثة أيام سعادتي. وستكون ذكراها بهجة حياتي الحزينة... اليوم تلقيت خبرًا بعده صار بقائي هنا مستحيلًا. أنا سأفارقكم... في هذه الساعة... لكن، كان من واجبي أن أصارحك قبل ذلك، حتى لا تلعنيني أو تحتقريني. فكّري أحيانًا في دوبروفسكي، واعرفي أنّه خُلِق لمصير غير هذا، وأنّ روحه عرفت كيف تحبُّك، وأنّه أبدًا لن...

حينذاك، تردّد صغير خفيف، فصمت دوبروفسكي وأمسك يدها وضغطها على شفّتيه الملتهيتين. وتكرّر الصغير.

- «سامحيني»، قال دوبروفسكي، «إنّهم ينادونني، قد تقتلني دقيقة تأخير».

ابتعد، وبقيت ماريا كيريلوفنا واقفة جامدة، في مكانها.

عاد إليها دوبروفسكي وأمسك يدها من جديد.

- «هل تعديني بأنك إذا أصابتك في يوم من الأيام مصيبة»، قال لها بصوت مؤثر رقيق، «ولم تنتظري من أحد المساعدة أو الحماية، ستلجئين إليّ، وستطلبين مني فعل أي شيء لإنقاذك؟ هل تعديني بأنك لن ترفضي إخلاصي لك؟».

بكت ماريا كيريلوفنا في صمت. وتردّد الصفير مرّة ثالثة.

- «أنت تقتليني!»، صاح دوبروفسكي، «أنا لن أتركك ما لم تعطيني الجواب. هل تعديني أم لا؟».

- «أعدك»، أجابت الجميلة المسكينة.

عادت ماريا كيريلوفنا التي أفلقها لقاء دوبروفسكي، من الحديقة، فبدا لها أنّ الناس كلّهم يتراکضون، وأنّ المنزل في حركة، في الفناء كثير من الناس، وعند المدخل تقف ترويكّا، وتناهى إلى سمعها من بعيد صوت كيريلّا بتروفيتش، فأسرعت في الدخول إلى الغرف، خشية أن ينكشف أمر غيابها. التقاها كيريلّا بتروفيتش في الصالة، وكان الضيوف يحيطون بقائد الشرطة، الذي تعرّفنا عليه سابقاً، وراحوا يمطرونه بالأسئلة. أمّا قائد الشرطة فكان في لباس العمل، مسلّحاً من الرأس حتى القدم، وكان يسبغ على إجاباته طابع السريّة والاستعجال.

- «أين كنت يا ماشا؟»، سأله كيريلّا بتروفيتش، «ألم تلتقي مسيو دي فورج؟».

أرغمت ماشا نفسها على إجابته بالنفي.

- «تخيّلني!»، تابع كيريلّا بتروفيتش كلامه، «لقد جاء قائد الشرطة للقبض عليه، وهو يؤكّد لي أنّه دوبروفسكي نفسه».

- «كلّ الأوصاف تنطبق عليه يا صاحب المعالي»، قال قائد الشرطة بلهجة تنم على الاحترام.

- «إيه يا أخي»، قاطعه كيريل بترفيتش، «فلتذهب أنت وأوصافك إلى حيث تعرف. أنا لن أسلمك صاحبي الفرنسي إلا بعد أن أقوم أنا نفسي بدراسة القضية. كيف يُمكنك أن تصدّق كلام أنطون بافوتيتش، الجبان، الكذّاب؟ لا بدّ من أنّه رأى في منامه أنّ المعلّم أراد سلبه ماله. لماذا لم يقل لي كلمة واحدة بهذا الشأن في ذلك الصباح؟».
- «لقد أخافه الفرنسي يا صاحب المعالي»، أجاب قائد الشرطة، «وأخذ منه عهدًا بالصمت»...
- «هذا كذب»، حسم كيريل بترفيتش الأمر، «الآن سأكشف كلّ شيء. أين هذا المعلّم؟»، سأل خادمًا دخل لتوّه.
- «لم نجده في أي مكان»، أجاب الخادم.
- «إذن، ابحثوا عنه وجدوه!»، صرخ ترويكوروف الذي بدأ الشكّ يساوره، «أرني أوصافك التي تتباهى بها»، قال لقائد الشرطة الذي أعطاه الورقة على الفور، «هم، هم، 23 عامًا... هذا لا يكفي للبرهان على شيء. أين المعلّم؟».
- «لم نعثر عليه»، جاءه الجواب ثانية.
- بدأ كيريل بترفيتش يشعر بالقلق، أمّا ماريا كيريلوفنا فبدت كأنّها بين الحياة والموت.
- «أنت شاحبة يا ماشا»، قال والدها، «لقد أخافوك».
- «لا يا بابا»، أجابت ماشا، «أنا أشعر بصداع».
- اذهبي يا ماشا إلى غرفتك ولا تقلقي.
- قَبِلَت ماشا يده وذهبت سريعًا إلى غرفتها، ارتمت على السرير وأجهشت بالبكاء في نوبة هستيرية. ركضت إليها الخادמות، نزعن عنها ملابسها، وبصعوبة استطعن تهدئتها بالماء البارد وشَتَّى المهدئات، ثم مددنها في السرير، فراحت في نوم عميق.
- لم يعثروا على الفرنسي في هذه الأثناء، وصار كيريل بترفيتش يمشي جيئة

وذهابًا في الصالة، وهو يصفرُّ بغضب لحن «زمجريا رعد الانتصار»، وتهامس الضيوف فيما بينهم. بدا قائد الشرطة خائبًا، لم يجدوا الفرنسي، من المحتمل أن يكون أحدهم أخبره، فهرب. ولكن، من، وكيف؟ لقد ظلَّ ذلك سرًّا. كانت الساعة الحادية عشرة، ولم يكن هناك من يفكر في النوم. وفي نهاية المطاف قال كيريلًا بتروفيتش لقائد الشرطة بلهجة غاضبة:

- «ماذا تريد؟ أنت لن تبقى هنا حتى الفجر، بيتي ليس تكيّة، أنت لست على قدر كافٍ من الذكاء لإلقاء القبض على دوبروفسكي، إن كان هذا دوبروفسكي حقًّا. عُدْ من حيث أتيت، وكن في المستقبل أعلى همّة، وأنتم عودوا إلى بيوتكم»، قال مخاطبًا الضيوف، «مُروا الخدم أن يُعِدُّوا العربات، أمّا أنا فأريد أن أنام».

بهذا الجفاء ودّع ترويكوروف ضيوفه!

## الفصل الثالث عشر

مضى بعض الوقت من دون أن يقع أيُّ حدث لافت. لكن، في أوائل الصيف التالي، حدثت تغيّرات كبيرة في حياة كيريل بتروفيتش العائلية. على بعد ثلاثين فرسخًا من منزله كانت مزرعة الأمير فيرييسكي الغنيّة. لقد قضى الأمير زمنًا طويلًا في بلاد الغرب، وكان يدير أملاكه كلّها رائد متقاعد، ولم تقم أيّة علاقات بين بوكروفسكويه وأرباطوفو في أثناء ذلك. لكنَّ الأمير عاد في أواخر شهر أيار (مايو) من الخارج وجاء إلى قريته التي لم يرها من قبل أبدًا. غير أنّه، وهو الذي اعتاد على التسلية واللهو، لم يستطع احتمال العزلة، وفي اليوم الثالث بعد رجوعه توجّه لتناول الغداء عند ترويكوروف الذي كان قد تعرّف إليه في يوم ما.

كان الأمير في نحو الخمسين من عمره، لكنّه بدا أكبر من سنّه بكثير. فشّئ أنواع الإفراط أضعف صحّته وترك فيه آثارًا لا تنمحي. ورغم ذلك، كان مظهره لطيفًا ولافتًا، فقد أضفّت عليه عادة التواجد الدائم بين الناس نوعًا من اللطف لا سيّما مع النساء. لقد كان يشعر دائمًا بالحاجة إلى التسلية لكنه يضجر باستمرار. استقبل كيريل بتروفيتش زيارته بسرور بالغ وعدّها علامة احترام من إنسان يعرف المجتمع. وصار، بحسب عادته، يكرّمه بالطواف به على منشآت مزرعته، فقادّه إلى حظيرة الكلاب. غير أنّ الأمير، ما أن اقترب من جوّ الكلاب حتى كاد يختنق، فسارع إلى الخروج من الحظيرة سادًا أنفه بمنديل معطر، ولم تعجبه الحديقة المعمرّة بصفصافها المشدّب، وبركتها المربّعة ودروبها المستقيمة، فهو يحبُّ الحقائق الإنجليزية، وما يسمّونه بـ «الطبيعة الحرّة»، غير

أنه امتدح ما رآه وعبر عن إعجابه به. ثم جاء الخادم يعلن أن المائدة جاهزة، فذهبوا إلى الغداء، وقد تعب الأمير من النزهة، فصار يعرج في مشيته، وبات نادمًا على زيارته.

لكن ماريا كيريلوفنا استقبلتهم في الصالة، فصُعق زير النساء العجوز بجمالها. أجلس ترويكوروف ضيفه إلى جانبها، فانتعش الأمير بوجودها وتملكه المرح، واستطاع عدة مرّات أن يجتذب اهتمامها بأحاديثه المشوقة.

بعد الغداء اقترح كيريل بتروفيتش على ضيفه نزهة على الخيل. اعتذر الأمير مشيرًا إلى جزمته المخملية ومازحًا بشأن مرض النقرس الذي يعاني منه، وفضّل نزهة في العربة كي لا يتعد عن جارته اللطيفة. أخرجوا العربة. وجلس العجوزان والحسناء، ثلاثهم، فيها وانطلقوا. لم يتوقّف الحديث فيما بينهم. واستمعت ماريا كيريلوفنا بسرور إلى مجاملات رجل المجتمع الراقي المتملّقة المرحّة. وفجأة توجه فيرييسكي إلى كيريل بتروفيتش وسأله عن ذلك البناء المحترق وعمّا إذا كان من أملاكه؟ عبس كيريل بتروفيتش، فالذكريات التي يثيرها فيه الحديث عن البيت المحترق لم تكن تسرّه، وأجابه أن الأرض ملكه الآن، وأنها كانت من قبل ملكًا لدوبروفسكي.

- «دوبروفسكي!»، كزّر فيرييسكي، «كيف؟ هل كانت ملكًا لقاطع الطرق المشهور؟».

- «لا، كانت لأبيه»، أجاب ترويكوروف، «الأب كان قاطع طرق معتبرًا أيضًا، على كلّ حال».

- وأين هو هذا الرينالدو الآن، هل ما زال حيًّا؟ هل قبضوا عليه؟  
- إنّه حيّ، وطلق، ولن يقبضوا عليه، ما دام قادة الشرطة واللصوص شركاء،

بالمناسبة، قل لي أيّها الأمير، ألم يسطّ دوبروفسكي على أرباطوفو؟  
- بلى، سطا عليها في العام الماضي على ما أظنّ، أشعل فيها الحرائق أو نهبها... قولي الحقّ يا ماريا كيريلوفنا، ألا تثير الفضول الرغبة في معرفة هذا البطل الرومانتيكي عن قرب؟

- «ولماذا الفضول؟»، قال ترويكوروف، «إنها تعرفه، فقد درّسها الموسيقى ثلاثة أسابيع كاملة، من دون أن يتقاضى أجرًا عن الدروس والحمد لله!».

هنا بدأ كيريل بترفيتش يروي قصّته عن المعلّم الفرنسي. فشعرت ماريا كيريلوفنا كما لو أنّها تجلس على إبر. أمّا فيرييسكي فأصغى باهتمام عميق، فوجد أنّ كلّ ذلك غريب للغاية، وغير مجرى الحديث. وحين عادوا من نزهتهم أمر أن يجيئوه بعربته، ورغم إلحاح كيريل بترفيتش الشديد عليه بالمبيت في ضيافته، غادر فور انتهائهم من شرب الشاي، لكنّه، قبل ذلك، طلب من كيريل بترفيتش أن يزوره بصحبة ماريا كيريلوفنا، فوعده ترويكوروف المعتقد بنفسه بتلبية الدعوة معتبرًا أنّ المكانة الأميرية والنجمتين والثلاثة آلاف نفس التي يملكها الأمير فيرييسكي تجعله ندًا له.

بعد يومين من هذه الزيارة، توجه كيريل بترفيتش بصحبة ابنته لزيارة الأمير فيرييسكي، ولم يستطع وهو يقترب من أرباطوفو إلّا أن يتأمّل بإعجاب بيوت الفلاحين النظيفة المرحّة، وبيت المالك الحجري المبنى على طراز القصور الإنجليزية. ثمّة مرج أخضر كان يمتدّ أمام المنزل، ترعى فيه بقرات سويسريات ترنّ الأجراس في رقابها، وحديقة واسعة تحيط بالمنزل من الجهات كلّها. استقبل المالك ضيفه عند المدخل، ومدّ يده للحساء الشابة كي تتكئ عليها. دخل الجميع إلى صالة رائعة تتوسطها مائدة أعدت لثلاثة أشخاص. وقاد الأمير ضيفه إلى النافذة، ففتح أمامهما مشهد أخاذ. نهر الفولغا يجري أمام النوافذ تسير فيه العوامات المحمّلة بأشرعتها المفرودة للريح، وتلوح قوارب الصيادين التي يطلقون عليها اسم «مهلكة الأرواح» المعبرّ للغاية. وخلف النهر تمتدّ الروابي والحقول، وثمّة عدد من القرى يُضفي الحياة على المشهد. بعد ذلك انشغل صاحب المنزل وضيّافه بمشاهدة اللوحات التي اشتراها الأمير في بلاد الاغتراب. فقام الأمير بتوضيح محتوياتها المختلفة وسير الفنّانين لماريا كيريلوفنا، مشيرًا إلى مزايا تلك اللوحات وعيوبها. لم يكن يتحدّث عن اللوحات بلغة العارف المتحدّق

الاصطلاحية، بل بعاطفة وخيال، جعلاً ماريّا كيريللوفنا تستمتع بالاستماع له. ثم انتقلوا إلى المائدة، فكان ترويكوروف محققاً تماماً في ثنائه على مجموعة خموره، ومهارة طاهيه. أمّا ماريّا كيريللوفنا فلم تشعر بأيّ ارتباك أو تكلف في التحدّث إلى شخص كانت تراه للمرّة الثانية فقط في حياتها. بعد الغداء، اقترح صاحب المنزل على ضيفيه نزهة في الحديقة، وهناك شربوا القهوة في استراحة على ضفّة بحيرة واسعة، تزدحم بالجُزر. وفجأة صدحت موسيقى من آلات نفخ، ورسا قارب بستّة مجاذيف أمام الاستراحة بالضبط. جالوا في البحيرة، بالقرب من الجُزر، وزاروا بعضها، فوجدوا في واحدة منها تمثالاً من المرمّر، ووجدوا في أخرى كهفًا منعزلاً، وفي جزيرة ثالثة رأوا نصباً تذكاريّاً عليه كتابة غامضة أثارت فضول العذارى لدى ماريّا كيريللوفنا، الذي لم تُشبعه تماماً شروح الأمير وتلميحاته المهذّبة. انقضى الوقت بسرعة وبدأ الظلام يتسلّل. واستعجل الأمير بحجّة الرطوبة والندى العودة إلى المنزل، حيث كان السماور في انتظارهم. وطلب الأمير من ماريّا كيريللوفنا أن تدير الأمور في بيته هو العازب العجوز. صبّت الشاي، وهي تستمع إلى الكثير من حكايات مضيفهما الثرثار اللطيف، وفجأة سُمع إطلاق نار، وأضاء شهاب عتمة السماء، فقدّم الأمير لماريّا كيريللوفنا شالاً، ودعاها، هي وترويكوروف، إلى الشرفة. كانت الأضواء المختلفة الألوان تشتعل أمام المنزل، تدور، ترتفع إلى أعلى سنابل وأشجار نخيل ونوافير، ثم تنهمر مطراً من نجوم، تنطفئ ثم تشتعل من جديد. فرحت ماريّا كيريللوفنا بذلك كالأطفال. وأبهج الأمير فيريسكي أنّ ذلك أعجبها. أمّا ترويكوروف فكان مسروراً إلى أقصى الحدود لأنّه عندّ tous les frais<sup>(1)</sup> من قبل الأمير علامات احترام له، ورغبة في إرضائه.

لم يكن العشاء في بذخه أقلّ من الغداء في شيء. بعد ذلك توجّه الضيفان إلى الغرفتين المخصّصتين لهما، وفي صباح اليوم التالي ودّعا مضيفهما اللطيف، وتبادلا معه الوعد بلقاء جديد قريب.

(1) كل هذا البذخ.



## الفصل الرابع عشر

كانت ماريا كيريلوفنا تجلس في غرفتها تطرّز بالإبرة أمام النافذة المفتوحة. لم تخطئ في حياكة خيوط الحرير، كما فعلت عشيقه كونراد التي حاكت الوردة بخيوط خضراء بسبب شرودها في التفكير بحبيبها. كانت الكانفا تحت إبرتها تكرر من دون خطأ رسوم الأصل، على الرغم من أن أفكارها لم تكن تتابع عملها، بل كانت تسرح بعيدًا.

وفجأة، امتدّت يد إلى حافة النافذة بهدوء، ووضع أحدهم فوق الطارة رسالة ثم اختفى قبل أن تستطيع ماريا كيريلوفنا إدراك ما حدث. وفي هذه الأثناء بالضبط دخل عليها خادم ودعاها للذهاب إلى كيريل بتروفيتش، فأخفت الرسالة بيد مرتعشة تحت منديل رأسها وأسهرت إلى أبيها في مكتبه. لم يكن كيريل بتروفيتش وحيدًا. كان الأمير فيرييسكي جالسًا عنده. وحين ظهرت ماريا كيريلوفنا وقف الأمير وانحنى لها في صمت وقد بدا مضطربًا على غير عادته.

- «تعالى يا ماشا»، قال كيريل بتروفيتش، «سأقول لك خبرًا أمل أن يُفرحك. ها قد جاءك عريس، الأمير أتى يخطبك».

جمدت ماشا، وغطى وجهها شحوب الموت. ظلّت صامته، فاقترب منها الأمير وأمسك يدها وسألها وقد بدا عليه التأثر، إن كانت توافق على إيساعده. ظلّت ماشا صامته.

- «موافقة، طبعًا، موافقة»، قال كيريل بتروفيتش، «لكنك تعرف، أيّها الأمير، أن البنات يجدن صعوبة في لفظ هذه الكلمة. هيّا يا ولديّ تبادلّا القبل، وكونا سعيدين».

ظَلَّتْ ماشا واقفة من دون حراك، أمّا الأمير فقَبَّلَ يدها، وفجأة انهمرت دموعها على وجهها الشاحب، فعبس الأمير قليلاً.

- «هَيَّا، اذهبي، اذهبي، اذهبي»، قال كيريل بتروفيتش، «جفّفي دموعك وعودي إلينا مرحلة يا صغيرتي. إنهنَّ يبكين حين يُخطبن»، تابع كلامه مخاطبًا فيريسكي، «هكذا هي عادتهنَّ... لتكلّم أيّها الأمير في الموضوع، أعني: البائنة».

استغلّت ماريا كيريللوفنا بلهفة السماح لها بالمغادرة. هرعت إلى غرفتها، وأغلقت الباب وأطلقت العنان لدموعها متخيّلة نفسها زوجة للأمير العجوز الذي بدا لها فجأة مُقرِّفاً وكريهاً... لقد أخافها الزواج، كأنّه المشنقة، كأنّه القبر... - «لا، لا»، كرّرت يائسة، «أفضّل الموت، أفضّل الدير، أفضّل اللحاق بدوبروفسكي».

حينئذ، تذكّرت الرسالة فسارعت تقرأها بلهفة يساورها شعور بأنّها منه. وقد كانت منه فعلاً، وفيها فقط الكلمات التالية:  
مساء، في الساعة العاشرة، في المكان نفسه.

مكتبة  
t.me/t\_pdf

## الفصل الخامس عشر

القمر يضيء، والليلة التُمُوزِيَّة هادئة، والنسيم يهبُّ من فترة لأخرى، وهسيس خافت يسري في الحديقة كلّها.

اقتربت الحسناء الشَّابَّة كظُلَّ خفيف من المكان المحدّد للقاء. فبدا لها أنّه ما من أحد هناك بعد، وفجأة، صار دوبروفسكي أمامها خارجًا من وراء الاستراحة.

- «أنا أعرف كلّ شيء»، قال لها بصوت منخفض حزين، «أنت تذكرين وعدك لي».

- «أنت تقترح عليّ حمايتك»، أجابت ماشا، «لكن لا تغضب: إنّها تُخيفني. يحيرني كيف ستقدّم لي المساعدة».

- «أستطيع أن أخلّصك من هذا الشخص الكريه».

- «لا تلمسه بحقّ الإله، إيّاك أن تؤذيه، إذا كنت تحبّني. أنا لا أريد أن أتسبّب بأيّ عمل فظيع...»

- «أنا لن أمتّه بسوء، رغبتك مقدّسة عندي. إنّهُ مدين لك بحياته. لن أرتكب شرًا باسمك أبدًا. أنت يجب أن تظليّ مُطهّرة حتى من جرائمى. ولكن كيف أستطيع إنقاذك من أبيك القاسي القلب؟»

- «ما زال هناك أمل. أنا آمل أن أوثر فيه بدموعي ويأسي. إنّهُ عنيد، ولكنّه يحبّني كثيرًا».

- «عبثًا تأملين! إنّهُ لن يرى في دموعك سوى الخوف والنفور العادي الذي تشعر به الفتيات حين يتزوّجن من دون حبّ. لنحسب الأمور بالعقل: ماذا لو وضع في رأسه أن يصنع سعادتك رغمًا عنك، إذا

قادك بالقوة إلى تحت الإكليل، كي يسلم مصيرك إلى سلطان رجل عجوز؟

- عند ذاك، لن يكون في اليد حيلة، تعال، تعال لتأخذني، وسأكون زوجتك.

اضطرب دوبروفسكي، وغطت وجهه الشاحب حمرة قانية، ثم عاد في اللحظة نفسها فصار أشد شحوباً من السابق. وصمت طويلاً وهو مطرق الرأس.

- استجمعي قواك الروحية كلها، توسلي لأبيك، ارتمي عند قدميه، صوري له كل فظاعة المستقبل، وشبابك الذي سيدبل بالقرب من عجوز متهتك، أقدمي على توضيح الأمور بلهجة قاسية: قللي له إنك ستلجئين إلى حماية فظيعة إذا استمر في عناده... قللي له، إن البذخ يعزّي الفقراء فقط، وللحظة واحدة، لأنهم لم يعتادوا عليه. لا تركيه يهدأ. لا تخافي من غضبه، أو من تهديداته، أو ترددي بحق الإله، ما دام هناك ظل من أمل. أمّا إذا استنفدت الوسائل كلها ولم يبق غير هذه الوسيلة...

هنا غطى دوبروفسكي وجهه بيديه وبدا كما لو كان يختنق.  
بكت ماشا...

- «يا لحظي التعيس، التعيس»، قال وهو يتنهد بحسرة، «لقد كنت مستعداً لتقديم حياتي ثمناً لرؤيتك من بعيد، لمس يديك كان بالنسبة إليّ نشوة عارمة. والآن، حين أتحت لي إمكانية أن أضمك إلى قلبي الخفّاق، وأقول: يا ملاكي، أذهب إلى الموت! يا لي من مسكين، أنا مجبر على تجنب هذه المتعة، يجب أن أبعداها عني بكلّ قواي. أنا لا أجرؤ على الارتقاء عند قدميك، شاكرًا السماء على هذه المكافأة التي لا أفهمها ولا أستحقّها. أوه، كم يجب عليّ أن أكره ذلك... لكنني أشعر أنّه لم يعد في قلبي الآن مكان للكراهة».

عانق قوامها الرشيّق بهدوء، وبهدوء جذبها نحو قلبه، فأسندت رأسها  
باطمئنان إلى كتف قاطع الطريق الشابّ، وظلّ الاثنان صامتين. طار الوقت.

- «آن لي أن أذهب»، قالت ماشا أخيرًا.

وبدا كما لو أنّ دوبروفسكي أفاق من غيبوبة. أخذ يدها ووضع خاتمًا في  
إصبعها. قال لها:

- أحضري هذا الخاتم إلى هنا، وضعيه في تجويف شجرة السنديان هذه

إذا قرّرت اللجوء إليّ. وأنا سأعرف كيف أتصرّف.

ثم قبّل دوبروفسكي يدها واختفى بين الأشجار.

## الفصل السادس عشر

لم تبقَ خطبة الأمير فيرييسكي خافية على الجيران، فراح كيرىلا بتروفيتش يتلقَّى التهاني، وجرت الاستعدادات للعرس. كانت ماشا تؤجِّل الموعد الحاسم يومًا بعد يوم. وفي هذه الأثناء كان تعاملها مع خطيبها العجوز باردًا ومتصنِّعًا. لم يهتمَّ الأمير لذلك، فهو لم يكن يسعى إلى الفوز بحبِّها، وكان راضيًا بقبولها الصامت.

لكنَّ الوقت كان يمضي، وقزَّرت ماشا، أخيرًا، أن تفعل شيئًا، فكتبت للأمير فيرييسكي رسالة حاولت فيها أن توقظ في قلبه مشاعر السموِّ الروحي، واعترفت صراحة بأنَّها لا تشعر بأيِّ ميل إليه مهما ضؤل، ورجته أن يتخلَّى عن طلب يدها، وأن يحميها من سلطة أبيها. سلَّمت الرسالة بشكل غير ملحوظ للأمير فيرييسكي، فقرأها على انفراد، ولم يتأثَّر أبدًا بصراحة عروسه، بل إنَّه، على العكس من ذلك، رأى أنَّ من الضروري الإسراع بالعرس، وقدَّر أنَّ عليه من أجل ذلك أن يُري الرسالة لحميه المقبل.

استشاط كيرىلا بتروفيتش غضبًا، وأرغمه الأمير بصعوبة ألاَّ يُظهر لماشا أنَّه يعرف بأمر رسالتها. وافق كيرىلا بتروفيتش على ذلك، لكنَّه قرَّر عدم إضاعة الوقت، فحدَّد موعد العرس في اليوم التالي. وقد وجد الأمير أنَّ الموعد معقول جدًّا، وذهب إلى عروسه وقال لها إنَّ الرسالة أحرزته، لكنَّه يأمل أن يظفر بتعلُّقها به بمرور الزمن، وإنَّ فكرة التخلِّي عنها صعبة جدًّا على نفسه، فهو لا يستطيع الموافقة على الحكم بإعدامه. وبعد ذلك قَبَّل يدها باحترام، وغادر من دون أن يقول أيَّة كلمة بشأن قرار كيرىلا بتروفيتش.

لكن، ما إن خرج من الفناء، حتى دخل عليها أبوها وأمرها مباشرة أن تكون جاهزة في صباح الغد. ارتمت ماريا كيريلوفنا المتوترة بسبب ما قاله الأمير فيرييسكي، على قدمي أبيها غارقة بدموعها.

- «يا بابا»، صرخت متضرعة، «يا بابا، لا تقتلني! أنا لا أحب الأمير، أنا لا أريد أن أكون زوجة له»...

- «ما معنى ذلك»، قال كيريل بتروفيتش بصوت مرعب، «لقد كنت

صامته حتى الآن، وكنت موافقة، أما الآن، وبعد أن تقرّر كل شيء، صرت تتذمّرين، وترفضين. لا تتحامي معي، فهذا لن يُكسبك شيئاً.

- «لا تقتلني»، كرّرت ماشا المسكينة، «لماذا تبعدني عنك وتعطيني

لرجل لا أحبه؟ هل ضجرت مني؟ أنا أريد أن أبقى معك كما كنّا. من دوني ستغدو حزيناً يا بابا، وستكون أشدّ حزناً حين ستفكر أنني غير

سعيدة، لا تُرغمني يا بابا على ذلك، أنا لا أريد أن أتزوّج»...

تأثّر كيريل بتروفيتش بكلامها، لكنّه أخفى ارتباكها، ودفعها عنه قائلاً

بقسوة:

- كلّ هذا هراء، افهمي ذلك. أنا أكثر معرفة منك بما تحتاجين إليه كي

تكوني سعيدة. الدموع لن تنفعك، بعد غدٍ سيكون يوم زفافك.

- «بعد غد!»، صاحت ماشا، «يا إلهي! لا، لا، هذا مستحيل، هذا لن

يكون. اسمعني يا بابا: إذا كنت قرّرت قتلي، فسوف أجد من يدافع

عني، إنّه شخص لا يخطر لك على بال، وسوف ترى، وستفزع حين

تدرك إلى أين أوصلني عنادك».

- «ماذا تقولين؟ ماذا؟»، قال ترويكوروف، «تهديد! تهديد لي، يا لك من

بنت وقحة! أنا، لو تعرفين، سأفعل بك ما لا تتخيّلين. أنت تحاولين

إخافتي بمن يحملك. سرى من يكون هذا المدافع عنك».

- «فلاديمير دوبروفسكي»، أجابت ماشا وهي في حالة يأس.

ظنّ كيريل بتروفيتش أنّها فقدت عقلها، فراح ينظر إليها مذهولاً.

- «طيّب»، قال لها بعد فترة صمت، «انتظري من اخترته مخلصًا لك، لكن ابقِ حاليًا في هذه الغرفة، فأنت لن تخرجي منها إلا إلى حفل الزفاف».

قال كيرىلا بتروفيتش هذه الكلمات وخرج مقفلًا الباب خلفه. بكت البنت المسكينة طويلًا وهي تتخيّل كلّ ما ينتظرها، غير أنّ نقاشها الحادّ مع أبيها خفّف ما كانت تعاني منه روحها، فصار باستطاعتها أن تفكّر تفكيرًا أكثر هدوءًا في مصيرها وفيما يجب أن تفعله. كان الأمر الأهمّ بالنسبة إليها هو أن تتخلّص من ذلك الزواج المكروه، فقد رأت أنّ مصير زوجة قاطع طريق نعيم بالقياس إلى المصير الذي ينتظرها. نظرت إلى الخاتم الذي تركه لها دوبروفسكي، فشعرت برغبة جامحة في أن تراه على انفراد، وتشاور معه طويلًا قبل اللحظة الحاسمة، وراودها حدس بأنها ستجد دوبروفسكي مساء في الحديقة قرب الاستراحة، فقرّرت أن تذهب وتنتظره فور حلول المساء.

حلّ المساء، واستعدّت ماشا، لكنّ الباب كان مقفلًا بالمفتاح، وقد أجابتها الخادمة من وراء الباب بأنّ كيرىلا بتروفيتش أمر بعدم السماح لها بالخروج. لقد كانت سجيّنة. انتابها شعور عميق بالإهانة، فجلست قرب النافذة من دون حراك، وظلّت حتى أعماق الليل جالسة تنظر إلى السماء المظلمة من دون أن تخلع ملابسها.

غلبها النوم عند الفجر فأغفت، لكنّ رؤى حزينة أقلقّت نومها الخفيف، وأيقظتها أشعة الشمس وهي تشرق.



## الفصل السابع عشر

استيقظت، وكانت أوّل فكرة تبادرت إلى ذهنها هي عِظم فظاعة وضعها. دقّت الجرس، فدخلت خادمة وأجابتها عن أسئلتها بالقول إن كيريللا بتروفيتش سافر مساءً إلى أرباطوفو، وعاد في وقت متأخّر، وأنّه أعطى أوامر مشدّدة بعدم السماح لها بالخروج من الغرفة، ومنع أيّ شخص من التحدّث معها، وأنّه لا تُلحظ عمومًا أيّة استعدادات خاصّة للعرس، سوى الطلب من الكاهن عدم مغادرة القرية لأيّ سبب من الأسباب. تركت الخادمة بعد هذه الأخبار ماريا كيريلوفنا وأقفلت الباب من جديد.

كلمات الخادمة زادت من شدّة غضب السجينة الشابة، شعرت برأسها يغلي، ودمها يفور، فقرّرت أن تخبر دوبروفسكي بكلّ شيء، وراحت تفكّر في طريقة لإرسال الخاتم ووضعه في تجويف شجرة السنديان المنشودة. وفي هذه الأثناء ارتطم حجر صغير بنافذتها، فرنّ الزجاج، وأطلّت ماريا كيريلوفنا على الفناء، فرأت ساشا الصغير يرسل إليها إشارات خفيفة. هي كانت تعرف مدى تعلقه بها، وقد أفرحتها رؤيته. فتحت النافذة وسألته:

- مرحبًا، يا ساشا، لماذا تناديني؟
- لقد جئت يا أختي الحبيبة لأسألك إن كنت تحتاجين شيئًا. بابا غاضب ومنع أهل البيت كلّهم من إطاعة أوامرك، لكن مُريني أن أفعل أيّ شيء تريدن، وسأفعل.
- شكرًا يا حبيبي ساشينكا، اسمع! هل تعرف السنديانة القديمة، ذات التجويف، القريبة من الاستراحة؟

- أعرف يا أختي.
- اذهب إلى هناك بسرعة، إذا كنت تحبني، ضع في التجويف هذا الخاتم، وحاذر أن يراك أحد.
- قالت هذه الكلمات ورمت له الخاتم ثم أغلقت النافذة.
- رفع الصبي الخاتم وانطلق به بأسرع ما يستطيع، فوصل إلى الشجرة المنشودة في ثلاث دقائق. وقف هناك لاهثًا، تلفت حوله، ثم وضع الخاتم في التجويف. وأراد، بعد أن أنهى عمله بنجاح، أن يخبر ماريا كيريلوفنا بذلك، لكنّ فتى ممزّق الثياب، أحمر الشعر، أحول العينين، خرج فجأة من وراء الاستراحة واندفع نحو السنديانة، ومدّ يده داخل الفجوة، فانقضّ ساشا نحوه أسرع من سنجاب، وتشبّث به بيديه الاثنتين.
- «ماذا تفعل هنا؟»، سأله مهذّبًا.
- «وما شأنك أنت؟»، أجاب الفتى وهو يحاول الإفلات منه.
- صاح ساشا:
- دع هذا الخاتم أيّها الأرنب الأحمر! وإلا لقتك درسًا على طريقي.
- تلقّى ساشا، بدلًا من الجواب، ضربة على وجهه، لكنّه، لم يُفلت الفتى بل صاح بأعلى صوته:
- لصوص، لصوص، تعالوا إلى هنا، إلى هنا.
- بذل الفتى جهده للإفلات منه. يبدو أنّه يكبر ساشا بعامين، وأقوى منه بكثير، لكنّ ساشا كان أكثر مرونة في حركته. تصارعا بضع دقائق، ثم تغلّب الفتى الأحمر أخيرًا على ساشا. طرحه أرضًا، وأطبق بيديه على حنجرته. لكنّ يدًا قويّة تشبّثت في هذه الأثناء بشعره الأحمر الخشن، كانت تلك يد الحداثقي ستيبان الذي رفعه عن الأرض نصف ذراع...
- «وبحك أيّها العفريت الأحمر!»، قال الحداثقي، «كيف تجرؤ على ضرب السيّد الصغير!؟».
- قفز ساشا عن الأرض وتأهّب من جديد.

- «أنت أمسكتني من إبطي»، قال ساشا، «ولولا ذلك لما استطعتُ أبدًا أن ترميني. أعطني الخاتم الآن، وانتقلع».
- «كيف؟ لا»، أجابه الأحمر، واستدار فجأة في مكانه، مخلصًا شعره من يديّ ستيان.
- شرع يركض هاربًا. لكنَّ ساشا لحق به ودفعه في ظهره، فوقع الفتى على الأرض، وأمسك به الحداثقي مجددًا وقيده بحزامه.
- «هاتِ الخاتم!»، صرخ ساشا في وجهه.
- «مهلاً يا سيّدي»، قال ستيان، «سنأخذه إلى الوكيل لينال عقابه».
- قاد الحداثقي الأسير إلى فناء منزل الإقطاعي، يرافقه ساشا وهو ينظر بقلق إلى سرواله الذي تمزّق وتلطّخ بخضرة العشب. وفجأة رأى الثلاثة أنفسهم أمام كيرىلا بتروفيتش الذاهب لمعاينة حظيرته.
- «ما هذا؟»، سأل بتروفيتش ستيان.
- وصف ستيان ما حدث بعبارات موجزة، فسمعه كيرىلا بتروفيتش باهتمام.
- «وأنت أيّها المدلّل»، قال موجّهًا الكلام إلى ساشا، «لماذا تشاجرت معه؟».
- «لأنّه سرق من التجويف خاتمًا، مرّه يا بابا أن يعيد الخاتم».
- «أي خاتم؟ ومن أي تجويف؟»
- نعم، ماريا كيريلوفنا أعطتني... نعم، ذلك الخاتم...
- اضطرب ساشا وارتبك. عبس كيرىلا بتروفيتش وقال، هازأً رأسه:
- أرى لماريا كيريلوفنا علاقة بالأمر. اعترف بكلّ شيء، وإلاّ جلدتك بالسوط جلدًا يُنسيك أهلك.
- أقسم يا بابا، أنا، يا بابا... ماريا كيريلوفنا لم تأمرني بشيء، يا بابا.
- ستيان، اذهب واقطع لي قضيبًا أخضر جيّدًا للجلد من شجرة بتولا...
- مهلاً يا بابا، سأخبرك بكلّ شيء. كنت اليوم أركض في الفناء، ففتحت أختي ماريا كيريلوفنا النافذة، ركضتُ نحوها، فأسقطت أختي الخاتم

من دون قصد منها، فخَبَّأته في التجويف، و... هذا الفتى أراد سرقة الخاتم...

- أَسْقَطَته من دون قصد، وأنت أردت أن تَحْبِثَهُ... يا ستيان، اذهب وأحضر السوط.

- انتظر يا بابا، سأقول كلَّ شيء. أختي، ماريا كيريللوفنا، أمرتني أن أذهب إلى السنديانة وأضع الخاتم في التجويف، أنا ذهبت، ووضعت الخاتم، ولكنَّ هذا الفتى الملعون...

التفت كيريلا بتروفيتش إلى الفتى الملعون وسأله مهَّدًا:

- صبيُّ من أنت؟

- أنا من خدم آل دوبروفسكي.

اكفهرَّ وجه كيريلا بتروفيتش، وقال:

- أنت، على ما يبدو، لا تعترف بسيادتي، طيِّب، وماذا كنت تفعل في حديقتي؟

أجاب الفتى من دون مبالاة كبيرة:

- كنت أسرق الكرز البرِّي.

- آها، الخادم كسيِّده، كما يكون الراعي تكون الرعيَّة. وهل الكرز البرِّي ينمو عندي على شجر السنديان!

لم يُجب الفتى بشيء.

- «يا بابا، مرُّهُ أن يعطيني الخاتم»، قال ساشا.

- «اصمت يا ألكسندر!»، أجابه كيريلا بتروفيتش، «لا تنسَ أنِّي سأصِفِّي حسابي معك أنت أيضًا. اذهب الآن إلى غرفتك. أمَّا أنت أيُّها الأحول، فيبدو لي أنَّك لست فتى بسيطًا. هاتِ الخاتم وامضِ إلى بيتك».

بسط الفتى قبضته وأراه أن يده خالية.

- إذا اعترفت لي بكلِّ شيء فلن أضربك، وسأعطيك «مخمَّسًا» لتشتري بندقًا. وإلاَّ فإنِّي سأفعل بك ما لا تتوقَّعه. هيَّا!

لم ينبس الفتى بكلمة، بل وقف خافض الرأس، متظاهراً بالغباء.

- «طيّب»، قال كيرىلا بتروفيتش، «ليُسجن في مكان ما، وإياكم أن يهرب، سأسلخ جلد جميع من في البيت إن هرب».

قاد ستيان الفتى إلى حظيرة الطيور، سجنه هناك، وكلّف مربّية الطيور آغافيا العجوز بمراقبته.

- «والآن، اذهبوا إلى المدينة لإحضار قائد الشرطة، وبأقصى سرعة»، قال كيرىلا بتروفيتش، وهو يتابع الفتى بعينه.

وهو يمشي جيئةً وذهاباً في الغرفة، ويصفّر بغضب لحن «زمجري يا رعد الانتصار»، حدّث كيرىلا نفسه: «لا شكّ أبداً في أنّها تتواصل مع اللعين دوبروفسكي. لكن، هل من المعقول حقّاً أنّها طلبت مساعدته؟ قد أكون أخيراً وقعت على آثاره الطازجة، ولن يستطيع الإفلات منّا هذه المرّة. سنستفيد من هذه الفرصة... هسّ! الجرس يرنّ، الحمد لله، وصل قائد الشرطة... هيي، هاتوا الفتى الذي قبضنا عليه إلى هنا».

وصلت في هذه الأثناء عربة إلى الفناء، ودخل قائد الشرطة، الذي عرفناه من قبل، إلى الغرفة وقد غطّى الغبار ثيابه.

- «خبر عظيم!»، قال له كيرىلا بتروفيتش، «لقد قبضت على دوبروفسكي».

- «الحمد لله على ذلك يا صاحب المعالي»، قال قائد الشرطة مبدياً فرحه، «أين هو؟».

- أعني أنّنا لم نقبض على دوبروفسكي، بل على أحد أفراد عصابته. سيأتون به حالاً. إنّه سيمكننا من القبض على زعيم العصابة.. ها هم جاؤوا به.

دُهِش قائد الشرطة الذي كان يتوقّع رؤية قاطع طريق رهيب، حين رأى فتى في الثالثة عشرة من عمره، تبدو عليه علامات الضعف، والتفت متعجباً إلى

كيرىلا بتروفيتش، منتظرًا تفسيرًا للأمر. هنا راح كيرىلا بتروفيتش يروي له ما حدث في الصباح، لكن من دون أن يذكر شيئًا عن ماريا كيرىللوفنا. استمع قائد الشرطة إليه باهتمام، وهو ينظر من لحظة لأخرى إلى الفتى البائس الذي تظاهر بالغباء، وبدا أنه لا يهتم بكل ما يجري من حوله.

- «اسمح لي يا صاحب المعالي أن أتكلّم معك على انفراد»، قال أخيرًا قائد الشرطة.

قاده كيرىلا بتروفيتش إلى غرفة أخرى وأغلق خلفهما الباب. بعد نصف ساعة خرج الاثنان مجددًا إلى الصالة، حيث كان الأسير ينتظر مصيره.

- «لقد أراد السيّد»، قال له قائد الشرطة، «أن يرسلك إلى سجن المدينة، حيث يجلدونك بالسياط، ثم يرسلونك إلى المنفى، لكنّي تشفّعت لك عنده وطلبت منه أن يسامحك. فكّوا وثاقه!». فكّوا وثاق الفتى.

- «تقدّم واشكر سيّدك»، قال قائد الشرطة. اقترب الفتى من كيرىلا بتروفيتش وقبّل يده.

- «هيا، اذهب إلى بيتك»، قال له كيرىلا بتروفيتش، «ولا تحاول في المستقبل سرقة الكرز البرّي من تجاويف الأشجار».

خرج الفتى يقفز مرحًا على درج المدخل، ثم انطلق من دون أن يلتفت، راكضًا عبر الحقول إلى كيستينوفكا، حين وصل إلى القرية وهو يعدو، توقّف عند كوخ نصف متهدّم، هو أوّل كوخ في القرية، ودقّ على نافذته. فُتحت النافذة وأطلّت منها عجوز.

- «أعطني خبزًا يا جدّتي»، قال الفتى، «أنا لم أذق طعامًا منذ الصباح، أكاد أموت جوعًا».

- «آخ، أهذا أنت يا ميتيا؟ أين اختفيت كلّ هذا الوقت أيّها الشيطان الصغير؟»، قالت العجوز.

- سأخبرك فيما بعد يا جدّتي، الآن أعطني خبرًا بحقّ الله.
- طيّب، ادخل إلى البيت.
- لا وقت لدي يا جدّتي، يجب أن أذهب أيضًا إلى أحد الأماكن. أعطني خبرًا، كرمى للمسيح، أريد خبرًا.
- «يا لك من عجول»، قالت العجوز متذمّرة، «هاك، خذ هذه القطعة».
- دسّت له عبر النافذة قطعة خبز أسود، قضمها الفتى بلهفة، وانطلق متابعًا ركضه وهو ي مضغها.

بدأت الظلمة تنتشر في الجوّ، وراح ميّتا يجتاز الغيصات والحقول إلى حرج كيستينيوفاكا. وحين وصل إلى شجرتي السرو الواقفتين كحارسين عند مدخل الحرج، توقّف، وتلفّت حوله في كلّ الجهات، ثم أطلق صفيّرًا حادًا متقطّعًا، وبدأ يصغي. فتناهى إلى سمعه، ردًا على صفيّره صفيّرٌ خفيف متّصل، وخرج من الحرج أحدهم وراح يقترب منه.

## الفصل الثامن عشر

كان كيرىلا بتروفيتش يمشي جيئةً وذهابًا في الصالة وهو يصفرُ بصوت أعلى من المعتاد لحن أغنيته، وكان البيت كله في حركة: الخدم يتراکضون والخادِماَت في حركة دائمة، والحدوْثيون يحضُّرون العربَة في الحظيرة، وفي الفناء حشد من الناس. في غرفة زينة الأَنسة تقف أمام المرأة سيِّدة تحيط بها الخادِماَت، وهي تزَيِّن ماريّا كيريلوفنا الشاحبة، الساكنة، التي أمّالت رأسها في إعياء تحت ثقل المجوهرات، مرتعشة ارتعاشًا خفيفًا كلّما وخزتها يد المزيّنة غير الحذرة، لكنّها كانت تحافظ على صمتها، وهي تنظر إلى المرأة نظرات لا تعبّر عن معنى.

- «هل ستنتهين قريبًا؟»، علا صوت كيرىلا بتروفيتش قرب الباب.
- «في الحال»، أجابت المزيّنة، «قفي يا ماريّا كيريلوفنا، وانظري، هل أنت راضية عن زينتك؟».

نهضت ماريّا كيريلوفنا ولم تُجب بشيء. وفتح الباب.

- «العروس جاهزة»، قالت المزيّنة لكيرىلا بتروفيتش، «أصدر أمرًا بركوب العربَة».

- «برعاية الله»، أجاب كيرىلا بتروفيتش، ثم أخذ عن الطاولة أيقونة، «تعالى إلَيَّ يا ماشا»، قال لها بصوت متهدّج، «دعيني أباركك»... فارتمت الفتاة على قدميه وأجهشت بالبكاء.

- «يا بابا... يا بابا»، قالت ودموعها تنهمر، وقد احتبس صوتها.

باركها كيرىلا بتروفيتش على عجل، ثم صعدوا بها، بل حملوها حملًا تقريبًا إلى داخل العربَة، وجلست إلى جانبها عرّابة زفافها وإحدى الخادِماَت. وذهب



الجميع إلى الكنيسة. هناك كان العريس في انتظارهم، وخرج للقاء عروسه فصعقه شحوبها ومظهرها الغريب. دخلوا معاً إلى الكنيسة الباردة الخالية، وأغلقوا الباب خلفهم. وخرج الكاهن من وراء المذبح وبدأ عمله على الفور. لم ترَ ماريا كيريلوفنا شيئاً، ولم تسمع شيئاً، ولم تكن تفكر إلا في أمر واحد، لقد كانت منذ الصباح تنتظر دوبروفسكي، ولم يفارقها الأمل لحظة، حتى حين توجه إليها الكاهن بالأسئلة المعتادة ارتعدت، وجمدت، وأبطأت في الرد، فهي ما زالت تنتظر، غير أن الكاهن لم ينتظر ردّها، ونطق بالكلمات التي لا رجعة عنها.

انتهى طقس الإكليل، شعرت بقبلة الزوج المكروه الباردة، وسمعت تهاني الحضور المبتهجين، وهي ما تزال عاجزة عن تصديق أن حياتها باتت مقيّدة إلى الأبد، وأن دوبروفسكي لم يطر إليها لتحريرها. وراح الأمير يتوجه إليها بكلمات لم تفهمها، خرجا من الكنيسة التي احتشد في فنائها فلاحو بوكروفسكويه. طاف عليهم نظرها بسرعة ثم عادت إلى جمودها السابق. جلس العروسان في العربة التي انطلقت بهما إلى أرباطوفو، وتوجه كيريل بتروفيتش إلى هناك كي يستقبل العروسين. أمّا الأمير فجلس إلى جانب زوجته الشابة غير متأثر أبداً ببرودها الظاهر. لم يُبْزُ ضجرها بالتعابير المعسولة عن الحب، أو بالإطراء المثير للسخرية، بل كانت كلماته بسيطة ولا تحتاج إلى جواب. قطعت بهما العربة على هذه الحال نحو عشرة فراسخ، كانت الخيول تندفع مسرعة على الطريق الريفي غير المعبد، غير أن العربة لم تكن تهتز، وذلك بفضل نوابضها الإنجليزية. وفجأة علت أصوات مطاردة، فتوقفت العربة وأحاط بها عدد من المسلّحين، ثم تقدّم رجل نصف مقنّع، وفتح باب العربة من الجهة التي تجلس فيها الأميرة الشابة، وقال لها:

- اخرجي، أنت حرة.
- «ما معنى هذا؟»، صاح الأمير، «ومن أنت؟».
- «إنّه دوبروفسكي»، قالت الأميرة.

لم يفقد الأمير رباطة جأشه، أخرج من جيب سترته مسدّس جيب، وأطلق النار على قاطع الطريق المقتنع. صرخت الأميرة مرعوبة، وغطّت وجهها بيديها. جرحت الطلقة كتف دوبروفسكي وسال دمه. ولم يضيّع الأمير دقيقة واحدة، بل أشهر مسدّسًا ثانيًا، لكنّهم لم يمنحوه الفرصة ليطلق النار، فتحت أبواب العربة وسحبته منها أيدٍ قويّة، ثم انتزعت منه المسدّس، والتمع فوق رأسه عدد من الخناجر.

- «لا تلمسوه!»، صرخ دوبروفسكي فتراجع شركاؤه العابسون. «أنت حرّة»، تابع دوبروفسكي كلامه، مخاطبًا الأميرة الشاحبة.
- «لا»، أجابت الأميرة، «فات الأوان، لقد تكلّلت، أنا زوجة الأمير فيرييسكي».
- «ماذا تقولين!»، صاح دوبروفسكي يائسًا، «لا، أنت لست زوجته، لم تكوني حرّة، ما كنت موافقة أبدًا»...
- «لقد وافقتُ، أقسمتُ على ذلك»، قاطعته بصلاية، «الأمير زوجي، مرّهم أن يُطلقوا سراحه، ودعني وإيَّاه. أنا لم أخدعك. أنا انتظرتك حتى آخر دقيقة... لكنّي أقول لك الآن إنّ الأوان قد فات. أطلق سراحنا».

غير أنّ دوبروفسكي لم يكن يسمعها، آلام الجرح، وانفعالات روحه الشديدة استنفدت قواه، فسقط قرب العربة، وأحاط به قُطَاع الطرق الذين استطاع أن يقول لهم بضع كلمات، فوضعه على ظهر الحصان، يسنده اثنان منهم بينما أمسك الثالث بمقود الحصان، ورحل الجميع في طريق جانبية، تاركين العربة في منتصف الطريق، ورُكَّابها الرجال مقيّدين، وخيولها غير مسرّجة، لكنّهم لم ينهبوا منها شيئًا، ولم يُريقوا قطرة دم واحدة انتقامًا لدم زعيمهم الذي أريق.

## الفصل التاسع عشر

في قلب الغابة النائمة، في فسحة ضيقة ارتفع حاجز ترابي صغير مكوّنًا منحدرًا يتلوه خندق، انتصبت خلفه عدّة بيوت ترابية وأكواخ، في الفناء بينها أناس كثيرون في ملابس متنوّعة يستطيع المرء على الفور أن يعرف من خلال أسلحتهم أنّهم قُطّاع طرق، كانوا يتناولون الغداء جالسين من دون قُبّعات، بالقرب من قصعة جماعية. وعلى المنحدر، بالقرب من مدفع صغير جلس حارس طاويًا قدميه تحته، وهو يخيّط رقعة فوق جزء ممزّق من ثوبه، مستخدمًا الإبرة بمهارة توحى بأنّه خيَّاط محترف، متلفّتا بين حين وآخر، إلى جميع الجهات.

على الرغم من أنّ إبريق الشراب دار عدّة مرّات بين الحشد وتداولته الأيدي، ساد صمت غريب. تناول قُطّاع الطُرق طعامهم، ثم نهضوا واحدًا بعد الآخر يصلُّون صلاة الشكر للربّ، وتوزّع بعضهم على الأكواخ، بينما راح بعضهم الآخر يتجوّل في الغابة، أو تمدّد في قيلولة بحسب العادة الروسية.

أنهى الحارس عمله، فنفض ما علق بشيابه. تأمّل الرقعة، ثم غرس الإبرة في كمّ ثوبه وجلس فوق المدفع وهو يغني بأعلى صوته أغنية روسية قديمة حزينة: «لا تضجّي يا أمّي الخضراء دوبروفوشكا لا تشوّشي أفكارى أنا الفتى»...

في هذه الأثناء فُتح باب أحد الأكواخ وخرجت منه عجوز بمنديل رأس أبيض، حسنة الهندام، نظيفة الملابس، وقفت في العتبة وقالت بغضب: - كفاك يا ستيوبكا! السيّد يحاول النوم وأنت تصرخ. إنك من دون ضمير أو شفقة.

- «أنا مخطئ يا يوغوروفنا»، أجاب ستيوبكا، «طيّب، سأكفّ عن ذلك،

فليسترح سيّدنا، وليُشَفَّ». انصرفت العجوز، وراح ستيوبكا يتمشّى جيئةً وذهابًا فوق المنحدر.

في الكوخ الذي خرجت منه العجوز كان دوبروفسكي الجريح يرقد وراء ستار على سرير نَقَّال. أمامه على الطاولة مسدّساته، أمّا سيفه فمعلّق على الجدار فوق رأسه. الكوخ مفروش بسجّاد باهظ الثمن، وبعضه كان معلّقًا على الجدران، وفي الزاوية طاولة عليها أدوات زينة نسائية فضّية ومرآة. وكان في يد دوبروفسكي كتاب مفتوح، لكنّ عينيه كانتا مغلقتين. ولم تستطع العجوز التي كانت تنظر إليه من وراء الستار أن تعرف أهو نائم، أم أنّه كان فقط غارقًا في التفكير. انفض دوبروفسكي فجأة. سادت في الموقع حالة استنفار، ومدّ ستيوبكا رأسه عبر النافذة.

- «يا أبت، فلاديمير أندرييفيتش»، صاح ستيوبكا، «جماعتنا أرسلوا إنذارًا، هناك من يتعقّبنا».

قفز دوبروفسكي من السرير، حمل سلاحه وخرج من الكوخ. كان قُطَاع الطُرق يحتشدون بصخب في الفناء، وحين ظهر ساد صمت عميق.

- «هل الجميع هنا؟»، سأل دوبروفسكي.

- «الجميع ما عدا جماعة المراقبة»، أجابوه.

- «خذوا أماكنكم!»، صاح دوبروفسكي.

شغل كلّ قاطع طريق المكان المحدّد له. وفي هذا الوقت اندفع ثلاثة من المراقبين نحو البوابة، فمشى دوبروفسكي للقائهم.

- «ما الأمر؟»، سألهم.

- «الجنود في الغابة»، أجابوه، «إنّهم يطوّقوننا».

أمر دوبروفسكي بإقفال البوابة، وذهب ليتفقّد المدفع الصغير. سُمع في الغابة عدد من الأصوات، راح يقترب، في حين كان قُطَاع الطُرق ينتظرون في صمت. وفجأة خرج من الغابة ثلاثة، أو أربعة جنود، ثم ارتدّوا في الحال وهم يطلقون النار منذرين زملاءهم.

- «استعدُّوا للمعركة»، قال دوبروفسكي.

سرت هسهسة بين قُطَاع الطُّرُق ثم هداً كُلُّ شيء من جديد. عند ذاك سمعوا ضجَّة الجنود القادمين، وقد التمعت أسلحتهم بين الأشجار، وتدفَّق نحو مئة وخمسين جندياً من الغابة، اندفعوا نحو الحاجز الترابي وهم يصرخون. أشعل دوبروفسكي فتيل المدفع وكانت الطلقة ناجحة: قطعت رأس أحد المهاجمين وجرح اثنين منهم. ارتبك الجنود في هذه الأثناء لكنَّ الضابط اندفع إلى الأمام فلحق به الجنود وركضوا في الخندق. أطلق قُطَاع الطُّرُق النار عليهم من البنادق والمسدَّسات، وراحوا يدافعون بالبلطات عن الحاجز الترابي الذي اندفع نحوه الجنود المهتاجون وقد تركوا نحو عشرين من رفاقهم جرحى في الخندق. التحم الطرفان في معركة بالأيدي حين وصل الجنود إلى أعلى الحاجز الترابي، وبدأ قُطَاع الطُّرُق يتقهقرون، لكنَّ دوبروفسكي اقترب من الضابط، سدَّد مسدَّسه إلى صدره ثم أطلق النار، فتكوَّم الضابط على الأرض، فحمله بعض الجنود على أيديهم وأسرعوا ينقلونه إلى الغابة، أمَّا الآخرون فتوقَّفوا بعد أن فقدوا رئيسهم. استغلَّ قُطَاع الطُّرُق الذين أنعشهم ما حدث، لحظة الفوضى هذه، وكروا عليهم، وردوهم إلى الخندق، وحاصروهم، فهرب الجنود المحاصرون ولحق بهم قُطَاع الطُّرُق وقد علت صيحاتهم. لقد خُسمت المعركة بانتصارهم. واستناداً إلى الفوضى الكاملة في صفوف العدو أوقف دوبروفسكي هجوم جماعته، وأمرهم بتحسين الموقع، وجمع الجرحى، ومضاعفة الحراسة، وعدم السماح بغياب أيِّ عنصر.

لفتت الأحداث الأخيرة انتباه الحكومة بشكل جدِّي إلى أعمال السطو الجريئة التي يقوم بها دوبروفسكي، فتَمَّ جمع المعلومات عن الأماكن التي يتواجد فيها، وأُرسلت سرِّيَّة من الجنود لجلبه حيًّا أو ميتًا. أُلقي القبض على عدد من أفراد عصابته، وعرفت الحكومة منهم أنَّ دوبروفسكي لم يعد بينهم، وأنَّه، بعد المعركة بأيَّام جمع شركاءه وأخبرهم أنَّه ينوي تركهم إلى الأبد، ونصحهم بأن يغيروا، هم أنفسهم، نمط حياتهم.

- أنتم أثريتم تحت قيادتي، ولكل منكم مظهر يستطيع به أن يصل بأمان إلى مقاطعة ما، نائية، ويمضي هناك بقيّة حياته في أعمال شريفة، وفي حال من الرفاه. لكنكم، جميعاً، أفاقون، ولن ترغبوا، على ما أظن، أن تتركوا ما تمارسونه من عمل.

قال لهم هذا الكلام ثم تركهم، ولم يأخذ معه سوى واحد هو --، ولم يعرف أحد إلى أين ذهب. شكّت الحكومة في البداية في صدق إفادتهم، فولاء قُطاع الطُّرق لزعيمهم أمر معروف، لذا افترضت أنهم يحاولون بهذه الإفادة إنقاذه. لكنّ الأحداث التالية أكّدت صدق ما قالوه، فالغزوات الرهيبة، والحرائق، والنهب، أمور توقّفت، وتحزّرت الطرقات. وجاء في أخبار أخرى أنّ دوبروفسكي هرب إلى خارج الحدود.

## ابنة أمير القلعة

صُنِّ شرفك منذ الصغر.

قول روسي مأثور

ظهرت فكرة كتابة هذه الرواية عند بوشكين في أوائل عام 1833، وانتهى من صوغ نصّها الأخير في أيلول عام 1836.

بدأ بوشكين يفكّر في كتابة «ابنة أمير القلعة» في أثناء شغله على رواية «دوبروفسكي». آنذاك كان يشغل باله مصير الضبّاط المنشقّين عن طبقة النبلاء، وقد أتاح له اختياره لموضوعه من زمن تمزّد بوغاتشوف إمكانية معالجة مصائر الطبقة الفلاحية وطبقة النبلاء، والثورة الفلاحية، ونظام الحكم المطلق البيروقراطي في روسيا.

يقول بوشكين: «روايتي مبنيّة على حكاية سمعْتُها ذات يوم عن ضابط قيل إنّه حنث بيمينه وانضمَّ إلى عصابة بوغاتشوف، عفت عنه الإمبراطورة استجابةً

لتوشلات أبيه الطاعن في السنّ، الذي ارتمى على قدميها يقبلهما»، (من رسالة إلى ب. كورساكوف بتاريخ 25 تشرين الأوّل (أكتوبر)، عام 1836). إنّ الضابط الذي كانت حكايته أساس الرواية هو شخصية حقيقية، اسمه م. شفانافيتش، انضمّ فعلاً إلى المتمرّدين، وكان في نيّة بوشكين أن يصوّره بطلاً وحيداً في الرواية، كما يُشير مخطّطها الأوّل، غير أنّ الكاتب اضطرّ بسبب الرقابة إلى تصويره في بطلين في المراحل التالية من شغله عليها، بطل إيجابي هو غرينيف، وبطل سلبي هو شفابرين، إذ من الواضح أنّ الرقابة ما كانت لتسمح بتصوير ضابط من طبقة النبلاء يتخلّى عن شرف انتمائه ويبحث بيمينه، وهذا ما جعل بوشكين يعدّل الصيغة الأخيرة للرواية فيظهر أنّ الضابط النبيل غرينيف لا يمكن أن يتخلّى عن انتمائه لطبقته أو يبحث بقسمه، لكنّه، مع ذلك، يلجأ إلى بوغاتشوف بعد أن يئس من مساعدة محافظ أرينبورغ له في إنقاذ عروسه، وقد استطاع بوشكين بهذا التعديل، أن يمرّر، رغم أنف الرقابة، صورة صادقة ومنطقية لجوانب القوّة وجوانب الضعف في الثورة الفلاحية الروسية.



## الفصل الأول

### رقيب في الحرس

- لو كان في الحرس لصار نقيبًا غدًا.
  - هذا ليس ضروريًا؛ دعه يخدم في الجيش.
  - قول جميل! دعه يندعك...
  - طيّب، من أبوه؟
- كنياجنين

أبي، أندريه بتروفيتش غرينيف، خدم في صباه عند الأمير مينينخ، وتقاعد برتبة مقدّم أوّل في عام --17، وعاش منذ ذلك الوقت في قريته في سيمبيرسك، حيث تزوّج من الأنسة أفدوتيا فاسيليفنا يو، وهي ابنة نبيل محليّ فقير. كنّا تسعة أولاد. إخوتي وأخواتي ماتوا صغار السنّ.

كانت أمّي حاملًا بي حين سجّلوني رقيبًا في فوج سيميونوف، بفضل المقدّم في الحرس الأمير ب- قريب أسرنا. لو أنّ أمّي أنجبت بحكم المصادفة بنتًا، لكان على أبي أن يُعلم من يجب، بأنّ الرقيب الذي لم يلتحق بالقطعة مات، ولانتهى الأمر عند ذلك. لقد كنت معدودًا في إجازة حتى أنهيّ تعليمي. وكان التعليم آنذاك مختلفًا عمّا هو الآن، فمنذ سنّ الخامسة سلّموني ليدي السائس سافيليتش، الذي لقّبته أنا، لسلوكه اليقظ، بـ «العمّ». وقد أتقنت برعايته القراءة والكتابة باللغة الروسية، وأنا في الثانية عشرة، وصار باستطاعتي أن أقدر بشكل جيّد جدًّا خصائص كلب الصيد. وفي هذه الأثناء استأجر لي والدي فرنسيًا هو

المسيو بوبريه، الذي استقدموه من موسكو مع احتياطي كافٍ لمدّة عام من النيذ والزبدة البروفانسية. وقد استاء سافيليتش من استقدامه استياءً شديداً. «الحمد لله»، دمدّم محدثاً نفسه، «أنا أرى أنّ الولد نظيف، ومسرّح الشعر، وشبعان. وأعجب من الحاجة إلى إنفاق المزيد من النقود، واستئجار مسيو، وكأنّنا لم يعد لنا وجود!».

كان بوبريه يعمل في وطنه حلاًفاً، ثم عمل في بروسيا جندياً، بعد ذلك سافر إلى روسيا pour être outchitel<sup>(1)</sup>، من دون أن يفهم معنى هذه الكلمة. هو كان فتى طيباً، لكنّه كان هوائي المزاج ومستهتراً للغاية. نقطة ضعفه الأساسية هي حبّه للجنس الجميل، ولم تكن نادرة تلك الحالات التي تلقّى فيها دفعات الصّدّ بسبب لطفه، وهي دفعات كان يتأوّه منها ألماً أيّاماً كاملة. أضيف إلى ذلك أنّه (بحسب تعبيره) لم يكن عدوّاً للخمر، وذلك يعني (باللغة الروسية) أنّه كان يحبّ الإكثار في الشرب. ولكنّ الخمر لم تكن تقدّم عندنا إلّا ساعة الغداء، وكأساً واحدة لكلّ فرد، وحتىّ هذه كان المعلّم عادة لا ينالها، وهذا ما جعل بوبريه يعتاد سريعاً على شرب «العنبرية» الروسية المخمّرة منزلياً، بل يفضّلها على خمور وطنه التي كانت على الأقل، أكثر فائدة للمعدة. لقد تحقّق الانسجام بيننا على الفور، فقد فضّل رغم أنّ عقد العمل كان يلزمه بأنّ يعلّمني الفرنسية، والألمانية والعلوم كلّها، أن يتعلّم منّي على عجل الثرثرة باللغة الروسية كيفما اتفق، وبعد ذلك راح كلّ منا يمارس ما يشاء من أعمال. عشنا متفاهمين روحياً، ولم أكن أتمنّى أيّ معلّم غيره. ولكنّ القدر فرّق بيننا سريعاً، وإليكم الحدث الذي سبّب ذلك.

الغسّالة بالاشكا المدينة الضخمة، ومربيّة الأبقار أكوّلكا العوجاء، اتّفقتا ذات يوم على الارتماء عند قدميّ أمّي في وقت واحد، والاعتراف بأنّهما وقعتا في الخطيئة، شاكيتين وهما تبكيان أمر المسيو الذي استغلّ عدم خبرتهما. أمّي كانت لا تحبّ المزاح في مثل هذه الأمور، فنقلت ذلك إلى أبي الذي كان

---

(1) كي يصير معلّماً.

عقابه سريعاً. طلب على الفور إحضار المحتال الفرنسي، فأخبروه أنَّ المسيو يعطيني درساً. جاء أبي إلى غرفتي. وفي هذه الأثناء كان بوبريه ينام ببراءة في السرير. أمّا أنا فكنت منهمكاً في العمل. هنا لا بدّ لي من أن أذكر أنَّهم جلبوا لي من موسكو خريطة جغرافية. كانت الخريطة معلقة على الجدار، لا يستخدمها أحد، وقد أغرتني منذ زمن بعيد بكبرها وورقها الجيد، فقرّرت أن أصنع منها طائرة، وشرعت في العمل مستغلاً نوم بوبريه. دخل والدي الغرفة لحظة كنت أحاول لصق ذيل الطائرة إلى «رأس الرجاء الصالح» المرسوم على الخريطة، وحين رأى اجتهادي في دراسة الجغرافيا شدّ أذني بقوة، ثم اندفع نحو بوبريه، أيقظه بخشونة وانهال عليه بعبارات اللوم. أراد بوبريه المرتبك النهوض، لكنّه عجز عن ذلك. لقد كان الفرنسي التعيس ثملاً إلى حدّ الانطفاء. تكثّر المصائب والنتيجة واحدة. أمسك أبي بقبّة قميص الفرنسي وأنهضه من الفراش، ثم دفعه باتجاه الباب، وفي اليوم نفسه طرده من الدار، الأمر الذي أشعر سافيليتش بفرح لا يُوصف. هكذا انتهت عمليّة تعليمي.

عشت طفولتي أطارد الطيور، وألعب مع الصبية من أولاد الخدم لعبة «النطّة»، حيث نتبادل القفز فوق ظهور بعضنا. وحين بلغت أواخر السادسة عشرة من العمر طرأ تغير هامّ في حياتي.

كانت أمّي، ذات يوم خريفي، تحضّر المربّى بالعسل في غرفة المعيشة، وأنا أتلمّظ ناظرًا إلى رغبة القدر. أمّا أبي فكان قرب النافذة يقرأ مفكّرة البلاط التي يرسلونها إليه في كلّ عام. لقد كان لهذا الكتاب تأثير كبير عليه، فهو لم يكن يقرأ فيه بحياد أبداً، بل إن قراءته تثير فيه دائماً انفعالاً عجيباً ومرارة. لذا كانت أمّي، التي تعرف كلّ عاداته وردود أفعاله عن ظهر قلب، تحاول دائماً أن تُبعد هذا الكتاب المشؤوم قدر الإمكان عن متناول يده، وهكذا كانت «مفكّرة البلاط» تغيب عن ناظره شهوراً كاملة أحياناً، لكنّه كان حين يجلبها يظلّ ممسكاً بها ساعات طويلة. كان أبي إذن يقرأ «مفكّرة البلاط» فيهرّز كتفيه من وقت لآخر، مكرّراً بصوت خافت:

- مساعد جنرال! لقد كان عندي في السرية رقيباً! حاز على وسامين من مرتبة فارس! منذ متى نحن...  
وأخيراً، رمى أبي «المفكرة» على الديوانة، وغرق في التفكير غرقاً لا يُوحى بالخير.

وفجأة، توجه إلى أمي قائلاً:

- ما عمر بيتروشا يا أفدوتيا فاسيليفنا؟  
- «بيتروشا دخل في عامه السابع عشر»، أجابت أمي، «فقد وُلد في العام الذي فقدت فيه العمّة ناستاسيا غيراسيموفنا عيناها والذي...»  
- «طيب»، قاطعها أبي، «لقد آن أوان التحاقه بالخدمة، كفاه لهواً مع أولاد الخدم، ومطاردةً للطيور».

فكرة مفارقتي قريباً أذهلت أمي فسقطت الملعقة من يدها في القدر، وسالت دموعها على وجهها. أمّا أنا فكنت، على العكس، معجباً بذلك إلى حدّ يصعب وصفه، ففكرة «الخدمة» اقترنت عندي بفكرة الحرية وملذات الحياة في بتربورغ. تخيلت نفسي ضابطاً في الحرس، وهذا كان في تصوّري ذروة الرفاه الإنساني. لم يكن أبي من النوع الذي يغيّر قراراته أو يؤجّل تنفيذها. وهكذا تحدّد يوم سفري. وأعلن أبي عشيةً رحيلي أنّه ينوي أن يرسل معي رسالة إلى رئيسي المقبل. فطلب ريشةً وورقاً.

- «لا تنسَ يا أندريه بتروفيتش»، قالت أمي، «أن تُهدي سلامي إلى الأمير ب- وتبلغه أنني آمل ألا يحرم بيتروشا من رعايته».  
- «هذا هراء!»، أجاب أبي عابساً، «ما الذي يدعوني إلى الكتابة للأمير ب-؟».

- أنت قلت إنك ستكرّم بالكتابة إلى رئيس بيتروشا!  
- حسناً وما علاقة هذا بذاك؟  
- لا تنسَ أنّ رئيس بيتروشا هو الأمير ب-، فبيتروشا مسجّل في فوج سيميونوفسكي.

- مسجّل! وما شأني بكونه مسجلاً؟ بيتروشا لن يذهب إلى بيتربورغ، فما الذي سيتعلّمه من الخدمة في بيتربورغ؟ التبذير والميوعة؟ لا، دعيه يخدم في الجيش، هناك سيتعلّم تأدية الأعمال الصعبة، ويشم رائحة البارود، ويصير جندياً، لا فتى طائشاً. مسجّل في الحرس، هه! أين بطاقته الشخصية؟ هاتيها إلى هنا.

عشرت أمّي على بطاقتي الذاتية المحفوظة في علبة مع القميص الذي كنت أرتديه حين عمّدوني، وأعطتها لأبي بيد راعشة. قرأها أبي باهتمام، ثم وضعها أمامه على الطاولة وبدأ كتابة رسالته.

كان الفضول يعذبني: «إلى أين سيرسلونني ما داموا لن يرسلوني إلى بيتربورغ؟». لم تفارق عيناى ريشة أبي التي كانت تتحرّك ببطء شديد. أنهى أخيراً رسالته ووضعها مع بطاقتي الذاتية في مغلف واحد، ثم نزع نظّارته واستدعاني، وقال:

- هاك! هذه رسالة إلى أندريه كارلوفيتش ر. زميلي القديم وصديقي. أنت ستسافر إلى أورنبورغ، وستخدم تحت إمرته.

وهكذا انهارت آمالي البرّاقة كلّها! وبدلاً من حياة بيتربورغ المرحّة بات ينتظرني الضجر في منطقة نائية صمّاء. الخدمة التي تحمّست لها قبل دقيقة كلّ ذلك الحماس، صارت شقاء شديد الوطأة. لكنّ النقاش في هذا الأمر كان عديم الجدوى! ففي صباح اليوم التالي جيء بعربة السفر إلى مدخل الدار. وضعوا فيها حقيتي، وصندوقاً فيه عدّة الشاي، وصرّاً فيها خبز وفطائر هي آخر مظاهر الدلال المنزلي. باركني أبواي. وقال لي والدي:

- وداعاً يا بيتر. اخدم بإخلاص من تُقسم على خدمته. أطع أوامر رؤسائك. لا تسع وراء كسب ودّهم. لا تندفع إلى أداء الخدمات، ولا تتهرّب منها؛ تذكّر القول المأثور: 'حافظ على ثوبك جديداً، وضنّ شرفك منذ الصغر'.

أَمَّا أُمِّي فَأَوْصَتَنِي ودموعها تنهمر بأن أحافظ على صحتي، وأوصت سافيليتش برعاية ولدها. ألبسوني سترة من فراء الأرانب، وفوقها معطفًا من فرو الثعلب، ثم جلست مع سافيليتش في العربة وانطلقنا في رحلتنا ودموعنا تنهمر. في ليل اليوم نفسه، وصلتُ إلى سيمبيرسك، حيث كان عليّ أن أقضي يومًا لشراء بعض الأشياء الضرورية، وقد كلّفت بذلك سافيليتش. قضينا الليل في نُزُل، وفي الصباح توجّه سافيليتش إلى السوق. أمّا أنا، فبعد أن ضجرت من النظر إلى الزقاق الموحل من النافذة، رحت أطوف على الغرف كلّها. حين دخلت إلى غرفة البلياردو رأيت سيّدًا طويل القامة، في الخامسة والثلاثين من العمر تقريبًا، له شاربان أسودان طويلان، يرتدي ثوبًا منزليًا ويُمسك في يده عصا البلياردو، وبين أسنانه غليونًا. كان يلعب مع مدوّن نقاط اللعب: إذا ربح المدوّن، يشرب على حساب السيّد قدحًا من الفودكا، وإذا خسر وجب عليه أن يمرّ من تحت طاولة البلياردو حبوًا على أطرافه الأربعة. وقفتُ أتفرّج على لعبهما. كان الحبو على الأطراف الأربعة يتكرّر أكثر فأكثر كلّما طالت اللعبة، إلى أن انتهى الأمر ببقاء مدوّن النقاط تحت الطاولة.

حينذاك، نطق السيّد الواقف عند رأسه ببعض العبارات القويّة، وكأنّه يرثيه قبل الدفن، ثم اقترح عليّ أن أشاركه اللّعب، فاعتذرت لعدم معرفتي باللعبة. بدا له ذلك غريبًا، على ما أظنّ، فقد نظر إليّ نظرة تنمّ عن الإشفاق. لكنّه تبادل معي الحديث، فعرفت أن اسمه إيفان إيفانوفيتش زورين، وأنّه قائد سريّة في فوج الفرسان ---، ويقيم في النُزُل نفسه، وهو في سيمبيرسك لاستقبال مجنّدين جدد.

دعاني زورين لأتناول معه غداء بسيطًا على الطريقة العسكرية، فوافقتُ بسرور. جلسنا إلى المائدة. شرب زورين كثيرًا، وحضّني على ذلك قائلاً إنّ عليّ أن أعود على الحياة العسكرية. وروى لي نوادر من حياة الجيش ضحكت لها حتى كدت أسقط أرضًا. نهضنا أخيرًا عن المائدة ونحن صديقان بكلّ ما للكلمة من معنى. وهنا، تطوّع لتعليمي لعبة البلياردو.

- «هذه اللعبة ضروريةٌ لأمثالنا من الجنود»، قال لي، «أنت، مثلاً، تصل في الحملة إلى أحد المواقع، فبماذا ستسلي نفسك؟ أنت لا تستطيع أن تقضي الوقت كله في اضطهاد اليهود، ولذا ستذهب رغماً عنك إلى النزل، وتلعب البلياردو، وهذا يتطلب منك أن تتقن اللعبة!».

اقتنعت بكلامه تماماً وأقبلتُ على التعلم إقبالاً شديداً. كان زورين يحمّسني بصوت مرتفع، ويدي دهشته من سرعة نجاحي. وبعد عدة دروس اقترح عليّ أن نلعب مقابل رهان نقدي، وليكن قرشاً واحداً في كل لعبة، وذلك ليس بهدف الربح، بل كيلا نلعب من دون مقابل، فاللعب مجّاناً عادة من أسوأ العادات، على حدّ تعبيره. وافقته على ذلك أيضاً، فطلب زورين لنا شراب «البونش» وأفنعي بتجربته، مكرّراً أنّ عليّ اعتياد الحياة العسكرية؛ ولا حياة عسكرية من دون «البونش»! أطعته في ذلك. وفي هذه الأثناء كانت لعبتنا مستمرة. وكنت، أزداد إقداماً في اللعب كلما كثرت رشفاتي من كأس. صارت كراتي تتطاير بكثرة خارج الطاولة. اهتجت ورحت أشتّم مدوّن النقاط الذي لا يعلم إلا الله كيف كان يضاعف الرهان بين فترة وأخرى. لقد كنت، باختصار، أتصرّف كفتى انفلت على هواه. وكان الوقت يمرّ من دون أن نلاحظ ذلك. نظر زورين إلى ساعته، وضع عصا البلياردو من يده، وأعلن لي أنّ خسارتي بلغت مئة روبل. أربكني ذلك بعض الشيء. نقودي كلها كانت مع سافيليتش، فبدأت أعتذر، لكنّ زورين قاطعني قائلاً:

- رحماك لا تقلق. أنا أستطيع الانتظار، والآن، هيّا بنا إلى أرينوشكا. وما النتيجة؟ النتيجة أنّي أنهيت يومي في ضياع كما بدأته. تناولنا العشاء عند أرينوشكا. وكان يملأ كأسني باستمرار مكرّراً قوله لي: «يجب أن تعتاد على الحياة العسكرية». نهضت عن الطاولة فلم أستطع الوقوف على قدميّ إلا بصعوبة؛ فقادني زورين، إلى النزل وقد انتصف الليل.

استقبلنا سافيليتش عند المدخل، فتأوّه حين رأى بما لا يقبل الشكّ علامات حماستي للخدمة.

- «ما هذا الذي حلَّ بك يا سيدي؟»، قال سافيليتش بصوت ينمُّ عن الأسى، «أين تجرَّعت هذا كله؟ آه منكما أيُّها السيِّدان! أنا لم أشهد شيئاً كهذا في حياتي!».

- «اصمت يا منحوس!»، أجبته متلعثماً، «من المؤكَّد أنَّك سكران، اذهب ونمّ... وخذني إلى سريري».

استيقظت في اليوم التالي ورأسي يؤلمني، وأحداث البارحة تمرُّ غائمة في ذاكرتي. قطع سافيليتش سلسلة أفكارٍ حين دخل عليَّ حاملاً كوباً من الشاي.

- «بكرت يا بتر أندرييفيتش»، قال لي هازاً رأسه، «بكرت في السكر. ترى عمّن ورثت ذلك؟ ما أعرفه هو أن أباك وجدك لم يكونا سكيرين، ناهيك عن أمك التي لم تضع يوماً في فمها شراباً غير منقوع الفواكه. أندري من السبب في هذا كله؟ إنَّه المسيو الملعون. كان ديدنه أن يركض إلى أنتييفنا متوسلاً: 'مدام، جي فو بري فودكي'<sup>(1)</sup>. وهاك ما خلَّفته هذه الجي فو بري! لا شكَّ في أن ابن الكلب ذاك هو من أورثك هذه «الخيرات»، هل حقاً أن ما كان ينقصنا هو استئجار هذا الهرطيق ليقوم بدور المرئيِّ وكأنَّ بيت السيِّد قد خلا من الرجال؟!». شعرت بالخجل، فأشحت بوجهي وقلت له:

- انصرف يا سافيليتش من هنا، أنا لا أريد الشاي.

لكنَّ إسكات سافيليتش، إذا بدأ في إلقاء عظته، أمر صعب:

- أنت ترى يا بتر أندرييفيتش ما يؤدِّي إليه السكر. صداع في الرأس، وعدم رغبة في الأكل. الإنسان السكران لا يصلح لشيء... اشرب منقوع الخيار المخلَّل مع العسل، والأفضل أن تشرب نصف كأس من العنبرية. هل تأمر بذلك؟

---

(1) سيِّدتي، أرجوكِ.



دخل في هذه الأثناء صبيٌّ وسَلَمَني رسالة من إي. إي. زورين. فتحتها وقرأت السطور التالية:

العزیز بیتر أندرييفيتش،

أرسل لي من فضلك مع خادمي المئة روبل التي خسرتها البارحة في اللعب معي. أنا في حاجة قصوى إلى النقود.

في خدمتك دائماً

إيفان زورين

لا بدَّ ممَّا ليس منه بدُّ. تصنَّعت اللامبالاة وأنا أخاطب سافيليتش، المسؤول عن مالي وملابسي وأموري كلَّها، آمراً إيَّاه أن يعطيني مئة روبل.

- «كيف! لماذا؟»، سأل سافيليتش مذهولاً.

- «أنا مدين له بهذا المبلغ». أجبته بأشد ما استطعت من برود.

- «مدين له!»، اعترض سافيليتش الذي راحت دهشته تزداد من لحظة

إلى أخرى، «ومتى يا سيدي، متى استدنت هذا المبلغ؟ في هذا الأمر شيء لا أفهمه. الأمر لك يا سيدي، ولكنني لن أدفع له النقود».

قلت لنفسي: «إذا لم أستطع في هذه اللحظة الحاسمة أن أخضع العجوز، فسيكون من الصعب عليَّ في المستقبل أن أتحرَّر من وصايته». نظرت إليه بتعالٍ وقلت له:

- أنا سيِّدك، وأنت خادمي. والنقود نقودي. وأنا خسرتها لأنَّ هذا ما

رغبت فيه. أمَّا أنت، فأنصحك ألا تتذاك، وأن تنفِّذ ما تؤمر به.

صعقت كلماتي سافيليتش صعقاً، فصفق يداً بيد، ووقف جامداً.

- «لم لا تزال واقفاً!»، صرخت بغضب.

بكي سافيليتش.

- «يا أبتِ بيتر أندرييفيتش!»، نطق بصوت راعش، «لا تقتلني حزناً. يا

نور عيني! أطعني، أنا العجوز: اكتب لقاطع الطريق هذا أنك كنت

تمزح، وأننا لا نملك مثل هذا المبلغ. مئة روبل! ارحمنا يا رب! قل له

إنَّ والديك منعاك منعًا قاطعًا عن المقامرة، إلَّا إذا كان الرهان حَبَّات  
بندق»...

قاطعته بصرامة:

- كفى كذبًا! هات المال، وإلَّا صفعتك على قفاك وطردتك.

نظر إليَّ سافيليتش نظرة ملؤها مرارة حزن عميق ومضى لإحضار الدين.  
شعرت بالإشفاق على العجوز المسكين، ولكنِّي أردت انتزاع حرَّيتي وإثبات أنني  
لم أعد طفلًا. أرسلت النقود إلى زورين. وأسرع سافيليتش السعي لإخراجي من  
ذلك النزل اللعين. عاد إليَّ وأعلن أنَّ الخيل جاهزة. ورحلت من سيمبرسك  
بضمير قلق وندم أخرس، من دون أن أودَّع معلَّمي، ومن دون أن أفكِّر في أنني  
سألتقيه يومًا من الأيام.

## الفصل الثاني

### الدليل

إيه أئها البلد الذي قصده  
أئها البلد المجهول  
الذي لم تقدني إليه رغبتني  
ولم يحملني إليه جواد كريم  
بل حملني إليه، أنا الفتى، حماسني  
وشجاعتني، وهممتني الفتية  
وحبتي لنبيذ الخمارات.  
أغنية قديمة

أفكاري في طريق السفر لم تكن سائرة جدًّا، فخسارتي لم تكن قليلة بحسب  
معايير تلك الأيام. وأنا لم أستطع في قرارة نفسي إلا الاعتراف بأن سلوكي في  
النزل في سيمبيرسك كان غبيًّا، وهذا ما أشعرني بالذنب بحق سافيليتش. ذلك  
كلُّه راح يعذبني. كان العجوز يجلس عابسًا على مقعد الحودي، مديرًا لي ظهره،  
وصامتًا لا ينطق إلا نادرًا، بصيحات يحضُّ بها الخيل. أردت أن أتصالح معه  
على الفور، لكنني لم أعرف كيف أبدأ الحديث. وأخيرًا، قلت له:

- حيلك، حيلك يا سافيليتش! كفى، هيّا نتصالح، أنا مذنب، أنا نفسي  
أعرف أنني مذنب. أنا أخطأت البارحة، وأسأت إليك عبثًا. أعدك  
بأن أكون أكثر تعقلًا في المستقبل وسأصغي إلى نصائحك. هيّا،  
لا تغضب، تعال نتصالح.

أجاب سافيليتش وهو يطلق زفرة عميقة:

- إيه، يا أبتِ بيتر أندرييفيتش! أنا غاضب على نفسي. أنا نفسي غاطس في الذنب. أتعجّب من نفسي، كيف تركتك وحدك في النزل! ما العمل الآن؟ لقد ضلّلني الشيطان، فكّرت في زيارة زوجة سادن الكنيسة، إشبيني. زرت إشبيني، ووقعت الواقعة. إنها مصيبة فعلاً! كيف سأواجه سيّدي؟ ماذا سيقولان حين يعرفان أن ابنهما يسكر ويقامر؟ حاولت أن أهدي من روع سافيليتش، فأعطيته عهداً ألاّ أصرف كويكاً واحداً بعد اليوم من دون موافقته. راح يهدأ شيئاً فشيئاً، لكنّه استمرّ يدمدم بينه وبين نفسه هازاً رأسه: «مئة روبل! هذا ليس بالقليل!».

اقتربت من المكان المقصود. تمتدّ من حولي سهوب حزينة، تتخلّلها روابٍ وأودية. الثلج يغطّي كلّ شيء، والشمس تغرب. العربة تسير في طريق ضيقة، والأدقّ أنّها تسير مسترشدة بآثار زلاجات الفلاحين. وفجأة شرع الحوذي يتلفّت حوله. ثم خلع قَبَعته وخاطبني قائلاً:

- ألن تأمر يا سيّدي بأن نعود أدراجنا؟  
- ولماذا أمر بذلك؟  
- الطقس مُقْلِق: لقد اشتدّ قليلاً هبوب الريح. انظر كيف تجرف الثلج وتنشره.

- لا أرى مشكلة في ذلك.  
- أترى ماذا هناك؟

أشار الحوذي بالسوط نحو الشرق.  
- أنا لا أرى شيئاً غير سهب أبيض وسماء صافية.  
- وهناك، هناك، إنّها غيمة صغيرة.

نظرت فرأيت فعلاً غيمة صغيرة بيضاء على حافة السماء، ظننتها في البداية تلة صغيرة بعيدة، فأوضح لي الحوذي أنّ هذه الغيمة الصغيرة تُنذر بحدوث إعصار.

لقد سبق أن سمعت عن العواصف الثلجية في تلك الأماكن، وعرفت أن تلك العواصف كانت تجرف قوافل كاملة. نصحني سافيليتش، الذي اتَّفَق في الرأي مع الحوذي، بالعودة، لكنَّ الريح بدت لي ضعيفة، وأملتُ أن نصل إلى المحطَّة التالية في وقت قريب، لذا أمرت بمتابعة السير وزيادة السرعة.

انطلق الحوذي بالعربة، وهو يديم النظر إلى الشرق. وعدَّت الخيول بهمة وانسجام. وراحت الريح تزداد شدَّة بين فينة وأخرى. وتحوَّلت الغيمة إلى سحابة بيضاء صعدت متناقلة وتمدَّدت بالتدرُّج لتغطِّي السماء. هطل الثلج ذرَّات صغيرة في البداية، ثم انهمر فجأة في ندف كبيرة. عوت الريح وتحوَّلت إلى عاصفة. واندمجت السماء المعتمة بالبحر الثلجي في لحظة. اختفى كل شيء.

- «انظر يا سيدي!»، صاح الحوذي، «نحن في كارثة: إنَّه الإعصار!». أطللت برأسي من العربة، كلُّ ما رأيته كان العتم ورشقات الثلج. كانت الريح تعوي بتعابير وحشية، كأنَّها كائن حيٌّ. غطَّانا الثلج أنا وسافيليتش، وأبطأت الخيول خطواتها، ثم توقَّفت.

- «لَمْ لا نتابع السير؟»، سألت الحوذي بنفاد صبر.  
- «ولماذا السير؟»، أجاب وهو ينزل عن مقعد القيادة، «نحن، بالأساس، لا ندرى إلى أين وصلنا. لا طريق أمانا والضباب يحيط بنا من كلِّ جانب».

هممت بتوبيخه، فتصدَّى لي سافيليتش يدافع عنه.  
- «هذه نتيجة عدم سماعك للنصيحة»، قال بلهجة غاضبة، «لو عُدنا إلى النُّزل، لشربنا الشاي، وبتنا هناك حتى الصباح، ولهدأت العاصفة وتابعتنا سيرنا. وإلى أين نسرع؟ ليتنا كنَّا نسرع إلى حفل زفاف!».

لقد كان سافيليتش على حقٍّ. فلا مجال لفعل أيِّ شيء. الثلج ينهال باستمرار، وقد ارتفعت ثلَّة منه قرب العربة. كانت الخيول تقف مطأطئة رؤوسها وهي ترتجف من وقت لآخر. دار الحوذي حول العربة، وراح يشدُّ أحزماتها

تقطيعاً للوقت. أمّا سافيليتش فكان يدمدم متذمّراً. نَقَلْتُ بصري بين جميع الجهات آمِلاً أن أرى أَيْةَ علامة لمسكن أو طريق، لكنّي لم أستطع أن أُمَيِّز شيئاً سوى دوران ذَرَاتِ الثلج العكّر... وفجأة رأيت شيئاً أسوداً! صرختُ:

- هيه، يا حوزي! انظر! ألا ترى هناك شيئاً أسوداً؟

حدّق الحوزي وقال وهو يجلس في مكانه:

- الله أعلم، قد يكون عربة، وقد يكون شجرة، يبدو لي أنّه يتحرّك. لا بدّ من أنّه ذئب أو إنسان.

أمرتُ بالانطلاق نحو ذاك الشيء المجهول الذي راح، في الوقت نفسه يسير نحونا. بعد دقيقتين صرنا بمحاذاة رجل.

- «هيه، أيّها الرجل الطيّب!»، صاح الحوزي، «قل لنا: ألا تعرف الطريق؟».

- «الطريق هنا»، أجاب الرجل، «أنا أقف على أرض صلبة، لكن ما الفائدة؟».

- «اسمع يا رجل»، قلت له، «ألا تعرف هذه المنطقة؟ هل تستطيع أن تقودنا إلى مكان نبيت فيه؟».

- «أنا أعرف المنطقة»، أجاب الرجل، «أنا، والحمد لله، جلت فيها طويلاً

وعرضاً. ولكن أنت ترى حالة الطقس، ستضلّ الطريق حتماً. الأفضل أن تبقى في مكانك وتنتظر أن يهدأ الإعصار، بإذن الله، وتصحو السماء، عندئذ سنهتدي إلى الطريق بواسطة النجوم».

أنعشتني برودة أعصابه، فقرّرت تسليم أمري إلى الله، وقضاء الليلة في السهب، وفجأة جلس عابر السبيل على مقعد القيادة بنشاط، وقال للحوزي:

- الحمد لله أنّ هناك مكاناً مأهولاً غير بعيد، استدر إلى اليمين وانطلق.

- «ولماذا الانعطاف إلى اليمين؟»، سأل الحوزي مستاء، «أين ترى

الطريق هناك؟ أم أنّك قلت في نفسك: الخيول ليست خيولي، والعربة ليست عربتي، فانطلق يا حوزي ولا تتوقّف».

بدا لي الحوزي محقّقاً في كلامه.

- «أتساءل فعلاً»، قلت له، «ما الذي يجعلك تعتقد بوجود مكان مأهول قريب؟».

- «ما يجعلني أعتقد ذلك»، أجاب عابر السيل، «هو أنَّ الريح تهبُّ من هناك فأشُمُّ فيها رائحة الدخان، ذلك يعني أنَّ القرية قريبة».

أدهشني ذكاؤه ورهافة حسِّه. أمرت الحوذي بالانطلاق. مشت الخيول بصعوبة وقوائمها تغوص عميقاً في الثلج. وتقدّمت العربة ببطء، تارة تصعد فوق كومة من الثلج وتارة تنحدر في وهدة، وتميل مرّة على هذا الجنب، ومرّة على ذاك. كان ذلك شبيهاً بعموم سفينة في بحر عاصف. كان سافيليتش يتأوّه وهو يصطدم بخاصرتي بين حين وآخر. أمّا أنا فأسدلت الستارة وتدنّرت بمعطف الفراء، وغفوت يهددني غناء العاصفة واهتزاز العربة في سيرها البطيء.

رأيت في نومي حلمًا لم أستطع أبداً أن أنساه، وما زلت حتى الآن أرى فيه نبوءة حين أقرّنه بالظروف الغريبة لحياتي. فليسامحني القارئ، فهو أغلب الظنّ، يعرف بخبرته، كم يحبُّ الإنسان أن يستسلم للخرافات، على الرغم من احتقاره الكلّي للأوهام.

لقد كانت عواطفِي وروحي في حالة يتراجع فيها الواقع المحسوس أمام الأحلام ويندمج معها في رؤى أوائل النوم الغامضة، فرأيت في منامي أنَّ الإعصار ما زال على أشدّه، وأننا ما زلنا تائهين في صحراء من الثلج... وفجأة رأيت بؤابة دخلت منها إلى فناء دارنا في ضيعتنا. وكان أوّل ما فكّرت فيه هو الخوف من أن يغضب أبي من عودتي من دون إذن منه إلى بيت أهلي، فيعدّ ذلك عصيانياً متعمّداً. قفزت قَلْبًا من العربة فرأيت أمّي واقفة تستقبلني عند المدخل ومظهرها ينمُّ عن حزن عميق.

- «اهدأ»، قالت لي، «أبوك مريض يحتضر، وهو يؤدُّ أن يودّعك».

تبعتها إلى غرفة النوم يصعقني الخوف. كانت الغرفة مضاءة بنور ضعيف، ويقف قرب السرير أناس بوجوه حزينة. اقتربت بهدوء من السرير، فرفعت أمّي طرف الكلّة وهي تقول:

- لقد وصل بيتروشا يا أندريه بتروفيتش. عاد حين عرف بمرضك. باركه. جثوت على ركبتني ونظرت إلى المريض. ما هذا الذي أراه؟ فلاح بلحية سوداء يرقد في السرير، بدلاً من أبي، وينظر إليّ بمرح. التبس عليّ الأمر، فالتفتُ إلى أمي مرتبكاً، وقلت لها:

- ما معنى هذا؟ إنه ليس أبي. فما الذي يجعلني أطلب المباركة من فلاح؟

- «الأمر سيّان يا بيتروشا»، أجابت أمي، «إنه في مكان أبيك، قبل يده ودعه يباركك»...

لم أوافقها. عند ذاك قفز الفلاح من السرير، وأمسك بلطة كانت خلف ظهره، وراح يطوّح بها في كلّ الاتجاهات. حاولت الهرب... فلم أستطع. امتلأت الغرفة بالجثامين. تعثرت بالأجساد الميتة وانزلقت في برك ملأى بالدم... ناداني الرجل المخيف بمودة قائلاً:

- لا تخف، اقترب لأباركك...

تملّكني الرعب والارتباك، واستيقظت في هذه اللحظة. الخيل متوقّفة، وسافيليتش يهزّ يدي ويقول:

- اخرج يا سيدي، لقد وصلنا.

- «إلى أين وصلنا؟»، سألته وأنا أفرك عينيّ.

- إلى نُزُل. الربُّ ساعدنا، فوجدنا أنفسنا عند سوره مباشرة. اخرج يا سيّدي من العربة بسرعة، وهياً ندخل لتتدفأ.

خرجت من العربة. الإعصار ما زال مستمراً رغم أن شدّته انخفضت. كان الظلام حالكاً يفقاً العين. استقبلنا صاحب النُزُل عند البوابة حاملاً مصباحاً يحميه بطرف ردائه، وقادني إلى غرفة ضيّقة لكنّها نظيفة جداً يضيئها سراج. وقد علّقت على جدارها بندقية وقبعة قوزاقية طويلة.

صاحب النزل من أصل قوزاقي، فلاح في السنين من عمره تقريباً، لكنّه ما زال نضراً ونشطاً. مشى سافيليتش خلفي حاملاً صندوق متاع، وطلب ناراً كي



يعدّ الشاي، الذي لم يبدُ لي يومًا أنّه ضروري كما هو ضروري الآن، فانطلق صاحب النُزُل يسعى لتأمين ذلك.

- «وأين الدليل؟»، سألت سافليتش.

- «هنا يا صاحب السموّ»، أجبني صوت من أعلى.

نظرتُ إلى «اليوك»<sup>(1)</sup> في الأعلى فرأيت لحية سوداء وعينين لامعتين.

- هل جمّدك البرد يا صاحبي؟

- وكيف لا أتجمّد بردًا وأنا في معطف رقيق! كنت أرتدي فروّة، لكن،

لا بدّ من الاعتراف بالذنب! لقد أودعتها في محلّ للرهن، فقد بدا لي أنّ الصقيع ليس شديدًا.

وفي هذه اللحظة دخل صاحب النُزُل حاملاً سماور يغلي فيه الماء. عرضت على دليلنا كوبًا من الشاي فنزل عن «اليوك». بدا لي مظهره لافتًا: كان في نحو الأربعين، معتدل الطول، نحيفًا، عريض المنكبين، في لحيته السوداء بعض الشيب، عيناه الواسعتان تشعّان بالحياة وتدوران في كلّ الاتجاهات، لوجهه طلّة بهيجة، ولكنّها مأكرة. شعره مخلوق على شكل دائرة تتوسّط رأسه، وهو يرتدي معطفًا رقيقًا مهترئًا، وسراويل تترية. أعطيته كوب الشاي، شرب منه رشفة فبدت على وجهه علامات النفور وقال:

- ليتك تتكرّم يا صاحب السموّ فتأمر لي بكأس من النبيذ؛ فالشاي ليس مشروبنا نحن القوزاق.

نفّذت طلبه بسرور.

أخرج صاحب النُزُل من الخزانة زجاجة وكأسًا، ثم اقترب منه ونظر إلى وجهه وقال:

- إيه! أنت في ناحيتنا ثانية! من أين أرسلك الربُّ إلينا؟

غمز الدليل غمزة ذات معنى وأجاب بمثل شعبي:

---

(1) تجويف في الجدار في البيوت العتيقة تُكَدّس فيه الفرشات واللّحف.

- كنت في الحقل، ألثقت الحَبَّ، رمتني الجَدَّةُ بحصوة، لم تُصنبي... حسنًا، وماذا عنكم؟
- «عنا!»، أجاب صاحب النُّزْل متابعًا الحديث باللغة المرمرزة نفسها، «أردنا قرع الجرس لقدَّاس المساء، زوجة الخوري منعنا؛ الخوري في زيارة، والشياطين حلَّت مكانه».
- «اصمت يا عمُّ!»، قاطعه دليلي المتشرد، «إذا هطل المطر، نبتت الفُطور، وإذا نبتت الفُطور، حضرت العربية. أمَّا الآن (هنا عاد فغمز بعينه) فخبَّئ البلطة وراء ظهرك: حارس الغابة في جولة. في صحَّتكَ يا صاحب السموَّ!».

قال ذلك وحمل الكأس، رسم شارة الصليب، وشرب كأسه دفعة واحدة، ثم انحنى لي محيِّيًا وعاد إلى مكانه في «اليوك».

لم أستطع آنذاك أن أفهم شيئًا من حديثهما الذي دار بلغة اللصوص، لكنني أدركت فيما بعد أنه كان يدور حول أمور معيَّنة. آنذاك، لم يكن قد مضى وقت طويل على إخضاع قوَّات يائتس بعد تمرد عام 1772. استمع سافيليتش إلى ذلك الحديث وقد بدت عليه علامات انزعاج شديد، وراح ينظر بعين الشكِّ تارة إلى صاحب النزل، وتارة إلى الدليل. كان النزل أو «أوميت» بحسب اللغة المحليَّة، في منطقة معزولة في السهب، بعيدة عن أيِّ مركز سكاني، وكان شبيهاً جدًّا بماوى لقطاع الطرق، لكن، لم يكن باليد حيلة، وعليَّ أن أستعدَّ لقضاء الليل فيه. تمدَّدت فوق ديوانة خشبية، وقرَّر سافيليتش النوم فوق الموقد، ونام صاحب النزل على الأرض. وسرعان ما علا شخير البيت كله، أمَّا أنا فنمت كالقتيل.

حين استيقظت في صباح اليوم التالي متأخرًا، رأيت أن العاصفة هدأت وأشرقت الشمس، ورقد الثلج بياضًا يعشى له البصر فوق السهب الذي لا تحدُّه العين. كانت الخيل مسرجة. حاسبت صاحب النُّزْل الذي أخذ منَّا أجرًا معتدلًا جدًّا جعل سافيليتش يمتنع عن مساومته كما يفعل عادة، وبدا أن الشكوك التي

ساورته البارحة، قد مُحيت تمامًا من رأسه. ناديت الدليل وشكرته على المساعدة التي قدّمها لنا، وأمرت سافيليتش أن يُعطيه خمسين روبلاً مكافأة. عبس سافيليتش.

- «خمسين روبلاً مكافأة!»، قال، «لماذا؟ لأنك تكرّمت بنقله في العربة إلى النزل؟ الأمر أمرُك يا سيدي: نحن لا نملك خمسينات زائدة عن الحاجة. إذا أعطينا مكافآت لكلّ من هبّ ودبّ، فستعاني أنت نفسك من الجوع».

لم أستطع مناقشة سافيليتش، فالتقود، بحسب تعهّدي، من اختصاصه، يتصرّف بها كما يشاء، ولكنّي أشعر بالأسف لعجزني عن إكرام الرجل الذي أنقذني، إن لم يكن من كارثته، فمن وضع مزعج للغاية، على الأقل.

- «حسنًا»، قلت ببرودة أعصاب، «أعطه شيئًا من ملابسي، ما دمت لا تريد أن تعطيه نقودًا. إنّ ثيابه رقيقة جدًّا، أعطه معطفي المخيط من فرو الأرناب».

- «ارحميني يا أبتِ بيتر أندرييتش!»، قال سافيليتش، «ما حاجته إلى معطفك المخيط من فرو الأرناب؟ إنّ هذا الكلب سيبيعه ويسكر بشمه في أوّل خمّارة».

- «هذا ليس شأنك أيّها العجوز»، قال الدليل المتشرّد، «سواء أسكرت بشمه أم لا. إنّ سموّه ينزع المعطف عن كتفيه وليس عن كتفك، هذه هي إرادته النبيلة، أمّا عملك فهو أن تُطيع لا أن تناقش».

- «أنت لا تخاف الله أيّها الشقي!»، أجابه سافيليتش بلهجة غاضبة، «أنت ترى أنّ الفتى قليل الخبرة، ومع ذلك يسرّك أن تنهيه، مستغلًّا بساطته. ما حاجتك إلى معطف السيّد المخيط من الفراء؟ أنت لن تستطيع حتى حشر كتفك العريضتين الملعونتين فيه».

- «لا تتذاك، أرجوك»، قلت للعجوز، «اذهب وأحضر المعطف».

- «إلهي المالك كلّ شيء!»، صرخ سافيليتش بصوت كالأنين، «معطفك

من فراء الأرانب جديد تقريبًا! وأنت تعطيه لمن لا يستحقّه، تعطيه لهذا السكّير المتشرّد!».

لكن جيء بالمعطف رغم ذلك. وحاول الفلاح قياسه على الفور. كان المعطف ضيقًا فعليًا، حتى على جسدي أنا. لكنّه استطاع على نحو ما أن يرتديه، فتفتّق جانباه. أمّا سافيليتش فكاد يعوّل وهو يسمع صوت الخيوط وهي تتقطع. كان المتشرّد مسرورًا فوق العادة بهديّتي، فرافقني حتى العربة وهو يودّعني بانحناءات كبيرة، ويقول:

- شكّرًا يا صاحب السموّ! فليكافئك الربُّ على إحسانك. أنا لن أنسى طول العمر فضلك عليّ.

ثم مضى إلى وجهته. أمّا أنا فتابعته رحلتي غير عابئ بزعل سافيليتش، وسرعان ما نسيت إعصار البارحة، ودليلي، والمعطف المحوك من فراء الأرانب. حين وصلت إلى أرينبورغ، ذهبت مباشرة لمقابلة الجنرال. رأيت رجلًا قامته الطويلة تحدّبت بتقدّم السنّ، وقد شاب شعره الأسود الطويل وابتيض كلّهُ. زيّه القديم الذي بهت لونه يذكّر بالحرب في زمن آنا إيوانوفنا، وفي كلامه لكثرة ألمانية شديدة. أعطيته رسالة والدي. حين قرأ اسمه ألقى عليّ نظرة سريعة، وقال:

- يا إلهي! منذ سمن كان أندريه بتروفيتش في سنّك، والآن ابنه صار فتى رائعًا! آه يا سمن، يا سمن!

فتح الرسالة وراح يقرؤها بصوت منخفض مبدئيًا ملاحظاته:

- «السيد العزيز أندريه كارلوفيتش، أمل أن تكون معاليك... ما هذا التهسيب؟ فو، يا عيب السوم! طبعًا الانضباط أولًا، ولكن هل يكتبون بهذه الطريقة لكوموراد قديم؟ معاليك لم تنس... إحم... وحين... المرحوم الفيلدمارشال مين... في حملة... وكذلك كاروليننا... إيه يا برودر! أتراه ما زال يذكر أعمالنا الطائشة القديمة؟ أدخل الآن في الموضوع... إليك ابني المدلّل... إحم... أمسكه بقفّازين من إبر

القنفذ... ما معنى قفّاز إير القنفس؟ هذا لا بد مثل من روس... ما معنى أمسكه بقفّازين من إير القنفس؟»، كرّر متوجّهاً إليّ بالسؤال. أجبته متظاهراً بأكبر قدر ممكن من البراءة:

- هذا يعني التعامل معي بلطف ومودة، والتقليل من الصرامة، والسماح بمزيد من الحرّية، وإمساكي بقفّازين من إير القنفذ.
- إحم، فهمت... ولا تتركه على هواه... لا. يبدو أنّ القفّازين من إير القنفذ تعني غير الذي قلته... مع هذه الرسالة... بطاقته الذاتية... أين هي؟ آ. ها هي ذي... سنشطب اسمه من سجلّات فوج سيميونوف... حسناً، حسناً: ستتمّ كلّ شيء... اسمح لي أن أعانقك كزميل قديم وصديق، بغضّ النظر عن الرّتب، آها! أخيراً، تذكّر ذلك... وكذا... كذا...

قال بعد أن أنهى قراءة الرسالة، ووضع بطاقتي الذاتية جانباً:

- طيّب، يا بنيّ، سنقوم بكلّ ما يلزم. أنت ستكون ضابطاً في فوج ---، ولكي لا يضيع الوقت عبثاً، ارحل غداً إلى قلعة بيلوغورسك، حيث ستكون بإمرة النقيب ميرونوف، إنّه إنسان طيّب وشريف. هناك ستؤدّي خدمة عسكرية حقيقية، وتتعلم الانضباط. ليس لك في أرينبورغ ما تفعله والفراغ مؤذٍ للشباب. أمّا الآن فتفضّل بتناول الغداء عندي.

قلتُ في سرّي: «ساعة بعد ساعة، تزداد الأمور صعوبة! أيّ نفع جنيت من تسجيلي وأنا في رحم أمّي رقيباً في الحرس! إلى أين أوصلني ذلك؟ إلى فوج --- في قلعة نائية على حدود سهوب قرغيزيا!».

تناولت الغداء عند أندريه كارلوفيتش ووصيفه العجوز. كان الشخّ الألماني سائداً على مائدته وهو العازب، وأظنّ أنّ خوفه من رؤية ضيف زائد على المائدة بين وقت وآخر، هو ما كان، إلى حدّ ما، السبب في إبعادي إلى حامية القلعة. ودّعت في اليوم التالي الجنرال، ورحلت إلى المكان الذي عُيّن فيه.

## الفصل الثالث

### القلعة

نحن حامية الحصن، نعيش فيه،  
طعامنا الخبز، وشرابنا الماء  
فإذا هاجمنا أعداء كاسرون،  
ينازعوننا طعامنا،  
سنحشو المدافع،  
ونقيم لهم وليمة ببارودها.  
من أغاني الجنود.  
إنهم طاعنون في السنّ، يا أبتِ.  
«المعوق عقليًا»

تبعد قلعة بيلوغورسك أربعين فرسخًا عن أرينبورغ. الطريق إليها تمتدُّ  
بمحاذاة ضفّة نهر يايك الصخرية. النهر لم يتجمّد بعد، وأمواجه الرصاصية  
اللون تلوح سوداء حزينة على ضفافه التي غطّاها الثلج الأبيض فأكسبها مظهرًا  
واحدًا لا تميّز فيه، وقد امتدّت بعدها سهوب قرغيزيا. غرقت في أفكارٍ التي  
كانت حزينة في معظمها. لم يكن في حياة حامية القلعة الكثير ممّا يجتذّبني.  
حاولت أن أتخيّل النقيب ميرونوف، رئيسي المقبل، فتصوّرت عجزًا صارمًا  
غضوبًا، لا يهتمُّ بشيء سوى خدمته العسكرية، يسجنني لأنّفه الأسباب ويمنع  
عني كلّ طعام غير الخبز والماء. كنّا نسير بسرعة جيّدة. وقد بدأت عتمة المساء  
تنتشر من حولنا.

- «هل ما زالت القلعة بعيدة؟»، سألت الحوزي.

- «ليست بعيدة»، أجب، «ها هي ذي أمامنا».

نظرت إلى الجهات كلها، متوقِّعاً أن أرى أسواراً رهيبة، وأبراجاً وخندقاً، لكنني لم أرَ إلا قرية صغيرة محاطة بسياج من جذوع الأشجار. كانت في أحد جوانب القرية ثلاث أو أربع تلال من القش غطى الثلج بعض أجزائها، ومطحنة مائلة على جنبها، تهدّلت في كسل أجنحتها المصنوعة من ألياف لحاء الشجر.

- «ولكن أين القلعة؟»، سألت دهشاً.

- «ها هي ذي»، أجب الحوزي مشيراً إلى القرية ونحن ندخلها.

رأيت عند البوابة مدفعاً قديماً من الحديد الصلب. أمّا القرية فدروبها ضيقة ومتعرجة، وبيوتها واطئة، أسطح معظمها مغطى بالقش. أمرت الحوزي بالتوجّه إلى مقرّ الأمر، وبعد دقيقة توقّفت العربية أمام بيت خشبي صغير مبني على تلة مرتفعة، بالقرب من كنيسة خشبية أيضاً.

لم يستقبلني أحد. اجتزت الشرفة وفتحت باب الغرفة الأمامية. عاجز مسنّ كان يجلس إلى طاولة، يضع رقعة زرقاء على كوع زيّه الرسمي الأخضر. طلبت منه أن يُبلغ عن حضوري.

- «ادخل يا أبت»، أجبني، «الجماعة في الداخل».

دخلت إلى غرفة نظيفة، مرتّبة على الطراز القديم، في الزاوية خزانة أوان، وعلى الجدار علّقت شهادة ضابط مغطاة بزجاج شفاف مؤطّر، وإلى جانبها لوحات قماشية تصوّر الاستيلاء على كيسترين وأوتشاكوف، وأخرى تصوّر «اختيار الخطيئة»، وثالثة تصوّر «موت قطّة». وقرب النافذة جلست عجوز ترتدي سترّة مبطنّة باللباد وتغطّي رأسها بمنديل. كانت تحلّ كبة خيوط تلفّها على يدي عجوز محدودب يرتدي زيّ ضابط.

- «ماذا تريد يا أبت؟»، سألتني وهي تتابع عملها.

أجبتها بأنني وصلت للالتحاق بالخدمة، وحضرت لأقدم نفسي إلى النقيب حسب الأصول. قلت ذلك وتوجَّهت أخاطب العجوز المحدودب ظاناً أنه الأمر. لكن ربَّ المنزل قاطعتني قائلة:

- إيفان كوزميتش ليس في البيت، فقد ذهب لزيارة الأب غيراسيم، لكن هذا لا يعرقل شيئاً يا أبت، فأنا أدير شؤون المنزل. أرجوك تفضَّل بالجلوس.

نادت خادمة وأمرتها باستدعاء الوكيل. أمَّا الرجل العجوز فنظر إليَّ بعينه الوحيدة في فضول.

- «هل لي أن أسألك»، قال، «في أي فوج كنت؟».

أرضيت فضوله.

- «وهل أجرو فأسأل»، تابع، «لماذا انتقلت من الحرس إلى الجيش؟». أجبته بأن هذا ما أرادته القيادة.

- «أظن أن ذلك كان بسبب تصرُّفات لا تليق بضابط في الحرس»، تابع سائلي الملحاح.

- «كفى افتراء وثرثرة تافهة!»، قالت له زوجة النقيب، «أنت ترى أن الشاب متعب من السفر، ولا رغبة لديه في محادثتك... صحَّح وضع يديك لئلا تفلت الخيوط... تابعت وهي توجَّه الكلام لي، «أمَّا أنت، يا أبت فلا تحزن بسبب حشرهم إياك في منطقتنا النائية. أنت لست الأوَّل، ولن تكون الأخير. اصبر، فمع الصبر ستألف ذلك. ها هو ذا شفابرين أليكسي إيفانوفيتش يعيش هنا منذ نقلوه قبل خمسة أعوام بسبب مبارزة قتل فيها خصمه. الله وحده يعلم ما الذي أوقعه في الإثم، خرج، كما علمنا، إلى ضواحي المدينة مع مساعد ضابط، وقد اصطحبا سيفيهما. وهناك راحا يتبارزان، فطعن أليكسي إيفانيتش



مساعد الضابط، وذلك بحضور شاهدين! فماذا تريده أن يفعل؟ الإثم لا يحتاج إلى معلّم».

في هذه اللحظة، دخل الوكيل، وهو قوزاقي شابٌ حسن القوام.

- «يا مكسيميتش!»، قالت له زوجة النقيب، «خصّص للسيد الضابط شقّة. واحرص أن تكون الأنظف».

- «حاضر يا فاسيليسا يغوروفنا»، أجاب الوكيل، «ما رأيك في إسكان سموّه مع إيفان بوليجاييف؟».

- «أنت تخطئ يا مكسيميتش»، قالت زوجة النقيب، «المكان بحدّ ذاته ضيقٌ عند بوليجاييف، وهو إشبيني، ويتذكّر دائماً أنّنا رؤساؤه. خذ السيد الضابط - ما اسمك واسم أبيك يا أبت؟».

- بيتر أندرييفيتش.

- خذ بيتر أندرييفيتش إلى سيميون كوزوف. لقد ترك هذا المحتال فرسه ترعى في حقلي... طيّب، هل كلّ شيء على ما يرام يا مكسيميتش؟

- كلّ شيء هادئ والحمد لله. كلّ ما هنالك أنّ العريف بروخوروف تشاجر في الحَمّام مع أوستينيا نيغولينا بسبب دلو ماء ساخن.

- «إيفان إيغنايتش!»، قالت زوجة النقيب للعجوز المحدودب، «حقّق مع بروخوروف وأستينيا، وتبيّن أيّهما على حقّ، ومن المذنب، ثم عاقب الاثنين. حسناً يا مكسيميتش اذهب برعاية الله. وأنت يا بيتر أندرييفيتش، ماكسيمتش سيأخذك إلى مسكنك».

حيّيتها، وقادني الوكيل إلى منزل على ضفّة النهر العالية، في أقصى طرف القلعة. كان نصف المنزل مشغولاً بأسرة سيميون كوزوف، أمّا النصف الثاني فأعطوه لي، وهو يتألّف من غرفة واحدة نظيفة إلى حدّ مرضٍ، ومقسومة بحاجز إلى نصفين. تركت سافيليتش يتدبّر أمر السكن، ورحت أنظر عبر نافذة ضيّقة. انبسط أمام ناظري سهب حزين، وانتصبت قبالي بضعة أكواخ، وتراكضت عجوز تحمل قصعة وتنادي الخنازير التي راحت تجيها بشخير جماعي. أهذا

هو المكان الذي حُكِم عليّ أن أقضي فيه شبابي! انتابني الكآبة، فابتعدت عن النافذة، وتمدّدت في السرير وقررت النوم من دون عشاء، رغم نداءات سافيليتش الذي كان يكرّر متوسّلاً:

- إلهي، يا مالك الملك! إنّه يرفض أن يأكل! ماذا ستقول سيّدي إذا مرض ابنها؟

ما كدت أشرع صباح اليوم التالي في ارتداء ملابسي حتى فُتح الباب، ودخل عليّ ضابط شابّ قصير القامة، وجهه الأسمر لم يكن جميلاً، ولكنّه كان يتّسم بحيويّة فائقة.

- «اعذرني على مجيئي من دون استئذان»، قال لي بالفرنسية، «جئت للتعرف عليك. لقد سمعت بوصولك البارحة. وقد تملّكتني الرغبة في أن أرى أخيراً وجهاً إنسانياً، إلى حدّ جعلني عاجزاً عن الانتظار. أنت ستفهم ما أقول بعد أن تقيم هنا بعض الوقت».

أدركت من كلامه أنّه الضابط الذي نُقل من الحرس بسبب المبارزة. تعارفنا في الحال. كان شفابرين إنساناً ذكياً جداً. وكان حديثه حاداً وجذّاباً. وصف لي بمرح شديد أسرة الأمير، ومجتمعه، ومنطقته التي قادني إليها قدري. وقد ضحكت من أعماق قلبي حين دخل علينا ذلك العاجز الذي كان يرفع زيّه الرسمي في الغرفة الأمامية في منزل الأمير، ودعاني باسم فاسيليسا يغوروفنا إلى الغداء عندهم، وتطوّع شفابرين لمرافقتي.

حين اقتربنا من منزل الأمير، وجدنا في الساحة الصغيرة نحو عشرين رجلاً من مشوّهي الحرب المتقدّمين في السنّ بصفائر طويلة وقبعات مثلثة الأضلاع. كانوا مصطفّين على نسق. أمامهم يقف الأمير وهو عجوز نشيط طويل القامة يعتمر قُبعة طويلة ورداء منزلياً صيئاً. اقترب منّا حين رأنا، وقال لي بعض الكلمات الودودة، ثم عاد يُصدر أوامره. توقّفنا كي نشاهد التدريب، لكنّه طلب منّا الذهاب إلى فاسيليسا يغوروفنا واعدّا أن يلحق بنا، وأضاف:

- ليس هنا ما يستحقّ أن تشاهدوه.

استقبلتنا فاسيليسا يغوروفنا ببساطة وبهجة، وعاملتني وكأنها تعرفني طول حياتها. وقام العاجز وبالاشكا بتحضير المائدة.

- «ما بال زوجي إيفان كوزميتش أطال فترة التدريب اليوم!»، قالت زوجة الأمر، «بالاشكا، اذهبي ونادي السيّد للغداء... لكن، أين ماشا؟».

في هذه اللحظة دخلت فتاة في الثامنة عشرة تقريبًا، مستديرة الوجه، مورّدة الخدين، شعرها كستنائي فاتح، ينسدل ناعمًا خلف أذنيها اللتين توهّجتا بالحمرة. لم تُعجبني كثيرًا للوهلة الأولى. نظرتُ إليها بقناعات مسبقة، فقد سبق أن صوّر لي شفابرين ماشا، ابنة النقيب، فتاة حمقاء تمامًا. جلست ماريا إيفانوفنا في الزاوية وانهمكت في الخياطة. جيء في هذه الأثناء بحساء الملفوف. وحين لم ترَ فاسيليسا يغوروفنا زوجها، أرسلت بالاشكا مرّة ثانية في طلبه.

- قولي للسيّد إنّ الضيوف ينتظرون، وحساء الملفوف سيبرد، التدريب والحمد لله، لا يهرب، وسيجد فرصته ليشبع صراخًا. ظهر النقيب سريعًا يرافقه العجوز المحدودب.

- «ما هذا يا أبت؟»، قالت له زوجته، «الطعام وُضع على المائدة من زمن، وأنت نناديك فلا تستجيب».

- «اسمعي يا فاسيليسا يغوروفنا»، أجاب إيفان كوزميتش، «كنتُ منشغلًا بالخدمة، أدرب الجنود».

- «هيه، كفى كلامًا!»، قالت زوجة النقيب محتجّة، «لا نسمع إلّا بتدرييك للجنود، ولكن، لا هم سيتقنون الخدمة العسكرية، ولا أنت تفقه فيها شيئًا. ليتك تبقى في البيت، وتصلّي للرّب، ذلك أفضل. ضيوفنا الأعزاء، تفضّلوا بالجلوس إلى المائدة».

جلسنا للغداء. فاسيليسا يغوروفنا لم تصمت دقيقة واحدة. أمطرني بالأسئلة: «مَن والداي، وهل هما على قيد الحياة، وأين يعيشان، وما ثروتهما؟». وحين سمعت أنّ أبي يملك ثلاثمئة فلاح، قالت:

- الحياة ليست سهلة! لكنَّ هناك، مع ذلك، أناس أثرياء في هذه الدنيا! أمّا نحن، يا أبتِ، فلا نملك سوى نفس واحدة هي بالاشكا، ونحن، والحمد لله على كلِّ حال، نعيش بالقليل. أمر واحد يعكّر حياتنا: ماشاء، بنت في سنِّ الزواج، لكن، ما هي بائنتها؟ مشط ناعم الأسنان، ومكنسة، وثلاثة كوبيكات - فليسامحني الرب! - تذهب بها إلى الحمّام. سيكون من حُسن حظّها أن تلتقي إنسانًا طيبًا، وإلاَّ فإنّها ستبقى بنتًا، عروسًا أبدية.
- نظرتُ إلى ماريا إيفانوفنا فرأيت وجهها مصطبغًا بالحمرة، ودموعها تتساقط في صحنها. أشفقتُ عليها، فسارعت إلى تغيير موضوع الحديث.
- «لقد سمعت»، قلت من دون مناسبة، «أنَّ البشكيريين يستعدّون لمهاجمة قلعتكم».
- «ممن، يا أبتِ، سمعت ذلك؟»، سأل إيفان كوزميتش.
- «هذا ما قالوه لي في أرينبورغ»، أجبته.
- «هراء!»، قال الأمر، «نحن هنا لم نسمع شيئًا كهذا منذ زمن بعيد. البشكيريون قوم أخفناهم، والقرغيزيون أيضًا لقناهم درسًا، وأظنهم لا يُفكّرون في التحرّش بنا، وإذا فعلوا، فسيلقون ردًّا أهدّثهم به لسنوات عشر مقبلة».
- «وأنتِ، ألا تخافين؟»، تابعت كلامي متوجّهًا إلى زوجة النقيب، «ألا يُخيفك أن تبقي وحيدة في القلعة، عُرضة لخطر كبير؟».
- «الأمر اعتياد، يا أبتِ»، أجابت، «قبل نحو عشرين عامًا، حين نقلونا من الفوج إلى هنا، كنت أخاف خوفًا شديدًا من هؤلاء الكفار الملاعين، أطلب من الله ألا أعود للشعور بمثله. كنت حين أرى قَبَعاتهم المصنوعة من جلد الثعلب، وأسمع زعيقهم، يتجمّد قلبي، صدّقني! أمّا الآن فقد اعتدتُ على ذلك، لذا صرتُ لا أتزعزع من مكاني حين يجيئون ويبلغوننا أنَّ الأشرار يحتشدون قرب القلعة».

- «فاسيليسا يغوروفنا سيّدة شجاعة بامتياز»، قال شفابرين بلهجة رزينة، «وإيفان كوزميتش يشهد على ذلك».
- «حسنًا، اسمعني»، قال إيفان كوزميتش، «هذه امرأة ليست من النوع الجبان».
- «وماريا إيفانوفنا؟»، سألتُ، «أهي أيضًا شجاعة مثلك؟».
- «تسألني هل ماشا شجاعة؟»، قالت أمها، «لا، ماشا جبانة. إنها إلى اليوم، لا تستطيع سماع طلقة نار من سلاح: تضطرب كلّها. منذ عامين أطلق إيفان كوزميتش احتفالاً بيوم عيدي قذيفة من مدفعنا، فخافت يمامتي خوفًا كاد يؤدي بها إلى العالم الآخر. ومنذ ذلك الحين توقّفنا عن إطلاق النار من ذلك المدفع اللعين».
- نهضنا عن المائدة، فتوجّه النقيب وزوجته للنوم، أمّا أنا فذهبت إلى منزل شفابرين وقضيت عنده المساء كلّهُ.

## الفصل الرابع

### المبارزة

تفضّل إذن وقِفْ في وضع المبارزة،  
وسترى كيف سأطعن جسدك.  
كنياجين

بعد مُضيّ بضعة أسابيع، لم تعد حياتي في قلعة بيلوغورسك مقبولة فقط، بل سارّة أيضًا. كانوا يستقبلونني في بيت الأمير واحدًا منهم. الزوج والزوجة كانا محترمين جدًّا. إيفان كوزميتش الذي دخل سلك الضباط بوصفه من أبناء العسكريين، كان إنسانًا بسيطًا وغير مثقّف، إلّا أنّه نزيه وطيّب إلى أقصى حدّ. وكانت زوجته تدير شؤونها، وهذا أمر ينسجم مع لامبالاته، وتنظر حتى إلى أعمال الخدمة العسكرية كأنّها أعمال منزلية، فتدير القلعة كما تدير بيتها تمامًا. أمّا ماريا إيفانوفنا فكفّت بسرعة عن تخوّفها منّي. تعارفنا، فوجدتها فتاة عاقلة وحسّاسة. لقد تعلّقت بشكل غير ملحوظ بهذه الأسرة الطيّبة، حتى بإيفان إيغنايفيتش مساعد الضابط المحدودب، الذي زعم شفايرين أنّه على علاقة محرّمة مع فاسيليسا يغوروفنا، الأمر الذي لم يكن له أيُّ ظلٍّ من الحقيقة، لكنّ شفايرين لم يكن يعبأ بذلك.

ترفّعتُ إلى رتبة ضابط. لم تُثقل الخدمة كاهلي، ففي القلعة التي يحميها الربّ، لا يوجد اجتماع صباحي، أو تدريب، أو دوريات حراسة. كان الأمير يدرّب جنوده أحيانًا بحسب رغبته، ولكنّه ظلّ عاجزًا عن تعليمهم تمييز اليمين

من اليسار، رغم أن كثيرين منهم، كانوا يرسمون شارة الصليب عند كل منعطف  
آملين أن يجنّبهم ذلك الوقوع في الخطأ. كان عند شفابرين عدد من الكتب  
الفرنسية، صرت أقرؤها، فاستيقظ في حبّ الأدب. أقرأ في الصباح، وأتدرب  
على الترجمة، وأحياناً أحاول حتى نظم الشعر. وكنت غالباً أتناول الغداء عند  
الأمير، وأقضي، عادة، بقية النهار عنده، حيث يأتي أحياناً في الأماسي الأب  
غيراسيم وزوجته أكوлина بامفيلوفنا، الناشرة الأولى للأخبار في المنطقة كلها.  
وكنت، طبعاً، ألتقي آ. إي. شفابرين في كل يوم، لكنّ استمتاعي بمجالسته صار  
يقلّ يوماً بعد يوم. نكاته التي يتناول فيها دائماً أسرة الأمير، كانت تُثير نفوري  
الشديد، ولا سيّما تلك التي تمسّ ماريا إيفانوفنا. ذلك كان المجتمع الوحيد في  
القلعة، وأنا لم أكن راغباً في أيّ مجتمع غيره.

البشكيريون، بغضّ النظر عن كلّ التنبؤات، لم يغضبوا، وظلّ الهدوء سائداً  
حول قلعتنا. لكنّ السلام انقطع فجأةً بخصومة محلية.

لقد سبق أن قلتُ إنّي اشتغلت بالأدب. وكانت أعمالي متميّزة بالنسبة إلى  
ذلك الزمن، فقد مدحها، بعد أعوام، أليكسندر بتروفيتش سوماروكوف مدحاً  
شديداً. وقد وفّقت ذات يوم في كتابة أغنية رضيت عنها. من المعروف أنّ  
المؤلفين يبحثون، بحجّة طلب النصيحة، عن مستمع يمدح ما كتبه. وهكذا  
حملت أغنيتي بعد أن أنجزتها، إلى شفابرين، فهو الشخص الوحيد في القلعة،  
القادر على تقويم إبداع ناظم الشعر. وبعد مقدّمة قصيرة، أخرجت دفترتي من  
جيبتي، وقرأت له الأشعار التالية:

«قتلتُ فكرة الحبّ الرائعة

بحثاً عن النسيان،

وابتعدت عن ماشا يعصرني الألم،

أملاً في الحصول على الحرّية

لكنّ العينين اللتين أسرتاني،

تمثلان أمامي في كلّ لحظة،

تَعْكُرَانِ صَفْوِ رُوحِي،

وَتَدْمُرَانِ فِي دَاخِلِي السَّكِينَةَ.

وَأَنْتِ، حِينَ تَعْرِفِينَ مَا أَعَانِي،

أَسْفَقِي عَلَيَّ يَا مَاشَا،

حَرَامٌ أَنْ أَبْقَى أَسِيرًا لَكَ،

أَعَانِي هَذَا الْعَذَابُ الَّذِي لَا يُطَاقُ».

- «كَيْفَ تَرَى هَذِهِ الْأَغْنِيَةَ؟»، سَأَلْتُ شِفَابِرِينَ وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْمَدِيحَ الَّذِي

أَسْتَحِقُّهُ حَقًّا. لَكِنَّ شِفَابِرِينَ الَّذِي كَانَ يَسَائِرُنِي عَادَةً، أَعْلَنَ، لِعَظِيمِ

أَسْفِي، أَنَّ الْأَغْنِيَةَ رَدِيئَةٌ.

- «لَمْ تَقُولِ هَذَا؟»، سَأَلْتَهُ وَأَنَا أَخْفِي اسْتِيَائِي.

- «لَأَنَّ»، أَجَابَ، «مِثْلَ هَذِهِ الْأَشْعَارِ يَلِيقُ بِمَعْلَمِي، فَاسِيلِي كِيرِيلِيَتِشَ

تَرِيدِيَاكُوفْسْكِي، إِنَّ هَذِهِ الْأَغْنِيَةَ تَذَكِّرُنِي بِقُوَّةِ بِأَشْعَارِهِ الْغَزَلِيَّةِ».

هَنَا، أَخَذْتُ مَنِّي الدَّفْتَرَ وَبَدَأْتُ يَشْرَحُ مِنْ دُونِ شَفَقَةٍ كُلِّ سَطْرِ شَعْرِي، وَكُلَّ

كَلِمَةٍ، سَاخِرًا مَنِّي بِأَقْسَى الْعِبَارَاتِ. لَمْ أَسْتَطِعْ تَحْمُلُ ذَلِكَ، فَانْتَزَعْتُ مِنْهُ الدَّفْتَرَ،

وَقُلْتُ لَهُ إِنَّي لَنْ أَرِيهِ أَشْعَارِي مَا حَيِّتْ، فَسَخَّرَ شِفَابِرِينَ مِنْ تَهْدِيدِي هَذَا أَيْضًا.

- «سَرَى»، قَالَ لِي، «إِنْ كُنْتَ سَتَسْتَطِيعُ الْإِلْتِمَامَ بِكَلِمَتِكَ؛ نُظَامَ الشَّعْرِ

يَحْتَاجُونَ إِلَى مُسْتَمْعٍ، كَمَا يَحْتَاجُ إِيْفَانُ كُوزْمِيَتِشَ إِلَى إِبْرِيْقِ فُودَكَا

قَبْلَ الْغَدَاءِ. وَمَنْ هِيَ هَذِهِ الْمَاشَا الَّتِي تَعْبِّرُ لَهَا بِرَقَّةً عَنْ غَرَامِكَ

وَمَعَانَاتِكَ فِي حُبِّهَا؟ أَتَرَاهَا مَارِيَا إِيْفَانُوفِنَا؟».

- «هَذَا لَيْسَ شَأْنُكَ»، أَجَبْتُهُ عَابِسًا، «أَيًّا كَانَتْ هَذِهِ الْمَاشَا. أَنَا لَمْ أَطْلُبْ

رَأْيِكَ، وَلَا تَعْنِينِي تَخْمِينَاتِكَ».

- «أَوْهَو! يَا لَكَ مِنْ نَازِمِ أَشْعَارٍ مَعْتَدٍّ بِنَفْسِهِ، وَعَاشِقٍ مُتَوَاضِعٍ!»، تَابَعَ

شِفَابِرِينَ، بَيْنَمَا كَانَ غَضْبِي يَتَصَاعَدُ، «إِلَيْكَ نَصِيحَةٌ مِنْ صَدِيقٍ: أَنَا

أَنْصَحُكَ أَنْ تَلْجَأَ إِلَى أَعْمَالٍ أُخْرَى غَيْرِ نَظْمِ الْأَغَانِي، إِذَا أَرَدْتَ أَنْ

تَنْجَحَ».



- ما معنى ذلك يا سيّد؟ هلأ أوضحت معنى كلامك؟

- بكلّ سرور. هذا يعني أنّ عليك إذا أردت أن تزورك ماشا ميرونوفا في الأماسي، أن تُهديها قُرطين بدلاً من أشعارك الرقيقة.  
فار الدم في عروقي.

- «ولماذا ترى فيها هذا الرأي؟»، سألته وأنا أكتّم غيظي بصعوبة.

- «لأنّي»، أجاب وهو يبتسم ابتسامة ساخرة جهنّمية، «أعرف بالتجربة مزاجها وعاداتها».

- «أنت تكذب أيّها الحقيّر!»، صرخت مهتاجًا، «أنت تكذب بوقاحة لا تفوقها وقاحة».

اكفهرّ وجه شفايرين.

- «لن تمرّ فعلتك بسلام»، قال وهو يضغط على ذراعي بشدة، «أنت ملزم بدعوتي إلى المباراة».

- «كما تشاء، ومتى تشاء»، أجبته مبتهجًا.

كنت في تلك اللحظة مستعدًا لتمزيقه.

ذهبت في الحال إلى إيفان إيغناتيفيتش، فوجدته يمسك مسلّة بيديه. كان، بتكليف من زوجة الأمير، يشكّ نباتات الفطر في حبل لتجفيفها استعدادًا للشتاء.  
قال حين رأيّ:

- ها، يا بيتر أندرييفيتش! أهلاً وسهلاً! أي ريح سعيدة سافتك إلينا؟ هل لي أن أجرؤ فأسأل عن سبب هذه الزيارة؟

أوضحت له بكلمات موجزة أنّي تخاصمت مع أليكسي إيفانيتش، وأنّي أرجوه، هو إيفان إيغناتيفيتش، أن يكون شاهدي في المباراة. استمع إيفان إيغناتيفيتش بانتباه، وهو ينظر إليّ بعينه الوحيدة المفتوحة إلى أقصى حدّ. سألني:

- هل أفهم من كلامك أنّك تريد أن تطعن أليكسي إيفانيتش، وتريد منّي أن أكون شاهداً؟ أليس كذلك؟

- هكذا بالضبط.

- رحماك يا بيتر أندريتش! أتعجب ممّا تفكّر فيه! أنت وأليكسي إيفانيتش تشاجرتما؟ يا للمصيبة الكبيرة! الشجار لا يعلق بقبّة ثوب. هو يشتمك، وأنت تردّ عليه، يلصمك على سحتك فتضربه على أذنه، تتبادلان الضربات، مرّة واثنين، وثلاثاً، ثم تفترقان، ونقوم نحن بالمصالحة بينكما. ولكنّي أتعجّر فأسأل: ما الخير في أن يقتل المرء قريبه في المباراة؟ قد يهون الأمر إذا كنت أنت المنتصر، لن آسف على أليكسي إيفانيتش، فأنا نفسي لا أحبه. لكن، ماذا لو اخترق هو جسدك بسيفه؟ ماذا تقول في ذلك؟ إنّي أتعجّر فأسألك: من سيكون الخاسر في هذه الحالة؟

حديث مساعد الضابط الحكيم لم يزعزعني، ظللت متمسّكاً برأيي.  
- «أنت وما تشاء»، قال إيفان إيغنايتش، «افعل ما يمليه عليك عقلك. ولكن لماذا يجب أن أكون أنا شاهداً؟ ما الداعي لذلك؟ اثنان يتقاتلان، أتعجّر فأسأل: ما هذا المشهد الذي لم يره أحد من قبل؟ أنا، والحمد لله، حاربت السويدي، والتركي، ورأيت ما يكفي». حاولت أن أفهمه ما وظيفة الشاهد، لكنّ إيفان إيغنايتش لم يفهمني بحال من الأحوال.

- «هذا شأنك»، قال، «ما دمْتُ لا أشارك في هذه القضية، وإلاّ فإنّي سأذهب إلى إيفان كوزميتش وأبلغه، كما يفرض عليّ واجب الخدمة، أنّ بعضهم في القلعة يحضّر لعمل شرير مناقض لمصلحة الدولة: أفلا يرغب السيّد الأمير في أن يتّخذ الإجراءات اللازمة؟».

خفت، وصرت أرجو إيفان إيغنايتش ألاّ يُخبر الأمير بشيء. أقنعتة بعد جهد جهيد، فأعطاني عهداً بذلك. أمّا أنا فقرّرت أن أتركه وشأنه.

قضيت المساء، كعادتي، عند الأمير، فحرصت على أن أبدو مرحاً، لا مبالياً، كي لا أثير الشكوك، وأتجنّب الأسئلة المضجرة. لكن، يجب أن أعترف بأنّي لم أكن أمتلك برودة الأعصاب التي يتحلّى بها غالباً أولئك الذين وُجدوا في وضع مثل وضعي. كنت في هذا المساء ميّالاً إلى الرقة واللطافة، وقد أعجبتني

ماريا إيفانوفنا أكثر من المعتاد. التفكير في أنني قد لا أراها بعد اليوم، أسبغ عليها في عيني طابعًا مؤثّرًا. شفايرين جاء إلى هنا أيضًا. انتحيثُ به جانبًا وأخبرته بحديثي مع إيفان إيغنايتيتش.

- «وما حاجتنا إلى الشهود؟»، قال لي بجفاء، «ستدبر أمرنا من دونهم». اتّفقنا على أن تكون المباراة خلف البيادر، غير بعيد عن القلعة، وأن نلتقي هناك في اليوم التالي، في الساعة السابعة صباحًا. كان حديثنا ودّيًا في ظاهره، الأمر الذي جعل إيفان إيغنايتيتش يقع، لفرحته، في زلّة لسان.

- «هذا كان يجب أن يحدث منذ زمن»، قال لي وقد بدا عليه الفرح، «صلح رديء خير من عداوة محقّقة، صحيح أن الصلح لا يردُّ عنك الإهانة، لكنّه يضمن لك السلامة».

سألته زوجة الأمير التي كانت تنجّم بورق اللعب:

- ماذا؟ ماذا تقول يا إيفان إيغنايتيتش؟ لم أسمع.

لاحظ إيفان إيغنايتيتش علامات الاستياء على وجهي وتذكّر وعده لي، فاضطرب ولم يعرف بماذا يجيب، فأسرع شفايرين لنجده.

- «إيفان إيغنايتيتش يؤيّد الصلح بيننا»، قال.

- ومع من كان، يا أبت، خصامك؟

- وقع بيني وبين بتر أندرييتش خصام كبير.

- ما سببه؟

- سببه أمر تافه، أغنية، يا فاسيليسا يغوروفنا.

- يا له من أمر تتخاصمان بسببه! أغنية! ترى كيف حدث ذلك؟

- حدث ذلك كما يلي: منذ فترة قصيرة ألّف بتر أندرييفتش أغنية، وغنّاها لي اليوم، فأشدت ردًا عليه مقطعًا من أغنيتي المفضّلة أقول فيه: 'يا ابنة الأمير، لا تخرجي للنزهة في منتصف الليل'... فبدا ذلك نشازًا. غضب بتر أندرييتش، لكنّه اقتنع فيما بعد أن كلّ إنسان حرّ في أن يُغني ما يشاء ولمن يشاء. وهكذا تمّت تسوية الأمر.

وقاحة شفابرين كادت تُخرجني عن طوري، لكن، لا أحد غيري فهم تلميحاته الفظة، أو، على الأقل، لا أحد انتبه لها. وانتقل الحديث عن الأغاني، إلى ناظمي الشعر، فلاحظ الأمير أن ناظمي الشعر كلهم أناس تائهون، وسكّيون مدمنون، ونصحني بمودة أن أترك نظم الشعر، بوصفه عملاً يناقض الخدمة العسكرية، ولا يؤدي إلى نهاية طيبة.

وجود شفابرين صار بالنسبة إليّ أمراً لا يُحتمل، لذا ودّعتُ الأمير وأسرتَه سريعاً، وحين عدتُ إلى البيت تفقدت سيفي، وتفحصت حدّه، ثم ذهبت إلى الفراش بعد أن أمرت سافليتش أن يوقظني في الساعة السابعة. في اليوم التالي، وفي الوقت المحدد، كنت أقف خلف البيادر منتظراً خصمي الذي وصل بعد وقت قصير.

- «قد يلحقون بنا»، قال لي، «يجب أن نسرع».

خلعنا السترة الرسمية... ووقفنا مجرّدين سيفينا من غمديهما. في هذه اللحظة ظهر فجأة إيفان إيجناتيتش من وراء البيادر برفقة نحو خمسة من مشوّهي الحرب، وأمرنا بالذهاب معه إلى منزل الأمير. أطعناه رغماً عنّا، وسرنا إلى القلعة يُحيط بنا الجنود، ويتقدّمنا إيفان إيجناتيتش الذي قادنا مزهوّاً بانتصاره، يمشي مشية منتفج مدهشة.

دخلنا بيت الأمير. فتح إيجناتيتش الباب مُطلقاً صيحة انتصار:

- جئتُك بهما.

استقبلتنا فاسيليسا يغوروفنا:

- آخ، يا أبت، ما هذا الذي فعلتماه؟ كيف؟ ولماذا؟ جريمة قتل في

قلعتنا! اسجنهما حالاً يا إيفان كوزميتش! بيتر أندرييتش! أليكسي

إيفانيتش! هاتا سيفيكما، هيّا، هيّا! بالاشكا خُذي هذين السيفين إلى

المستودع. أنا لم أتوقّع منك هذا يا بيتر أندرييتش! ألا تخجل من

نفسك؟ دعنا من أليكسي إيفانيتش: هو طُرد من الحرس لقتله نفساً،

ولا يؤمن بالله، ولكن، أنت، ماذا دهاك؟ لماذا تحشر نفسك معه؟

وافق إيفان كوزميتش زوجته تمامًا، وقال:

- اسمع أنت، فاسيليسا يغوروفنا تقول الحقّ. المبارزات ممنوعة رسميًا في القانون العسكري.
- أخذت بالاشكا سيفينا في هذه الأثناء إلى المستودع. أنا لم أستطع أن أكتب ضحكتي. أما شفابرين فحافظ على جدّيته.
- «على الرغم من كلّ احترامي لك»، قال لها بيرود، «لا أستطيع إلا أن أقول إنك عبثًا تُزعجين نفسك وتُخضعيننا لحُكمك. اتركي هذا الأمر لإيفان كوزميتش، فهو عمله».
- «آه منك، يا أبت!»، قالت زوجة الأمر محتجّة، «ألا تعرف أن الزوج والزوجة روح واحدة وجسد واحد؟ ما بالك تتشاءب يا إيفان كوزميتش؟ ضعهما على الفور في مكانين منفردين، وامنع عنهما كلّ طعام غير الخبز والماء حتى يتخلّصا من حماقتهما. واطلب من الأب غيراسيم أن يفرض عليهما كفارة، ويلزمهما بطلب الغفران من الربّ والقسم على التوبة أمام الناس».
- لم يدر إيفان كوزميتش أيّ قرار يتّخذ. وبدأت ماريا إيفانوفنا شاحبة شحوبًا شديدًا للغاية. لكنّ العاصفة هدأت تدريجيًا، وهدأت زوجة الأمير، وألّزمت كلًّا منّا بتقبيل الآخر، ثم جاءتنا بالاشكا بسيفينا، وخرجنا من منزل الأمير في مظهر يوحى بأننا متصالحان، عند خروجنا رافقنا إيفان إيغنايتش.
- «ألم تخجل»، قلت له بلهجة غاضبة، «وأنت تشي بنا للأمير بعد وعدك لي بأنك لن تفعل ذلك؟».
- «يشهد الله أنني لم أخبر إيفان كوزميتش بالأمر»، أجابني، «فاسيليسا يغوروفنا هي التي أرغمتني على الاعتراف لها بكلّ ذلك، وهي التي عالجت الأمر كلّهُ من دون علم الأمير. فلنحمد الله على أن الأمور انتهت بهذا الشكل».
- قال هذه الكلمات وقفل عائدًا إلى المنزل، فبقينا أنا وشفابرين على انفراد.

- «قضيتنا لا يمكن أن تنتهي هكذا»، قلت له.
- «طبعًا»، أجاب شفايرين، «أنت يجب أن تدفع دمك ثمنًا لإهانتك لي، لكنهم، في الأغلب، سيقبونا، لذا لا بدّ لنا من التظاهر بضعة أيّام بأنّ خصومتنا انتهت. وداعًا».
- وهكذا افترقنا كأنّ شيئًا لم يكن.
- عند عودتي إلى منزل الأمير، جلست، كالعادة، إلى جانب ماريا إيفانوفنا. لم يكن إيفان كوزميتش في البيت، وكانت فاسيليسا يغوروفنا مشغولة بأعمالها المنزلية. أمّا نحن، فرحنا نتحدّث بصوت منخفض. حدّثني ماريا إيفانوفنا برقة عن القلق الذي سبّبته للجميع بشجاري مع شفايرين:
- لقد جمد الدم في عروقي حين أخبرونا أنّكما ستباززان بالسيف. ما أغرب جنس الرجال! إنهم، بسبب كلمة ستُنسى حتمًا بعد أسبوع، مستعدّون لتمزيق بعضهم بعضًا، والتضحية، ليس فقط بأرواحهم، وإنّما بضميرهم أيضًا وبسلامة أولئك الذين... غير أنّي واثقة من أنّ الذي تسبّب بهذا الشجار هو أليكسي إيفانيتش.
- ما الذي يجعلك تعتقدين ذلك يا ماريا إيفانوفنا؟
- لا شيء... إنّه يسخر دائمًا! أنا لا أحبُّ أليكسي إيفانيتش. أقرف منه للغاية. والغريب أنّي لا أريد أن ينفر منّي مهما كلّفني ذلك من ثمن. إنّ هذا يُقلقني ويُخيفني.
- وكيف تريه الآن يا ماريا إيفانوفنا؟ أهو معجب بك أم لا؟
- تلعثمت ماريا إيفانوفنا واحمرّ وجهها.
- أظنُّ أنّي أراه معجبًا بي.
- ولماذا تظنين ذلك؟
- لأنّه تقدّم لخطبتي.
- تقدّم لخطبتك؟ هو تقدّم لخطبتك؟ متى؟
- في العام الماضي. قبل قدومك بشهرين تقريبًا.

- وأنت رفضت ذلك؟

- دعني أوضح لك: أليكسي إيفانيتش إنسان ذكيّ طبعًا، ومن أسرة جيّدة، ويمتلك ثروة. ولكن، حين أفكر أنّ عليّ أن أبادل القبلة معه تحت الإكليل وأمام الجميع... لا، لن يكون ذلك أبدًا، أيّا كان الرفاه الموعود!

كلمات ماريا إيفانوفنا بصّرتني وفسّرت لي الكثير. لقد فهمت الآن سبب إصرار شفابرين على ذمّها والحطّ من شأنها بكلامه الخبيث. لا بدّ من أنّه لاحظ ميل كلّ منّا إلى الآخر فحاول التفريق بيننا. وبدت لي كلماته التي كانت سبب شجارنا أشدّ سفالة، لأنّها لم تكن سخرية وقحة، فظّة، بل افتراء متعمّدًا. فازدادت رغبتني في معاقبة صاحب اللسان السليط قوّة، وصرت أنتظر اللحظة المناسبة بنفاد صبر.

لم يطلّ انتظاري. ففي اليوم التالي، حين كنتُ جالسًا أنظم قصيدة رثاء وأقمض الريشة في انتظار ولادة القافية، طرق شفابرين نافذة غرفتي. تركت الريشة وحملت السيف وخرجت إليه.

- «لماذا نؤجّل؟»، قال لي، «إنّهم لا يراقبوننا. لنذهب إلى النهر. هناك لن يعيقنا أحد».

سرنا صامتين. مشينا في درب شديد الانحدار، توقّفنا عند حافة النهر تمامًا، وجردنا سيفينا من غمديهما. كان شفابرين أمهر منّي في استخدام السيف، لكنّي كنت أقوى وأكثر جرأة، فالمسيو بوبريه، الذي كان جنديًا ذات يوم، أعطاني عددًا من الدروس في المبارزة، وقد استخدمتها. لم يتوقّع شفابرين أن يجد فيّ خصمًا خطيرًا. ظللنا فترة طويلة نتبارز من دون أن يستطيع أيّ منّا إلحاق أذى بالآخر. وحين لاحظت أنّ شفابرين بدأ يضعف، شرعت أهاجمه بهمة أكبر ودفعته للتراجع حتى النهر تقريبًا. وفجأة، سمعت أحدهم يناديني باسمي، ورأيت سافيليتش يركض نحوي عبر الدرب الصخري... وفي هذه اللحظة نفسها شعرت بطعنة شديدة في الصدر، أسفل الكتف الأيمن، فسقطت فاقدًا الوعي.

## الفصل الخامس

### الحبُّ

آه منك يا بنت، يا بنت، يا جميلة،  
لا تتزوَّجي، يا بنت، في سنٍّ صغيرة.  
اسألني، يا بنت، أباك وأُمَّك،  
أباك وأُمَّك، والأسرة كُلُّها.  
اكتسبي، يا بنت، العقل والحكمة،  
واجعلي العقل والحكمة مهر زواجك.  
أغنية شعبية

مكتبة  
t.me/t\_pdf

إن وجدت أفضل مِنِّي نسيَني  
وإن وجدت أسوأ مِنِّي ذكّرَني.  
أغنية شعبية

حين أفقُتُ من الغيبوبة، ظللتُ بعض الوقت غائم الذهن، لا أفهم ماذا جرى لي. كنت راقداً في سرير، في غرفة لا أعرفها، وأشعر بضعف شديد، يقف أمامي سافيليتش حاملاً شمعة بين يديه، وأحدهم يَفُكُّ يحذر الضمادات الملفوفة حول صدري وكتفي. وبالتدريج بدأت الأفكار تتوضَّح في رأسي. تذكَّرت المباراة، وأدركت أنني جُرحت فيها. وفي تلك اللحظة أرسل الباب صريخاً.

- «ماذا؟ كيف حاله؟»، همس صوت ارتعش قلبي لسماعه.

- «ما زال على حاله»، أجاب سافيليتش متنهِّداً بحسرة، «ما زال غائباً عن الوعي لليوم الخامس».



- أردتُ أن ألتفت، لكنِّي لم أستطع.
- «أين أنا؟ من هناك؟»، قلت بصعوبة.
- اقتربت ماريا إيفانوفنا من سريري وانحنت عليّ.
- «ما بك؟ كيف ترى نفسك الآن؟»، سألتني.
- «الحمد لله»، أجبته بصوت ضعيف، «أهذه أنت يا ماريا إيفانوفنا؟  
قولي لي...»
- لم أستطع متابعة الكلام فصمتُ. أطلق سافيليتش صيحة ابتهاج، وغمرت وجهه علامات الفرح. راح يكرّر صيحته:
- أفاق من الإغماء! أفاق من الإغماء! الحمد لله يا مالك المُلْك! هيه،  
يا أبتِ بيتر أندرييتش! أنت أخفتني! الأمر ليس سهلاً! إنه اليوم  
الخامس...
- قطعت ماريا إيفانوفنا كلامه:
- لا تكلمه كثيرًا، يا سافيليتش، إنه ما زال ضعيفًا.
- خرجت من الغرفة وردّت الباب بهدوء. اضطربت أفكارِي. أنا، إذن في بيت الأمير، وقد دخلت عليّ ماريا إيفانوفنا. أردت أن أطرح بعض الأسئلة على سافيليتش، لكنّ العجز أشار برأسه ناهيًا، وسدّ أذنيه بإصبعيه. فأغمضت عينيّ متحسّرًا، وسرعان ما غرقت في النوم.
- حين استيقظت ناديت سافيليتش، فرأيت أمامي، بدلًا منه، ماريا إيفانوفنا. حيّاني صوته الملائكي. أنا لا أستطيع أن أعبر عن الشعور العذب الذي تملّكني في تلك اللحظة. أمسكتُ يدها وانحنت عليها أغمرها بدموع الحنان. لم تسحب ماشا يدها... وفجأة لمست شفتها خديّ فأحسست بقبلتها الحارة النضرة. سرّت في جسمي حرارة النار.
- «عزيزتي ماريا إيفانوفنا الطيِّبة»، قلت لها، «كوني زوجتي، اقبلي أن تمنحيني السعادة».
- انتبهت وتمالكت نفسها.

- «اهدأ، حلفتك بالله»، قالت لي وهي تسحب يدها من يدي، «أنت ما زلت في حال الخطر: قد ينتكئ الجرح. حافظ على نفسك من أجلي، على الأقل».

قالت ذلك وغادرت تاركة إياي في حالة من النشوة والحماسة. السعادة بعثتني إلى الحياة من جديد. ستكون لي! إنها تحبني! لقد ملأت هذه الفكرة كياني كله.

منذ تلك اللحظة، صارت حالتي تتحسن يوماً بعد يوم. كان طبيبي حلاق الفوج، فلم يكن من معالج غيره في القلعة، وهو، والحمد لله، لم يكن يتذاكى. الشباب ونقاء الطبيعة عجلاً في شفائي. وكانت أسرة الأمر كلها تعني بي. لازمتني ماريا إيفانوفنا باستمرار، كنت، طبعاً، أنتهز كل فرصة ومناسبة لمتابعة المكاشفة التي انقطعت، وكانت ماريا إيفانوفنا تصغي إليّ بصبر. وقد اعترفت لي، من دون أي تصنع، بأن قلبها ميال إليّ، وأن أبويها سيكونان طبعاً سعيدين لسعادتها.

- «ولكن فكر جيداً»، أضافت، «ألن يلقى زواجنا اعتراضاً من والديك؟». دفعني كلامها إلى التفكير في الأمر. لم أكن أشك في حنان أمي، لكنني، في ضوء معرفتي لنمط تفكير أبي، شعرت بأن حبي لن يحظى بالكثير من عطفه، وسيُعده نزوة من نزوات الشباب. اعترفت بذلك بإخلاص لماريا إيفانوفنا، لكنني قرّرت أن أكتب لأبي، بأبلغ أسلوب ممكن، طالباً منه مباركته. أريت الرسالة لماريا إيفانوفنا التي وجدتها مقنعة جداً ومؤثرة، وبدت واثقة للغاية من نجاحها، فاستسلمت لمشاعر قلبها الرقيق بكل وداعة شبابها وحبها.

بعد أيام قليلة من شفائي تصالحت مع شفايرين. قال لي إيفان كوزميتش، يلومني بسبب المباراة:

- آه منك يا بيتر أندرييفتش! من واجبي أن أسجنك، لكنك لقيت عقابك من دون سجن. أمّا أليكسي إيفانيتش فسجين عندي في مستودع القمح تحت الحراسة، وسيفه في خزانة مقفلة عند فاسيليسا يغوروفنا. دعه يقبع هناك ويفكر، عساه يندم على ما فعل.

لقد كنتُ سعيدًا للغاية، لذا لم يكن قلبي يتسع للشعور بالكراهية، بل رحت أطلب العفو عن شفابرين، فقرّر الأمير الطيّب، بموافقة زوجته، إطلاق سراحه وزارني شفابرين معربًا عن أسفه العميق لما حدث بيننا، ومعترفًا بأنّه مذنب في كلّ ذلك، وطالبًا منّي أن أنسى ما كان. ولأنّي بطبعي لا أضمر الحقد، غفرت له بإخلاص شجارنا، والجرح الذي أصابني منه. ورأيت في افترائه تعبيرًا عن غضبه لعزّة نفسه، ولجبه المرفوض، فسامحت بكلّ ما في روحي من سخاء مناسي التعيس في الحبّ.

تماثلت للشفاء سريعًا، وصار باستطاعتي الانتقال إلى مسكني. كنت أنتظر بنفاد صبر الردّ على رسالتي، خائفًا من التعلّق بالأمل، ومحاولًا أن أحمّد في نفسي كلّ توقّع محزن. لم أكن قد تكلمت في الأمر بعد، مع فاسيليا يغوروفنا وزوجها، ولكنّ طرح الموضوع معهما ما كان ليدهشهما، فلم أكن أنا، أو ماريا إيفانوفنا، نحاول أن نخفي عواطفنا عنهما، وكنا واثقين سلفًا من موافقتهما على زواجنا.

وأخيرًا، دخل عليّ سافيليتش صباح ذات يوم حاملًا في يده رسالة. انتزعته منه بلهفة. العنوان مكتوب بخطّ والدي، وهذا ما جعلني أتوقّع شيئًا مهمًّا، لأنّي كنت في العادة أتلقّي الرسائل من أمّي، أمّا أبي فيكتفي بكتابة بضعة أسطر في ذيل رسالتها. ظللت طويلًا لا أجروّ على فتح المغلّف، رحت أتأمل العنوان المكتوب بخطّ فخم: «إلى ابني بيتر أندرييفيتش غرينيف، في مقاطعة أرينبورغ، في قلعة بيلوغورسك». حاولت أن أفهم من خلال الخطّ المزاج الذي كتبت به الرسالة، لكنّي قرّرت أخيرًا فتح المغلّف، فأدركت من السطور الأولى أنّ كلّ شيء ذهب أدراج الرياح. أمّا محتوى الرسالة فكان ما يلي:

ولدي بيتر

رسالتك التي تطلب فيها مباركتنا نحن والديك، وموافقتنا على زواجك من ماريا إيفانوفنا ابنة ميرونوف، استلمناها في الخامس عشر من هذا الشهر، وأنا لا أنوي فقط إبلاغك عدم مباركتي، وعدم موافقتي، بل أنوي أيضًا أن

أجني إليك فأعاقبك على طيشك وألقنك درسًا كما يُلقن الأطفال، بغضّ النظر عن رتبة ضابط التي تحملها، فقد أثبت أنك لست أهلاً بعد، لحمل السيف الذي أُعطي لك للدفاع عن الوطن، لا لخوض المبارزات مع الأولاد أمثالك. أنا سأكتب على الفور لأندريه كارلوفيتش، أطلب منه أن ينقلك من قلعة بيلوغورسك، إلى أيّ مكان بعيد عنها، عسى أن يخلّصك ذلك من حماقاتك. حين سمعت أمك بالمبارزة وبأنك جريح، مرضت حزناً، وهي الآن طريحة الفراش. تُرى من أيّ نوع من الرجال ستكون؟ أنا أصلي للربّ وأدعو عساك تنصلح، رغم أنّي لا أجرؤ فأمل أن يشملني برحمته الواسعة.

أبوك آ. غ.

أثارت قراءة هذه الرسالة مشاعر مختلفة في نفسي. التعابير القاسية التي لم يخل أبي بها أشعرتني شعوراً عميقاً بالإهانة. وبدت لي اللهجة المتعالية التي تكلم بها عن ماريا إيفانوفنا، غير لائقة، وغير عادلة أيضاً. وأرعبتني فكرة نقلي من قلعة بيلوغورسك. لكنّ أكثر ما أحزني هو خبر مرض أمي. صبيت جام غضبي على سافيليتش، فقد كنت واثقاً من أنّه من أخبر والديّ بالمبارزة. رحلت أسير جيئة وذهاباً في غرفتي الضيقة، ثم توقفت وقلت وفي عيني نظرة تهديد:

- يبدو أنّك لم تكتفِ بكوني جرحت بسببك، وظللت شهراً كاملاً على حافة القبر، فهذا أنتذا تريد أن تُميت أمي أيضاً.

ذهل سافيليتش وكأنّ صاعقة نزلت عليه.

- «ارحمني يا سيّدي، ما هذا الذي تقوله؟»، قال وهو يكاد يبكي، «أنا السبب في جرحك! الله يعلم أنّي ركضت لأحميك بصدري من سيف أليكسي إيفانيتش! الشيخوخة الملعونة لم تساعدني. وماذا فعلت لإيذاء أمك؟».

- «ماذا فعلت؟»، أجبتّه، «من طلب منك أن تكتب تقارير عني! هل عيّنوك جاسوساً عليّ؟».

- «أنا؟ أنا كتبت تقارير عنك؟»، أجاب سافيليتش بعينين غارقتين

بالدموع، «يا إلهي، يا ربّ السماوات! هاك، إذن، اقرأ ما كتبه لي  
السيد، وسترى كيف كنت أكتب التقارير عنك».

قال ذلك وأخرج من جيبه رسالة قرأت فيها ما يلي:

يجب أن تخجل يا كلب، يا عجوز، من مخالفتك لتوجيهاتي الصارمة،  
وعدم كتابتك لي عن ابني بيتر أندرييفيتش، ومن اضطرار الغرباء إلى  
إخباري بأعماله الطائشة. أهكذا تؤدّي واجبك، وتنفّذ إرادة سادتك؟  
أنا سأرسلك يا كلب، يا عجوز، لترعى الخنازير عقابًا لك على كتمانك  
الحقيقة عني وممالأتك للفتى. يجب عليك، فور استلام أمري هذا، أن  
تكتب لي عن حالته الصحيّة الآن، فقد أبلغوني أنّها آخذة بالتحسّن، وعن  
موضع جرحه بالضبط، وعمّا إذا كانوا قد عالجه جودًا.

كان واضحًا أنّ سافيليتش بريء، لم يخطئ في حقّي، وأنّي أهنته بلومي  
وشكوكي من دون وجه حقّ. طلبت منه أن يسامحني، لكنّ غضب العجوز لم يهدأ.

- «هذا، إذن، ما جنيته في حياتي»، راح يكرّر، «هذا ما نلته من سادتي  
مكافأة لي على خدماتي! أنا كلب عجوز، وراعي خنازير، وأنا، إضافة  
إلى ذلك، سبب جرحك! لا، يا أبت بيتر أندرييفيتش! الملعون ليس  
أنا، بل هو المسيو المسؤول عن ذلك كلّ: لقد علّمك الضرب وطعن  
الهواء بالأسياخ الحديدية، وخطب الأرض بالأقدام، وكأنّ الطعن في  
الهواء والخطب بالأقدام يحميان من إنسان شرير! ما كان ينقصنا غير  
استئجار ذلك المسيو وتبديد نقودنا».

لكن، من ذاك الذي تطوّع لإخبار والدي عن سلوكي؟ الجنرال؟ أستبعد  
ذلك، فهو لا يبدو مهتمًا جدًّا بأبي، أمّا إيفان كوزميتش فما كان ليعدّ الإبلاغ  
عن المباراة أمرًا ضروريًا. حرث بين التخمينات. ثمّ تركّزت شكوكي على  
شفابرين، إنّه المستفيد الوحيد من الوشاية بي، فهي قد تؤدّي إلى إبعادي عن  
القلعة وانقطاع صلتي بأسرة أميرها. ذهبت إلى ماريا إيفانوفنا لإبلاغها بالأمر  
كلّه. استقبلتني عند المدخل.

- «ماذا أصابك؟»، سألتني حين رأته، «ما أشدَّ شحوبك!».
- «لقد انهار كلُّ شيء!»، أجبتها وأنا أعطيها رسالة والدي، فامتقع لونها أيضًا.

قرأت الرسالة ثم أعادتها لي بيد راجفة، وقالت بصوت مرتعش:

- يبدو أن ذلك ليس نصيبي... والداك لا يريداني في أسرتهما. كلُّ شيء بمشيئة الله! الله أعلم بما هو خير لنا. ما باليد حيلة، يا بيتر أندرييتش. أتمنّى على الله أن تسعد أنت على الأقل...
- «هذا لن يكون!»، صرختُ وأنا أمسك يدها، «أنت تحيِّيني، وأنا مستعدُّ لفعل كلِّ شيء. دعينا نذهب ونرتمي على أقدام والديك، إنهما من البسطاء، وليسا من ذوي القلوب القاسية... سيباركاننا، وستكُلِّل... وأنا واثق أننا سنستطيع أن نرقِّق قلب والدي مع الزمن، ستقف أمي إلى جانبنا، وسيغفر لي أبي»...
- «لا، يا بيتر أندرييفيتش»، أجابت ماشا، «أنا لن أتزوَّج من دون مباركة والديك. من دون مباركتهما لن تكون سعيدًا. لنسلم أمرنا إلى الله، فإذا وجدتَ عروسًا أخرى، إذا أحببت فتاة أخرى، فبرعاية الله يا بيتر أندرييتش، أما أنا فسأدعو لكما»...

بكت قبل أن تكمل كلامها، وابتعدت عني. أردت اللحاق بها إلى الغرفة، لكنني شعرت بعجزني عن تمالك نفسي، فعدت إلى البيت.

جلستُ غارقًا في تفكير عميق، وفجأة قطع سافيليتش عليَّ تفكيري.

- «هالك يا سيّدي»، قال لي وهو يعطيني ورقة مكتوبة، «وانظر ما إذا كنت أنا أكتب تقارير بحق سيّدي وأسعى إلى تعكير العلاقة بين الابن وأبيه».

أخذتُ الورقة من يده، ما فيها كان جواب سافيليتش على الرسالة التي وصلته. وفيما يلي ما جاء فيه كلمة كلمة:

وليَّ الأمر أندريه بتروفيتش

أبانا الرحيم

وصلتني رسالتكم الكريمة التي تعبّرون فيها عن غضبكم عليّ، أنا عبدكم وتوبّخونني لأنني لا أنفد توجيهات سيادتكم. أنا، في الحقيقة، لست كلِّبًا عجوزًا، بل أنا خادمكم المخلص الذي يطيع أوامر سادته والذي خدمكم دائمًا بكلّ طاقته، وعاش هكذا حتى شاب شعر رأسه. أنا لم أخبركم بجرح بيتر أندرييتش كي لا أخيفكم عبثًا، وقد سمعت أنّ سيّدتي، أمّنا، أفدوتيا فاسيلفنا رقدت مريضة من الخوف، وأنا أصلّي للرّب على نيّة شفائها. أمّا بيتر أندرييتش فقد جرح كتفه من الأمام تحت عظم الترقوة مباشرة، وعمق الجرح قريب من عقلة ونصف عقلة إصبع. وقد قضى فترة علاجه في منزل أمير القلعة الذي نقلناه إليه من ضفّة النهر، وعالجه الحلاق في القلعة ستيان بارامونوف، بيتر أندرييتش تعافى الآن والحمد لله، ولا أجد ما أكتبه لكم عنه إلّا كلّ خير. ما أسمعه هو أنّ القادة راضون عنه، وفاسيليسا يغوروفنا تعامله كأنّه ابنها. أمّا العمل الطائش الذي قام به فلا يلام عليه الشاب: إنّ للحصان أربع قوائم ومع ذلك يتعثّر ويكبو. لقد وعدتم أن ترسلوني لرعي الخنازير. أنا طوع إرادتكم السامية، وفي الختام أحثّيكم تحيّة العبد لسيدّه.

خادمكم المخلص

أرخبب سافيلين

لم أستطع إلّا أن أبتمس عدّة مرّات وأنا أقرأ ما كتب العجوز الطيّب. كنت في حالة لا تسمح لي بالإجابة عن رسالة أبي. وبدا لي ما ورد في رسالة سافيليتش كافيًا لطمأنه أمّي، لذا لم أكتب أيّ ردّ.

منذ ذلك الحين تبدّلت أوضاعي: ماريا إيفانوفنا امتنعت تقرّيبًا عن التحدّث إليّ، وصارت تتهرّب من لقائي، وبات منزل الأمير مكانًا باردًا بالنسبة إليّ، فاعتدت بالتدرّج على قضاء الوقت وحيدًا في مسكني. في البداية لامتنى فاسيليسا يغوروفنا على ذلك، لكنّها تركتني وشأني حين لمست عنادي، أمّا إيفان كوزميتش، فلم أكن ألتقيه إلّا عندما تقتضي الخدمة ذلك. وصارت لقاءاتي

وشفابرين نادرة وباردة، لا سيّما وقد لاحظت أنّه يضمّر لي كرهًا، عزّز شكوكي السابقة فيه. حياتي لم تعد تُطاق. غرقت في أفكار سوداء غدّتها العزلة والبطالة. واشتعل حُبّي في وحدتي وازداد بمرور الوقت إحساسي بوطأته. وفقدت الرغبة في القراءة وفنّ الكلمة. انهارت نفسي، فخفت أن أصاب بالجنون، أو انغمس في المجون. غير أنّ أحداثًا مفاجئة هزّت نفسي هزّة قويّة خيرة، وتركت أثرًا مهمًّا في حياتي كلّها.



## الفصل السادس

### تمرّد بوغاتشوف

أنتم، أيّها الفتيان، استمعوا  
إلى ما نقوله نحن المسنين.  
أغنية

قبل أن أبدأ وصف الأحداث الغربية التي كنت شاهداً عليها، يجب أن أقول بضع كلمات عن الوضع الذي عاشته مقاطعة أرينبورغ في أواخر عام 1773. سكن هذه المقاطعة الشاسعة، الغنيّة، كثير من الشعوب نصف البدائية التي لم تخضع للحكّام الروس إلّا من زمن غير بعيد. استياؤهم الدائم، وعدم اعتيادهم على القوانين والحياة المدنية، والاستهتار والقسوة، كلّ ذلك تطلّب من الحكومة رقابة مستمرّة كي تُبقيهم في طاعتها، فبنت القلاع في أماكن عدّتها مريحة، غالبية سكّانها من القوزاق المالكيّن لضفاف نهر ياتسك منذ القدم. لكنّ قوزاق نهر ياتسك الذين أنيطت بهم مهمّة المحافظة على هدوء المنطقة وأمنها، صاروا منذ فترة رعايا غير هادئين، وخطرين بالنسبة للحكومة، ففي عام 1722 حدث احتجاج في بلدتهم الرئيسيّة، كان سبباً لالتّخاذ الجنرال ميجر تراوينبيرغ تدابير قاسية بهدف إخضاع الجنود. وكانت النتيجة قتل تراوينبيرغ بطريقة وحشية، وفوضى في الإدارة، لكنّ التمرّد أُخمد أخيراً بقذائف المدافع والتدابير العقابية القاسية. حدث ذلك قبل قدومي إلى قلعة بيلوغورسك بوقت قصير. عند وصولي كان كلّ شيء هادئاً، أو بدا كذلك. الرئاسة صدّقت بسهولة التوبة الغامضة

للمتمردين المراوغين، الذين كظموا غضبهم وراحوا ينتظرون الفرصة المناسبة لتجديد الفوضى.

أعود الآن إلى متابعة القصة.

في مساء أحد الأيام المصادف الأول من تشرين الأول (أكتوبر) عام 1773، كنت جالسًا في منزلي أسمع عويل الريح الخريفية، وأنظر عبر النافذة إلى السحب المتراكضة قرب القمر، جاؤوا لاستدعائي إلى مكتب الأمير. توجهت إلى هناك فورًا. عند الأمير وجدتُ شفايرين وإيفان إيجناتيتش والوكيل القوزاقي. فاسيليسا يغوروفنا وماريا إيفانوفنا لم تكونا في الغرفة. بادلني الأمير التحية وقد بدت عليه علامات القلق. أغلق الباب وطلب من الجميع الجلوس ما عدا الوكيل الذي ظل واقفًا عند الباب، ثم أخرج من جيبه ورقة، وقال لنا:

- أيُّها السادة الضباط، هناك خبر مهم! اسمعوا ماذا كتب الجنرال.

وضع نظارته على عينيه وقرأ ما يلي:

السيد أمر قلعة بيلوغورسك، النقيب ميرونوف.

سرِّي

أبلغكم أن قوزاقيًا من منطقة الدون، هو المنشقُ يميليان بوغاتشوف، هرب من السجن وأقدم على وقاحة لا تغتفر بانتحاله اسم الإمبراطور المرحوم بطرس الثالث، وجمع حوله عصابة شريرة، وأثار الاضطرابات في قرى منطقة بايتسك، واستولى على عدّة حصون ونهبها، ونشر السلب والقتل في كلِّ مكان. لذلك عليكم أيُّها السيد النقيب، اتّخاذ الإجراءات اللازمة لصدِّ ذلك الدعيِّ المجرم، وتدميره تمامًا إذا هاجم القلعة التي تحت إمرتكم.

قال الأمير وهو ينزع النظارة ويضع الورقة جانبًا:

- اتّخاذ الإجراءات اللازمة! اسمعوني! الكلام سهل، لكنَّ هذا الشرِّير يبدو قويًّا، ونحن ليس في إمرتنا سوى مئة وثلاثين شخصًا، إذا لم نأخذ في الحسبان القوزاق الذين لا يُعتمد عليهم، أنت لست مقصودًا بهذا الكلام يا ماكسيميتش، (ضحك الوكيل ضحكة مكتومة). إنّما ما

باليَد حيلة أيُّها السادة الضَّبَّاط! استعدُّوا، نَظِّمُوا الحراسة والدوريات الليلية. وفي حال مهاجمتنا أغلقوا البوابات وانشروا الجنود. وأنت، يا ماكسيميتش، راقب قوزاكك بشدَّة، تفقِّدوا المدفع ونظِّفوه جيِّدًا. والأهمُّ أن تفعلوا ذلك كلَّه بسرِّيَّة، لكي لا يعرف أحد بالأمر قبل الأوان.

أصدر إيفان كوزميتش هذه الأوامر ثم صرفنا. خرجت مع شفابرين ورحنا نناقش ما سمعناه.

- «ما رأيك؟ كيف، برأيك سينتهي الأمر؟»، سأَلته.

- «الله أعلم»، أجباني، «سنرى. أنا لا أرى أيَّ شيء مهمٍّ حتى الآن. أمَّا إذا... هنا شرد بأفكاره وراح يصفِّر لحن مقطع من أوبرا فرنسية.

انتشر خبر ظهور بوغاتشوف في القلعة كلَّها، رغم جميع إجراءاتنا لكتمانه. لم يكن إيفان كوزميتش، ليطلع بحال من الأحوال زوجته، رغم احترامه الشديد لها، على السرِّ العسكري الذي اتَّمن عليه، فهو حين تسلَّم رسالة الجنرال صرف بمهارة فائقة فاسيليسا يغوروفنا، زاعمًا أنَّ الأب غيراسيم حصل من أرينبورغ على أخبار عجيبة يتكتم عليها، فرغبت فاسيليسا يغوروفنا في الحال بزيارة زوجة الأب غيراسيم، واصطحبت معها، بناء على اقتراح إيفان كوزميتش، ماشا كيلا تعاني الضجر إذا بقيت وحدها.

حين صار إيفان كوزميتش السيِّد الوحيد في المنزل، أرسل في طلبنا حالًا، بعد أن سجن بالاشكا في المستودع كي لا تسمع ما يدور من حديث.

عادت فاسيليسا يغوروفنا إلى البيت من دون أن تحصل على أيَّة أخبار من زوجة الأب غيراسيم، فعرفت أنَّ اجتماعًا عقد عند إيفان كوزميتش وأن بالاشكا كانت مسجونة في فترة غيابها. أدركت أنَّ زوجها خدعها، فشرعت تحقِّق معه. لكنَّ إيفان كوزميتش كان مستعدًّا سلفًا لهجومها. لم يرتبك أبدًا، بل أجاب شريكته الفضولية بنشاط:

- اسمعيني يا ماما، لقد حاولت النسوة إشعال المواقد بالقش، ولمّا كان ذلك يمكن أن يتسبّب بكارثة، فقد أصدرت أمراً صارماً بآلا تُشعل النسوة المواقد بالقش بعد اليوم، وإشعالها بأوراق السرو الإبرية.
- ولماذا كانت بالاشكا مسجونة؟

لم يكن إيفان كوزميتش مستعداً لسؤال كهذا، فتلعثم ودمدم بكلمات غير متناسقة. أدركت فاسيليسا يغوروفنا أنّ زوجها يراوغ، وفهمت أنّها لن تحصل منه على أيّ شيء، فكفّت عن طرح الأسئلة، وراحت تتكلّم عن الخيار المملّح الذي خلّته أكلينا بامفيلوفنا بطريقة فريدة تماماً. طوال الليل لم تستطع فاسيليسا يغوروفنا أن تنام، ولم تستطع أن تخمّن ما الذي يدور في رأس زوجها ولا يحقّ لها أن تعرفه.

رأت في اليوم التالي، وهي عائدة من الصلاة، إيفان إيغنايتش الذي كان يُخرج من سبطانة المدفع خرّفاً وحصى وملاقط وأظلاف حيوانات وغير ذلك ممّا حشره الأطفال في داخلها. «ما معنى هذه الاستعدادات العسكرية؟»، قالت زوجة الأمر في سرّها، «أتراهم يتوقّعون أن يهاجمهم القرغيزيون؟ هل من المعقول أن يُخفي عنّي إيفان كوزميتش مثل هذه التفاهات؟». نادى إيفان إيغنايتش وهي مصمّمة بحزم على أن تعرف منه السرّ الذي عذّب فضولها الأنثوي.

وجّهت فاسيليسا عدّة ملاحظات تتعلّق بإدارة شؤون المنزل، كما يفعل المحقّقون حين يوجّهون أسئلة لا علاقة لها بالموضوع كي يشتّتوا حذر الشخص الذي يستجوبونه. بعد ذلك صمتت بضع دقائق، وتنهّدت بعمق، ثم قالت وهي تهزّ رأسها:

- يا إلهي! ما هذه الأخبار! ترى ما نتيجة ذلك؟
- «إيه يا ماما! الله كريم»، أجاب إيفان إيغنايتش، «عندنا جنود كثيرون، وبارود كثير، والمدفع نظّفته. سندحر بوغاتشوف بإذن الله. الله لن يخذلنا، والخنزير لن يأكلنا!».
- «وما نوع هذا الشخص، بوغاتشوف؟»، سألت زوجة الأمر.

هنا أدرك إيفان إيغنايتش أنه فضح السرّ، فعضّ على لسانه، لكنّ إدراكه جاء متأخراً، فقد أكرهته فاسيليسا يغوروفنا على الاعتراف بكلّ شيء، وأعطته وعداً بالآلأ تخبر أحداً بذلك.

التزمت فاسيليسا يغوروفنا بوعدھا ولم تبح لأحد بكلمة، ما عدا زوجة راعي الكنيسة، وذلك فقط لأنّ بقرتها ما زالت ترعى في السھب، حيث يمكن أن يختطفھا الأشرار.

سرعان ما صار الجميع يتكلّمون عن بوغاتشوف. كانت الأحاديث متنوّعة، فأرسل الأمير الوكيل بمهمّة الاستطلاع جيّداً ومعرفة ما يدور في البلدات والحصون المجاورة. عاد الوكيل بعد يومين وأعلن أنّه رأى في السھب، على بُعد حوالي ستين فرسخاً من القلعة، نيراناً كثيرة، وسمع من البشكيرين أنّ قوّة، لم يروا مثلها من قبل، قادمة، لكن، عموماً لا يستطيع أن يقدّم أيّة أخبار مؤكّدة لأنّه لم يجرؤ على متابعة التقدّم نحو تلك النيران.

لوحظ في القلعة هذه الأثناء أنّ هياجاً غير عادي ظهر بين القوزاق، كانوا يحتشدون في مجموعات صغيرة في كل الشوارع، يتحدّثون بصوت خافت ثم يفترقون حين يرون خفيّراً أو جندياً من جنود الحامية. دسّ الأمير بينهم مخبرين، فجاءه يولاي، وهو كالميكيّ اعتنق المسيحية، بتقرير مهمّ، تبين بحسب يولاي، أنّ الأخبار التي نقلها الوكيل كاذبة، وأنّ القوزاقي المراوغ أخبر رفاقه، حين عاد، بأنّه زار المتمرّدين، وأنّه مثل أمام قائدهم نفسه، وأنّ القائد سمح له بتقبيل يده وحادثه طويلاً. وضع الأمير الوكيل تحت الحراسة على الفور، وعيّن يولاي في مكانه. استقبل القوزاقيون هذا الخبر باستياء ظاهر. احتجّوا بصوت عالٍ وسمعهم إيفان إيغنايتش نفسه، وهو ينفذ قرار الأمير، يقولون: «ستنال عقابك يا جرد الحامية!». في ذلك اليوم نفسه أراد الأمير أن يستجوب الوكيل، لكنّ الوكيل هرب من حرّاسه بمساعدة أنصاره على ما يبدو.

وزاد ظرف جديد من قلق الأمير، فقد اعتقل بشكيريّ يحمل مناشير تحضّ على الثورة، ففكّر الأمير بجمع ضباطه مرّة ثانية لمناقشة هذا الحدث. لكنّه أراد

قبل ذلك، إبعاد فاسيليسا يغوروفنا بحجة مقنعة. لقد كان إيفان كوزميتش رجلاً مستقيماً للغاية وصادقاً، ولذا لم يستطع تلفيق حجة جديدة غير تلك التي سبق أن استخدمها.

- «اسمعيني يا فاسيليسا يغوروفنا»، قال لها وهو يتنحّح، «يقولون إنَّ الأب غير اسيم قد حصل من المدينة على»...

- «كفى كذباً يا إيفان كوزميتش!»، قاطعته زوجته، «أنت، كما أظنُّ تنوي عقد اجتماع في غيابي لمناقشة أمر يميليان بوغاتشوف، فلا تحاول خداعي مرّة ثانية!».

- «حسناً، يا ماماشا»، قال لها، «ابقي، ما دمتِ تعرفين كلَّ ذلك، وسناقش الأمر في حضورك».

- «هذا ما يجب أن تفعله يا أبتِ»، أجابته، «لا أن تتحايل. أرسل في طلب الضباط».

اجتمعنا مرّة ثانية، وقرأ لنا إيفان كوزميتش، في حضور زوجته، منشور بوغاتشوف، المكتوب بقلم قوزاقيّ نصف متعلّم، يُعلن فيه عن نيّته الهجوم فوراً على قلعتنا، ويدعو القوزاق والجنود إلى الانضمام لعصابته، ويطلب من الضباط عدم المقاومة مهدّداً بإعدامهم في حال عدم استجابتهم. كان المنشور مكتوباً بتعابير فظة معبّرة، تخلق انطباعاً خطيراً في عقول الناس البسطاء.

- «يا له من سافل!»، صرخت زوجة الأمر، «ما الذي يتجرأ ويطلبه منّا أيضاً؟ أترأه يريدنا أن نخرج لاستقباله ونضع راياتنا عند قدميه؟ آه منه، ابن الكلب! أترأه لا يعرف أنّنا، والحمد لله، في الخدمة العسكرية منذ أربعين عاماً وقد رأينا فيها ما يكفي؟ أ يوجد حقاً قادة يطيعون قاطع الطريق هذا؟».

- «لا أعتقد أن هناك من أطاعه»، أجاب إيفان كوزميتش، «لكنني سمعت أن هذا الشرير استولى على حصون كثيرة».

- «يبدو أنّه قويٌّ حقّاً»، قال شفابرين.

- «سنعرف الآن قوّته الحقيقية»، قال الأمير، «هاتي مفاتيح العنبر يا فاسيليسا يوغوروفنا. إيفان إيغنايتش، أحضر البشكيري، ومُرّ يولاي أن يُحضر السياط».

- «مهلاً يا إيفان كوزميتش»، قالت زوجة الأمير وهي تنهض من مكانها، «دعني آخذ ماشا من البيت إلى مكان آخر، حتى لا تسمع الصراخ فتشعر بالخوف. وأنا، إذا أردت الحقّ، لا أحبّ الاستجوابات. أتمنّى لكم التوفيق».

في الماضي، كان التعذيب متجذراً في إجراءات المحاكمة، ولذا فإنّ الأمر الذي منعه بقي زمناً طويلاً غير فعّال، فقد ظنّوا أنّ اعتراف المتّهم شخصياً شرط أساسي لوقف تعذيبه، مع أنّ هذه الفكرة ليست من دون أساس فحسب، بل هي أيضاً مناقضة تماماً للتفكير الحقوقي السليم، إذ ما دام نفي المتّهم لا يُعدّ دليلاً على براءته، فمن الأحرى أن يكون اعترافه أقلّ دلالة على إدانته. أنا ما زلت حتى الآن أسمع من قضاة كبار أنّهم يرغبون في القضاء على هذه العادة الوحشية. أمّا في زماننا فلا أحد يشكّ في ضرورة التعذيب، لا بين القضاة، أو بين المتّهمين. وهكذا لم يدهش أمر الأمير أيّاً ممّا أو يقلقه. ذهب إيفان إيغنايتش لإحضار البشكيري المسجون في العنبر عند زوجة الأمير، وبعد دقائق أحضر الأسير إلى الممرّ المؤدّي إلى مكتب الأمير، الذي وجّه بإدخاله.

اجتاز البشكيري العتبة بصعوبة (كانت رجلاه مقيدتين)، ثم خلع قبّعته العالية ووقف عند الباب. نظرت إليه فارعدت. أنا لن أنسى هذا الإنسان أبداً. بدا في سنّ تزيد على السبعين عاماً. كان من دون أنف، ومن دون أذنين. رأسه حليقة، وقد نمّت له بضع شعيرات شيباء بدل اللّحية، كان قصير القامة، نحيلًا، محنيّ الظهر، لكنّ عينيّه الضيّقتين ما زالتا تلتمعان كشهب النار.

- «إيخي»، قال الأمير حين عرف من خلال علاماته المخيفة أنّه واحد من متمرّدي عام 1741، «يبدو أنّك أيّها الذئب العجوز، قد وقعت من قبل في فخاخنا. أنا أعتقد أنّ هذه ليست المرّة الأولى التي تتمرّد

فيها، ما دامت رأسك مخلوقة هذه الحلاقة الناعمة. اقترب وحديثي من أرسلك إلينا؟».

ظلَّ البشكير صامتًا ينظر إلى الأمر نظرة من لا يفهم شيئًا.

- «ما بالك لا تجيب؟»، تابع إيفان كوزميتش، «أترأى لا تفقه شيئًا باللغة

الروسية! يولاي، اسأله بلغتك: من أرسله إلى قلعتنا؟».

كرَّر يولاي سؤال إيفان كوزميتش باللغة التترية. لكنَّ البشكير نظر إليه نظرتة السابقة نفسها، ولم ينطق بكلمة.

- «طيب»، قال الأمر، «أنت عندي ستكلم. يا شباب انزعوا عنه هذا

الرداء المقلَّم الغبيّ، وطرّزوا ظهره. تأكد يا يولاي من أنكم تفعلون ذلك جيّدًا!».

شرع اثنان من مشوّهي الحرب بنزع ملابس البشكير. فارتسمت على وجه ذلك التعيس علامات القلق. راح يتلفّت إلى جميع الجهات كوحش صغير وقع بين أيدي أطفال. لكن، حين أمسك أحد مشوّهي الحرب بيديه، ووضعهما حول رقبته، ثم حمل العجوز على كتفيه بينما حمل يولاي السوط ولوّح به في الهواء، حينذاك أطلق البشكير صرخة ضعيفة متوسّلة، وأحنى رأسه فاتحًا فمه الذي لم يكن فيه من اللسان سوى قطعة لحم صغيرة تتحرّك.

حين أتذكّر أنّ هذا حدث في حياتي، وأنيّ عشت فترة حكم الإمبراطور ألكسندر السعيدة وما زلت، لا أستطيع إلّا أن أدهش من سرعة نجاحات التنوير وانتشار قواعد الحبّ الإنساني. أيّها الشاب! تذكّر، إذا وقعت كتاباتي بين يديك، أنّ أفضل التحوّلات وأبقاها هي نتيجة تلك التي تقوم على تهذيب الطباع من دون أيّة هزّات عنيفة.

صُنع الجميع.

- «حسنًا»، قال الأمر، «يبدو أنّنا لن نحصل على شيء مفيد منه. يولاي،

خذ البشكير إلى العنبر. أمّا نحن، أيّها السادة فسنبقى لتحدث في

بعض الأمور».



كُنَّا نتناقش حول وضعنا، حين دخلت فجأة، فاسيليسا يغوروفنا إلى الغرفة وهي تلهث وقد بدا عليها القلق الشديد.

- «ماذا أصابك؟»، سأل الأمر دهشًا.

- «مصيبة، يا أبتِ!»، أجابت فاسيليسا يغوروفنا، «لقد استولوا على نيجينزورنايا صباح اليوم. العامل عند الأب غيراسيم عاد لتوّه من هناك، وقد رأى كيف اجتاحتها. شنقوا الأمر هناك وجميع الضباط، وأخذوا الجنود كلّهم أسرى. ولن يطول الوقت حتى يصل هؤلاء الأشرار إلى هنا».

الخبر المفاجئ صعقني. كنت أعرف أمر قلعة نيجينزورنايا. هو رجل هادئ متواضع شاب، قدم قبل شهرين من أرينبورغ مع زوجته الشابة، ونزل ضيفًا عند إيفان كوزميتش. قلعة نيجينزورنايا تبعد عن قلعتنا خمسة وعشرين فرسخًا. ولذا كان علينا أن نتوقع هجوم بوغاتشوف بين ساعة وأخرى. تخيلت مصير ماريا إيفانوفنا فشعرت بقلبي يكفّ عن الخفقان.

- «اسمع، يا إيفان كوزميتش!»، قلت للأمر، «إنّ واجبنا أن ندافع عن القلعة حتى آخر نفس، هذا أمر لا جدال فيه، لكن، من واجبنا أن نفكّر في أمن النساء. أرسلهن إلى أرينبورغ إذا كانت الطريق ما تزال آمنة، أو إلى قلعة نائية حصينة، لا يستطيع الأشرار الوصول إليها».

التفت إيفان كوزميتش إلى زوجته، وقال لها:

- اسمعيني، يا ماما، لم حقًا لا نرسلكن بعيدًا حتى ننتهي من أمر هؤلاء المتمردين؟

- «هيه، مهلاً!»، قالت زوجة الأمر، «أين هي تلك القلعة التي لا يطير الرصاص إليها؟ ولماذا تظنّ أنّ قلعة بيلوغورسك ليست حصينة؟ نحن، والحمد لله، نعيش فيها منذ اثنين وعشرين عامًا، واجهنا البشكيرين، والقرغيزين، وسنبقى هنا بعد بوغاتشوف!».

- «طَيْب يا ماما» قال إيفان كوزميتش معترضًا، «ابقي، تفضّلي ما دمت تثقين بصمود قلعتنا. ولكن، ماذا نفعل بماشا؟ جيّد أن نصمد في وجه بوغاتشوف، أو تصلنا النجدة ونتصر عليه، ولكن، ماذا لو استولى الأشرار على القلعة؟».

- «حسنًا، عند ذلك»... تلعثت فاسيليسا يغوروفنا وصمتت وعلى وجهها علامات قلق شديد.

- «لا، يا فاسيليسا يغوروفنا»، تابع الأمير وقد رأى، ربّما للمرّة الأولى في حياته، أنّ كلماته أثّرت فيها، «ليس من الصواب بقاء ماشا هنا. سنرسلها إلى أرينبورغ عند أمّها في المعمودية. هناك قوّات ومدافع كثيرة وأسوار حجرية. وأنت أنصحك بالذهاب إلى هناك معها، تخيلي ما الذي سيحلّ بك إذا اجتاحوا القلعة، فكونك عجوزًا لن يشفع لك عندهم».

- «طَيْب»، قالت زوجة الأمير، «ليكن ما تقول. سنرسل ماشا. أمّا أنا فلا تطلب منّي الرحيل حتى في أحلامك: لن أرحل، لا معنى لافتراقي عنك في آخر عمري، والبحث عن قبر منعزل في أرض غريبة. لقد عشنا معًا، وسنموت معًا».

- «حتى هذا حلّ لا بأس به»، قال الأمير، «ولكن لا داعي للإبطاء. اذهبي وأعدّي ماشا للسفر. غدًا سنرسلها عند الفجر، وسأرسل معها حراسة رغم عدم وجود فائض من الرجال عندنا. ولكن أين ماشا؟».

- «إنّها عند أكوлина بامفيلوفنا»، أجابت زوجة الأمير، «لقد ساءت حالتها حين سمعت باجتياح نيجنيزورنايا، أخشى أن تمرض. إلهي، يا مالك الملك، ما هذه الحالة التي وصلنا إليها!».

ذهبت فاسيليسا تسعى في تحضير ابتهاج للسفر. واستمرّ الحديث عند الأمير، لكنّي لم أعد أشارك فيه، أو أستمع إليه. ظهرت ماريا إيفانوفنا على العشاء شاحبة، باكية. تناولنا العشاء في صمت، ونهضنا عن الطاولة في وقت أسرع من

المعتاد. ودّعنا الأسرة كلّها، وتوجّه كلّ منّا إلى مسكنه. غير أنّي تعمّدت ترك سيفي ثم عدت لأخذه. كان لديّ إحساس بأنّي سأجد ماريا إيفانوفنا وحيدة. وقد استقبلتني فعلاً عند الباب وأعطتني السيف.

- «وداعًا يا بيتر أندرييتش!»، قالت لي ودموعها تنهمر، «سيرسلونني إلى أرينبورغ. كُن حيًّا، وكُن سعيدًا. قد يقدر الله لنا أن نلتقي، أمّا إذا لم...»

هنا أجهشت بالبكاء. ضممتها إلى صدري.

- «وداعًا يا ملاكي»، قلت لها، «وداعًا يا حبيبتي، يا مناي! تأكّدي أنّك، مهما حدث لي، ستكونين الوحيدة التي أفكر فيها وأصلّي من أجلها!». بكت ماشا بصوت مرتفع مسندة رأسها إلى صدري. قبّلتها بحرارة وغادرت الغرفة مسرعًا.

## الفصل السابع

### الاجتياح

يا رأسي، يا رأسي المسكين،  
يا رأسي الذي عاش عسكريًا!  
خدمت يا رأسي المسكين  
ثلاثة وثلاثين عامًا بالتمام.  
آه، أنت لم تحقِّق يا رأسي المسكين  
مكسبًا لنفسك أو بهجة  
أو كلمة طيبة في مدحك  
أو مرتبة عالية  
ما حقَّقته يا رأسي المسكين  
وتدان طويلان عاليان  
وعارضة من خشب الدلب  
وعروة من الحرير.  
أغنية شعبية

لم أخلع ملابسني ولم أنم في هذه الليلة. كنتُ أنوي الذهاب في الفجر إلى  
بؤابة القلعة التي يجب أن تخرج منها ماريا إيفانوفنا، فأودَّعها هناك لآخر مرّة.  
أحسست بتغيير كبير في داخلي. بدا قلقي الروحي أقلَّ وطأة بكثير من وطأة تلك  
الكآبة التي كانت تُطبق عليّ قبل فترة وجيزة. وامتزج حزن الفراق في نفسي بآمالٍ  
غير واضحة ولكنها عذبة، وبتوقُّع، بنفاد صبر، للخطر، وبإحساس بعزّة النفس  
والنبيل. انقضت الليلة من دون أن أشعر بانقضائها. وحين هممت بالخروج من

المنزل، قُرع الباب، ثم فُتح ودخل عريف يخبرني أن قوزاقنا خرجوا من القلعة ليلاً وأخذوا معهم يولاي بالقوّة، وأنّ أناساً مجهولين يتجمّعون حول القلعة. أرعبتني فكرة ألا تكون ماريا إيفانوفنا غادرت، فأعطيت العريف توجيهات سريعة، وانطلقت بسرعة إلى منزل الأمير. طلع الصباح. كنت أطيّر في الشارع، فسمعت أحدهم يناديني. توقّفت.

- «إلى أين؟»، قال إيفان إيغنايتش الذي لحق بي، «إيفان كوزميتش على المنحدر وقد أرسلني في طلبك. بوغاتشوف يهاجمنا».

- «هل رحلت ماريا إيفانوفنا؟»، سأله وقلبي يرتجف.

- «لم تستطع»، أجاب إيفان إيغنايتش، «الطريق إلى أرينبورغ مقطوعة، والقلعة محاصرة. الوضع سيئ، يا بوتر أندرييتش!».

ذهبنا إلى المنحدر وهو مكان مرتفع كوّنته الطبيعة وعُزّز بسور من الأوتاد. هناك تجمّع كلُّ سكّان القلعة. الحامية تقف بسلاحها. والمدفع، جاؤوا به إلى هنا. والأمير يمشي جيئةً وذهاباً أمام جنوده القليلي العدد، وقد أكسب اقتراب الخطر المحارب العجوز نشاطاً غير عادي. وفي السهب، غير بعيد عن القلعة، كان قرابة عشرين فارساً يَعدّون على ظهور خيولهم، وقد بدوا من القوزاق، غير أنّ بعض البشكيريين، الذين يمكن تمييزهم بسهولة من خلال قُبعاتهم المصنوعة من جلد الفهد، وكنانات سهامهم، كانوا بينهم. طاف الأمير على جنوده وهو يقول لهم:

- حسنًا، يا أولاد، سنصمد اليوم دفاعًا عن أمّنا الإمبراطورة، ونبرهن للعالم كلّهُ أنّنا أناس شجعان وأمناء على العهد!

أعلن الجنود حماسهم بصوتٍ عالٍ. وكان شفابرين يقف إلى جانبي وينظر إلى العدو بعين ثابتة. الخيالة الذين في السهب تجمّعوا في كومة واحدة حين لاحظوا الحركة في القلعة، وراحوا يتحادثون فيما بينهم. أمر إيفان إيغنايتش بتوجيه المدفع نحوهم وأشعل الفتيل بنفسه. أرعدت القذيفة وطارَت فوقهم من دون أن تُحدث أيّ أذى. أمّا هم ففترّقوا، وعدوا مبتعدين عن أنظارنا، وخلا السهب.

عندئذ، ظهرت فاسيليسا يغوروفنا على المنحدر ومعها ماشا التي رفضت مفارقتها.

- «حسنًا، ما الأخبار؟»، قالت زوجة الأمير، «كيف تسير المعركة؟ أين العدو؟».

- «العدو غير بعيد»، أجاب إيفان كوزميتش، «بإذن الله سيكون كل شيء على ما يرام. ما بك يا ماشا، هل أنت خائفة؟».

- «لا، يا أبت»، أجابت ماريا إيفانوفنا، «البقاء وحيدة في البيت يخيفني أكثر».

قالت ذلك ونظرت إليّ مبتسمة بصعوبة. ضغطت بشكل لا إرادي على مقبض سيفي، متذكِّراً أنني البارحة تسلّمتها من يديها، كأنّ حبيتي كانت تطلب منّي حمايتها. التهب قلبي. تخيلت نفسي فارس أحلامها. وتلّهفت للقيام بعمل يُثبت أنني أستحقُّ ثقتها، ورحت أنتظر اللحظة الحاسمة بنفاد صبر.

في هذه الأثناء، ظهرت من وراء مرتفع على بُعد نصف فرسخ من القلعة، حشود جديدة من الفرسان، وسرعان ما زرع السهب بعدد غفير من الناس المسلّحين بالرماح والأقواس، في وسطهم رجل يمتطي حصاناً أبيض، ويرتدي قفطاناً أحمر، وفي يده سيف جُرّد من غمده. كان الرجل بوغاتشوف نفسه. توقّف، فأحاطوا به. ثم انفصل عن الحشد، بأمر منه على ما يبدو، أربعة فرسان اندفعوا بكلّ سرعة إلى سور القلعة، فعرفنا فيهم الرجال الذين خانونا: أحدهم دسّ تحت حافة قبعته رقعة من الورق، وعلّق آخر رأس يولاي على سنّ رمحه، طوّحه ثم رماه إلينا عبر السور، فسقط رأس الكالميكى التعيس عند قدمي الأمير. وكان الخونة يصرخون:

- لا تطلقوا النار، اخرجوا لملاقاة القيصر. القيصر هنا!

- «سأريكم!»، صرخ إيفان كوزميتش، «أيّها الفتيان! أطلقوا النار!».

أطلق جنودنا صلية ناريّة. القوزاقي الذي كان يحمل الرسالة ترنّح وسقط عن الحصان، الآخرون انطلقوا بخيولهم عائدين. نظرتُ إلى ماريا إيفانوفنا التي

صعقها منظر رأس يولاي المدمى، وأصمَّ صوت إطلاق النار أذنيها، فبدت غائبة عن الوعي. نادى الأمير العريف وعاد يقود فرس المقتول ممسكاً بعنانه. سلّم الأمير الرسالة. قرأها إيفان كوزميتش في صمت ثم مزقها. كان المتمردون قد استعدّوا في هذه الأثناء للهجوم على ما يبدو، فسرعان ما بدأ الرصاص يترّقُّ قرب آذاننا، وانغرس عدد من السهام في الأرض والصور غير بعيد عنّا.

- «فاسيليسا يغوروفنا!»، قال الأمير، «هذا المكان ليس للنساء، خُذي ماشا، ألا ترين! البنت بين الحياة والموت».

نظرت فاسيليسا يغوروفنا، التي هدأت قليلاً تحت الرصاص، إلى السهب الذي لوحظت فيه حركة كبيرة، ثم التفتت إلى زوجها وقالت له:

- يا إيفان كوزميتش، الحياة والموت بيد الله: بارك ماشا. ماشا اقتربي من أبيك.

اقتربت ماشا من أبيها شاحبة، راعشة، جثت على ركبتيها وانحنت أمامه حتى لامست الأرض. باركها الأمير العجوز برسم شارة الصليب في الهواء فوق جسدها ثلاث مرّات، ثم أنهضها وقبّلها وقال لها بصوت مختلف عن صوته المعتاد:

- حسنًا، يا ماشا، كوني سعيدة، صلّي للربّ فهو لن يخذلك. أتمنّى، إذا وجدت إنساناً طيّباً، أن يهبكما الله الحبّ ويُنير دربكما. عيشا، كما عشنا، أنا وفاسيليسا يغوروفنا. والآن وداعاً يا ماشا. خذوها يا فاسيليسا يغوروفنا بسرعة.

ارتمت ماشا على عنق أبيها وأجهشت بالبكاء.

- «فليقبّل أحدهما الآخر أيضاً»، قالت له زوجته وبكت، «وداعاً يا إيفان كوزميتش. سامحني إذا كنت قد أسأت إليك!».

- «وداعاً، وداعاً، يا ماماها!»، قال الأمير وهو يعانق زوجته العجوز، «طيّب، كفى! اذهبا، اذهبا إلى البيت، وإذا استطعتِ ألبسي ماشا معطفاً».

ذهبت زوجة الأمر وابتنها. أمّا أنا فتابعت ماريا إيفانوفنا بنظري، التفتت نحوي وحيّنتني بإحناءة من رأسها. في هذه اللحظة استدار إيفان كوزميتش نحونا، وتوجّه باهتمامه كلّهُ نحو العدو. تجمّع المتمردون حول قائدهم وبدؤوا فجأةً يترجّلون عن الخيول.

- «اصمدوا الآن بقوة»، قال الأمير، «سيبدأ الهجوم»...

في هذه اللحظات، علا زعيق وصراخ مخيف، وركض المتمردون ركضاً نحو القلعة. مدفعنا كان محشّواً بقذيفة، انتظر الأمير حتى بلغوا أقرب نقطة، وأطلق القذيفة الثانية على حين غرّة فسقطت في قلب الحشد. ارتدّ المتمردون إلى الجانبين وبدؤوا بالتراجع، وبقي قائدهم في الأمام وحيداً... لوّح بسيفه، وراح يدعوهم للإقدام بحرارة... والصراخ والزعيق الذي هدأ للحظة عاد فانبعث من جديد.

- «حسنًا، يا أولاد»، قال الأمير، «افتح البوابة الآن، اقرع الطبل. إلى

الأمام يا فتیان! اهاجموا، اتبعوني!».

بسرعة البرق صار الأمير وإيفان إيغنايتش وأنا خارج سور القلعة، لكنّ الحامية جبت فلم تتحرّك من مكانها.

- «لماذا تقفون في مكانكم يا أولاد؟»، صاح إيفان كوزميتش، «الموت

هو الموت: إنّه واجب عسكري!».

وفي هذه الأثناء وصل المتمردون واقتحموا القلعة. صمت الطبل، وألقت الحامية سلاحها، وأسقطني المهاجمون أرضاً، غير أنّي نهضت ودخلت معهم إلى القلعة. كان الأمير مصاباً بجرح في رأسه، تحيط به مجموعة من الأشرار الذين راحوا يطالبونه بالمفاتيح. هممت بالاندفاع نحوه لمساعدته فأمسك بي عدد من القوزاق الأشدّاء وقيدوني قائلين:

- ستلقون عقابكم يا من عصيتم القيصر!

جرّونا في الطرقات، وخرج السكّان من البيوت يقدّمون لهم الخبز والملح. وعلا صوت جرس الكنيسة. وفجأة ارتفع صوت يعلن أنّ القيصر في الساحة، ينتظر إحصار الأسرى، وحضور الرعيّة لتأدية قسم الولاء.



كان بوغاتشوف يجلس على أريكة في الشرفة أمام منزل الأمير، يرتدي قفطاناً قوزاقياً أحمر مطرزاً بالذهب. قُبَعته العالية من فرو السوبل المزينة بأشرطة من الذهب كانت منكّسة فوق عينيه اللامعتين. بدا لي وجهه مألوفاً، وقد أحاط به قادة مجموعات القوزاق. أمّا الأب غيراسيم فوقف أمام الشرفة وفي يده صليب، وكان، كما بدا لي، يتوسّل إليه العفو عن الضحايا. نُصبت في الساحة مشنقة على عجل. حين اقتربنا فرّق البشكيريون الناس وقَدّمونا إلى بوغاتشوف. هداً قرع الجرس، وساد صمت عميق.

- «من منهم الأمير؟»، سأل القيصر الدعيّ.

تقدّم وكيلنا من بين الحشود وأشار إلى إيفان كوزميتش. ألقى بوغاتشوف على العجوز نظرة رهيبة، وقال له:

- كيف تجرّأت وعصيتني أنا مليكك؟

استجمع الأمير الذي أعيته الجروح، آخر ما لديه من قوّة وأجابه بصوت صلب:

- أنت لست مليكي، أنت لصّ ودعيّ، هذه حقيقتك.

أظلم وجه بوغاتشوف العابس، ولوّح بمنديل أبيض. أمسك عدد من القوزاق النقيب العجوز وجروّوه إلى المشنقة. كان البشكير المشوّه، الذي استجوبناه أمس، يقف على ظهر جواد عند عارضة المشنقة ممسكاً بالحبل، وبعد دقيقة رأيت إيفان كوزميتش المسكين يتدلّى في الهواء. بعد ذلك جاؤوا بوغاتشوف بإيفان إيغنايتش.

- «قدّم قسم الولاء»، قال له بوغاتشوف، «للقيصّر بيتر فيودوروفيتش!».

- «أنت لست قيصرنا»، أجاب إيفان إيغنايتش، مكرّراً كلمات رئيسه، «أنت، يا عمّ، لصّ ودعيّ!».

هزّ بوغاتشوف المنديل مرّة ثانية، وعُلّق مساعد الضابط الطيّب إلى جانب رئيسه السابق.

وجاء دوري. نظرت بجراًة إلى بوغاتشوف وأنا أتهياً لأكرّر جواب رفيقيّ

الشهمين. آنذاك، ولدهشتي التي لا توصف، رأيت بين القادة المتمردين شفايرين، بشعر حليق على شكل دائرة، وقفطان قوزاقي، وهو يقترب من بوغاتشوف ويهمس في أذنه ببضع كلمات.

- «اشنقوه!»، قال بوغاتشوف من دون حتى أن ينظر إليّ.

وضعوا الحبل حول عنقي ورحت أصلي في سري، معبراً للرب عن ندمي الصادق وتوبتي عن كل ما ارتكبته من آثام، ومتوسلاً إليه أن يُنقذ جميع المقرّبين إلى قلبي. جرّوني إلى المشنقة.

- «لا تخف، لا تخف»، كان قتلتي يكرّرون.

لعلهم حقاً يريدون بذلك تشجيعي. وفجأة سمعت أحدهم يصرخ:

- انتظروا أيّها الملاعين! انتظروا...

توقّف الجلّادون. ورأيت سافيليتش ينطح عند قدمي بوغاتشوف.

- «يا أبانا الحبيب!»، قال العجوز المسكين، «ما الذي تجنيه من قتل ابن

أحد النبلاء! اتركه، سيدفعون لك فدية مقابل ذلك: أمّا إذا كنت تريد

أن تخيفهم، وتريهم عاقبة العصيان، فاشنقني أنا العجوز، بدلاً منه!».

أشار بوغاتشوف بيده للجلّادين، فأطلقوا سراحني في الحال.

- «لقد عفا عنك أبونا»، قالوا.

لا أستطيع أن أقول إنني كنت في تلك اللحظة فرحاً بخلاصي، ولكنني

لا أستطيع أيضاً أن أقول إنني أسفت لذلك. كانت مشاعري مختلطة حينذاك

ومشوّشة جداً. قادوني إلى القيصر الدعّي، وأرغموني على الجثو على ركبتي.

مدّ لي بوغاتشوف يداً بدينة.

- «قبّل يده!»، صرخوا من حولي.

لكّني كنت أفضل شرّ ميتة على هذا الإذلال السافل.

- «يا أبت بيتر أندرييتش!»، همس سافيليتش الواقف خلفي وهو يدفعني،

«لا تكن عنيداً! ماذا يكلّفك ذلك؟ ابصق وقبّل يد الشرّ... (تفو) قبّل يده».

لكّني لم أتحرك. أنزل بوغاتشوف يده وقال بلهجة ساخرة:

- جنباه جنّ من الفرح على ما يبدو. أنهضوه!

أوقفوني وتركوني طليقاً، فرحت أتابع الكوميديا الفظيعة التي تجري من حولي.

بدأ السكّان بتأدية القسم. كانوا يتقدّمون واحداً إثر آخر، يقبلون الصليب، ثم ينحنون تحيّة للقيصر الدعيّ. وكان جنود الحامية هناك أيضاً. خيَّاط السريّة المسلّح بمقصّه المثلّم كان يقصّ جدائلهم، ثم يتقدّمون وهم ينفضون الشعر عن ملابسهم، فيقبّلون يد بوغاتشوف الذي كان يعلن العفو عنهم ويضمّمهم إلى عصابته. استمرّ ذلك كلّهُ نحو ثلاث ساعات. وأخيراً نهض بوغاتشوف عن الأريكة ونزل عن الشرفة يرافقه مساعدوه. بعد ذلك جاؤوه بالحصان الأبيض المزيّن بعدّة فاخرة. ثم حمل اثنان من القوزاق بوغاتشوف من تحت إبطيه وأجلساه على سرج الحصان. أمّا هو فأعلن للأب غيراسيم أنّه سيتناول الغداء عنده. وفي هذه اللحظة علا صراخ امرأة. كان عدد من أفراد العصابة يجزّون على الشرفة فاسيليسا يغوروفنا منفضة الشعر ممزّقة الثياب وشبه عارية، وقد ارتدى أحدهم معطفها الشتويّ السميك، وانهمك الآخرون في نهب الفرشات والصناديق وآنية الشاي والشراشف والملابس وشتّى قطع الأثاث.

- «يا آبائي!»، صرخت العجوز المسكينة، «اسمحوا لي أن أتوب إلى الله. يا آبائي المحبوبين، خذوني إلى إيفان كوزميتش». وفجأة نظرت إلى المشنقة فعرفت زوجها.

- «أيّها الأشرار!»، صرخت بجنون، «ماذا فعلتم به؟ يا نور عيني أنت يا إيفان كوزميتش، أيّها الرأس العسكري الشجاع! لم تئل منك حراب البروسيين، أو طلقات رصاص الأتراك، ولم تضخّ بحياتك في معركة شريفة، بل قتلك مجرم فارّ محكوم بالأشغال الشاقّة!».

- «اقتلوا هذه الساحرة العجوز!»، قال بوغاتشوف.

ضربها قوزاقي شابّ بالسيف على رأسها، فخرّت صريعة على درجات مدخل بيتها. غادر بوغاتشوف المكان، وانطلق الجميع يتبعونه مسرعين.

## الفصل الثامن

### الضيف المتطفل

الضيف المتطفل أسوأ من تيري.

مثل شعبي

خلت الساحة. وبقيت واقفاً في مكاني، لا أستطيع أن أرتّب أفكاري التي شوّشتها تلك الانطباعات الفظيعة.

جهلي بمصير ماريا إيفانوفنا عذّبني أكثر من كلّ شيء آخر. أين هي؟ ماذا حلّ بها؟ هل استطاعت الاختباء؟ هل ملجئها آمن؟

دخلتُ منزل الأمير ممتلئاً بالأفكار المقلّبة. المكان كلّه خالٍ، الكراسي، والطاولات، والصناديق محطّمة، والأواني مكسّرة، وكلّ شيء منهوب، صعدت الدرج الصغير المؤدّي إلى العلّية راكضاً، ودخلت للمرة الأولى في حياتي غرفة ماريا إيفانوفنا. رأيت سريرها الذي نبشه المجرمون، خزانها كانت محطّمة ومنهوبة، أمّا القنديل الصغير فما زال مشتعلًا أمام كوّة الأيقونات الفارغة. والمرأة الصغيرة المعلّقة على قطعة من الجدار بين نافذتين سلمت أيضًا... أين كانت صاحبة هذه الصومعة البنّائية المسالمة؟ خطرت في بالي فكرة مرعبة: تخيلتها في قبضة هؤلاء المجرمين... انقبض قلبي... بكيت دموعاً مرّة، مرّة، ونطقت اسم محبوبتي بصوتٍ عالٍ... سمعت في هذه اللحظة حركة خفيفة، وظهرت بالاشكا من وراء الخزانة شاحبة راعشة.

- «آه، يا بيتر أندرييتش!»، قالت بالاشكا وهي تضرب كفّاً بكفٍّ، «يا لهذا

اليوم! يا لهذه الفظائع!».

- «وماريا إيفانوفنا؟»، سألتُ بلهفة، «ماذا حلَّ بها؟».

- «سَيِّدتي حيَّة»، أجابت بالاشكا، «إنَّها مختبئة عند أكوлина بامفيلوفنا».

- «عند زوجة الكاهن!»، صرخت يتملِّكني الرعب، «يا إلهي! بوغاتشوف

هناك الآن!...»

انطلقتُ خارجًا من الغرفة، وبلمح البصر كنت في الشارع، أركض إلى بيت راعي الكنيسة مسرعًا، لا ألوي على شيء ولا أشعر بشيء. تعالت من هناك صرخات وقهقهات وأغانٍ... هناك كان بوغاتشوف يتناول الطعام ويحتفل مع زملائه. ركضت بالاشا تتبعني. أرسلتها كي تدعو أكوлина بامفيلوفنا بهدوء للقائي. بعد دقيقة، خرجت إليَّ زوجة الكاهن وبيدها إناء فارغ.

- «قولي، بحق الله، أين ماريا إيفانوفنا؟»، سألتها بقلق لا يوصف.

- «يمامتي راقدة عندي في السرير خلف الستارة»، أجابتنى زوجة

الكاهن، «لا أخفيك يا بيتر أندرييتش، أنَّ كارثة كادت تقع، لكنَّ

كلَّ شيء مرَّ بسلام والحمد لله، حين جلس الشَّيْر ليتناول غداءه،

استيقظت ابنتي المسكينة وهي تنُ. أنا جمدت في مكاني. سمع أنينها

فسألني: 'من عندك يتأوّه يا عجوز؟'. وضعت يديَّ على خصري في

مواجهة اللصّ: 'قريتي يا جلالة القيصر؛ إنها مريضة طريحة الفراش

منذ أسبوعين'. 'وهل قريتك صبيّة؟'. 'صبيّة يا صاحب الجلالة'. 'أرني

يا عجوز قريتك'. انتفض قلبي في مكانه، لكن ما باليد حيلة. 'اعذرني

يا سيّدي القيصر، البنت لا تستطيع النهوض والمثول بن يديك'. 'لا

بأس يا عجوز، أنا سأذهب لرؤيتها بنفسي'. ومشى اللعين، فعلاً، إلى

ما وراء الستارة. تصوّر! أزاح الستارة ونظر بعينه الصقرئتين! ولم

يفعل شيئاً... لقد أبعد الله الشرّ! أتصدّق! لقد كنت، أنا والأب زوجي،

نهيئاً للموت تحت التعذيب. يمامتي، لحسن الحظّ، لم تعرفه. إلهي،

مالك الملك، عشنا لنشهد هذا اليوم! يعجز الكلام! من كان يتصوّر ما

حلَّ بإيفان كوزميتش المسكين! وماذا عن فاسيليسا يغوروفنا؟ وإيفان

إيغنايتش؟ لماذا لاقى ذلك المصير؟ وكيف عفوا عنك؟ وكيف ترى شفايرين إيكسي إيغنايتش؟ حلق شعره على شكل دائرة، وهو الآن على المائدة عندنا يحتفل معهم! إنه «شاطر» من دون شك... حين تكلمت عن قريبتى المريضة، نظر إليّ نظرة شعرت معها- صدّقني- وكأنّه يخرق جسدي بطعنة سكين، لكنّه لم يفصح سرّي، فشكّرًا له على ذلك».

في هذه اللحظة علا صراخ الضيوف الثملين، وصوت الأب غيراسيم. كان الضيوف يطالبون بالخمّر، فنادى صاحب المنزل زوجته لتلبية الطلب، فاستعجلت الحديث معي.

- «اذهب إلى منزلك يا بيتر أندرييتش»، قالت لي، «لا أستطيع التفرّغ لك الآن، الأشرار يسكرون، وقد تقع في أيدي هؤلاء السكارى لا قدر الله فتكون مصيبة. وداعًا يا بيتر أندرييتش، سيحدث ما هو مقدّر أن يحدث، وإنّي لأرجو ألا يتخلّى الله عنّا!».

ذهبت زوجة الكاهن. ومضيت إلى مسكني وقد هدأت قليلًا. مررت بالقرب من الساحة فرأيت بعض البشكيريين يتزاحمون قرب المشنقة وهم يخلعون أحذية المشنوقين. كظمت غيظي بصعوبة، وأنا أرى عدم جدوى التدخل لمنعهم. اللصوص كانوا يتراكمون في القلعة، ينهبون بيوت الضباط، والمتمردون السكارى تعالت صيحاتهم في كلّ مكان. عدت إلى البيت فاستقبلني سافيليتش عند المدخل.

- «الحمد لله!»، صاح حين رأيته، «لقد ظننت أنّ الأشرار أمسكوا بك مرّة ثانية. هل تصدّق يا أبت بيتر أندرييتش؟ لقد نهب هؤلاء المحتالون كلّ ما عندنا: الملابس، والأغطية، والأثاث، والأواني، لم يتركوا شيئًا. لا يهّم! الحمد لله على أنّهم تركوك حيًّا! هل عرفت يا سيّدي زعيمهم؟».

- لا، لم أعرفه، من هو؟

- كيف لم تعرفه؟ هل نسيت ذلك السكران الذي أخذ منك معطف الفراء في النزل؟ المعطف المخيط من فرو الأرانب، لقد كان معطفًا جديدًا تمامًا، فمزقه ذلك الشيطان وهو يدك جسمه فيه!

دُهِشت. لقد كان الشبه بين بوغاتشوف ودليلنا كبيرًا فعلاً، الأمر الذي أقنعني بأن بوغاتشوف والدليل شخص واحد، وفهمت حينها سبب العفو عني. لم يكن بمقدوري إلا أن أعجب من الترابط العجيب بين الأحداث: معطفت ولأدي أهديته لمتشرد فأنقذني من حبل المشنقة، وسكّير يترنح بين الدُور، حاصر القلعة وزلزل الحكومة!

- «ألا تريد أن تأكل؟»، سألني سافيليتش الذي لا يغيّر عاداته أبداً، «ليس في البيت ما يؤكل. سأذهب وأحضّر لك شيئاً ما».

بقيت وحيداً، وغرقت في التفكير. ماذا عليّ أن أفعل؟ هل أبقى في القلعة الخاضعة للشرير، أو ألتحق بعصابته؟ إنّ هذا لا يليق بضابط. الواجب يقضي أن أذهب إلى هناك حيث يمكن أن تكون خدمتي مفيدة للوطن في هذه الظروف الصعبة... لكنّ الحبّ كان ينصحني بإلحاح بالبقاء حيث ماريا إيفانوفنا، وحمايتها، والدفاع عنها. ورغم أنّي كنت واثقاً من تبدّل الظروف السريع والحتمي، لم أستطع إلا أن أقلق وأنا أتخيّل خطورة وضعها.

قطع سلسلة أفكارني قوزاقي جاء مسرعاً يعلمني «أنّ القيصر العظيم يطلبني».

- «أين هو الآن؟»، سألته وأنا أتهيّأ لتلبية الطلب.

- «في منزل الأمير»، أجاب القوزاقي، «إنّ أبانا استحمّ بعد الغداء وهو الآن يرتاح. كلُّ شيء فيه، يا صاحب السموّ، يدلُّ على أنّه شخصية مميزة: لقد أكل في الغداء خنوصين مقلّين، واستحمّ في بخار حارّ جداً لم يستطع تاراس كوروتشكين احتمال حرارته فأعطى فومكا بيكبايف فرشاة التدليك، واستعاد وعيه بصعوبة بعد رشّه بالماء البارد. لا جدال في عظمة حركاته... يقولون إنهم رأوا في الحمّام رموز القيصر على صدره: النسر ذا الرأسين في أحد طرفي الصدر وهو

بحجم قطعة نقدية من فئة الخمسة كوبيكات، وصورته في الطرف الآخر.

لم أجد من الضروري الاعتراض على رأي القوزاقي، وتوجَّهت معه إلى منزل الأمير، متخيلاً سلفاً لقائي مع بوغاتشوف، ومحاولاً أن أخمّن ما سينتهي إليه. ويستطيع القارئ أن يقدّر بسهولة أنني لم أكن هادئاً تمام الهدوء.

حين وصلت إلى بيت الأمير كان الظلام قد بدأ في الهبوط. اسودَّت المشنقة وضحاياها اسوداداً غريباً. وكانت جثة زوجة الأمير المسكينة ما تزال أسفل درج المدخل حيث يقف اثنان من القوزاق للحراسة. القوزاقي الذي رافقني دخل ليعلن عن وصولي، ثم عاد في الحال، وقادني إلى الغرفة التي ودَّعْتُ فيها ماريا إيفانوفنا، عشية الأحداث، ذلك الوداع الرقيق.

استقبلني مشهد غير عادي. على المائدة غطاء اصطفَّت فوقه الزجاجات والكؤوس، وبوغاتشوف يجلس مع نحو عشرة من قادة القوزاق بقبعاتهم وقمصانهم الملونة، وقد احمرَّت سحنهم والتمعت عيونهم بفعل الخمر. لم يكن بينهم شفابرين والوكيل اللذان سلكا درب الخيانة حديثاً.

- «آها، يا صاحب السمو!»، قال بوغاتشوف حين رأيته، «أهلاً وسهلاً، تفضّل واجلس مرحّباً بك».

أفسح لي الجالسون مكاناً، فجلست صامتاً على طرف الطاولة. كان جاري قوزاقياً شاباً رشيق القوام، جميلاً، صبّ لي كأساً من النبيذ العادي لم ألمسها. رحت أتأمل هذا الجمع بفضول. كان بوغاتشوف يجلس على رأس المائدة، مسنداً كوعيه إلى الطاولة وهو يمسّد لحيته السوداء بكفه الكبيرة. قسّمت وجهه خالية من العيوب، وجذابة، لا تُوحى بالوحشية. كان يتوجّه بحديثه كثيراً إلى رجل في الخمسين من العمر تقريباً، مطلقاً عليه لقب «أمير» حيناً، ومسمّياً إيّاه «تيموفيتش» حيناً آخر، ويناديه «يا عمّاه» حيناً ثالثاً. كان الجميع يتعاملون فيما بينهم كزملاء ولا يُبدون أيّ تفضيل خاصّ لقائدهم. حديثهم دار على هجوم الصباح، ونجاح التمرد، والأعمال القادمة، كلُّ واحد منهم يتفاخر، ويقدم



اقتراحاته، ويناقش بوغاتشوف بحرّية. وقد تقرّر في ذلك الاجتماع الحربي الغريب الهجوم على أرينبورغ، وهو خطوة جريئة كادت تنتهي بنجاح كارثي! وأعلن أنّ القيام بالحملة سيكون في اليوم التالي.

- «طيّب، يا إخوتي»، قال بوغاتشوف، «لنشد قبل النوم أغنيتي المفضّلة: ابدأ يا تشوماكوف!».

أنشد جاري بصوت رفيع مديد أغنية حزينة من أغاني البورلاك<sup>(1)</sup>، فالتقط الجمع اللحن وغنّوا معه في جوقة واحدة:  
«لا تصخبي، يا أمّي الغابة الخضراء.  
فتعيقيني، أنا الفتى الطيّب، عن التفكير  
بالتحقيق معي، أنا الفتى الطيّب، غدًا في الصباح  
أمام قاضٍ رهيب هو القيصر نفسه.  
سيسألني الحاكم - القيصر:  
'قلّ لي، قلّ لي يا ابن الفلاح،  
كيف، ومع من سرت، مع من نهبت،  
هل كان معك الكثير من الشركاء؟'.  
'أنا سأقول لك بصدق أيّها القيصر البروفوسلافي<sup>(2)</sup> المؤمن  
الحقيقة كلّها، الحقيقة الخالصة..  
كان عندي رفاق أربعة:  
رفيقي الأوّل الليل الحالك،  
ورفيقي الثاني خنجر فولاذي  
أمّا رفيقي الثالث فهو جوادي الكريم  
ورفيقي الرابع قوس مشدود  
سهامه قذائف ملتهبة'.

(1) البورلاك: عمّال يجزّون السفن العملاقة في مياه النهر الضحلة بالحبال (المترجم).

(2) البروفوسلافي - المسيحي المنتمي إلى الكنيسة الروسية (المترجم).

مرحى يا ابن الفلاح،

عرفت كيف تسرق، وأحسنت الجواب!

لذا، سأكافئك يا فتى

بقصر منيف في وسط السهب،

مشنقة بعمودين وعارضة من خشب الدلب».

أعجز عن وصف التأثير الذي تركته في هذه الأغنية الشعبية البسيطة عن المشنقة، التي راح يغنيها أناس محكومون بالإعدام شتقًا. وجوههم الرهيبة، وأصواتهم المنسجمة، ونغمة الحزن التي أسبغوها على الكلمات التي كانت معبرة بحد ذاتها، كل ذلك هزني بشاعرية مخيفة.

شرب الضيوف كأسًا أخرى، ثم قاموا عن المائدة، فودّعوا بوغاتشوف. هممت باللاحاق بهم، لكن بوغاتشوف قال لي:

- اجلس، أنا أريد التحدث إليك.

وبقينا هكذا وجهًا لوجه.

ساد الصمت بيننا بضع دقائق. كان بوغاتشوف يحدّق إليّ بثبات، ويغمز بعينه اليسرى من حين لآخر معبرًا بهذه الحركة تعبيرًا مدهشًا عن المكر والسخرية. وأخيرًا، ضحك بمرح صادق إلى حد جعلني، وأنا أتأمله، أضحك من دون أن أعرف سببًا لذلك.

- «ماذا يا صاحب السمو؟»، قال لي، «اعترف! هل جنت حين وضع

فتياني الحبل حول عنقك؟ أنا أظن أنك فقدت صوابك... لقد كان من الممكن أن تتأرجح تحت عارضة المشنقة لولا تدخل خادمك.

لقد عرفت على الفور ذلك العجوز. طيب، هل خطر في بالك يا صاحب السمو، أن الرجل الذي أنقذك من الضياع هو القيصر العظيم

نفسه؟» (هنا اتخذ لنفسه مظهر العظمة والغموض) «لقد ارتكبت في

حقّي ذنبًا عظيمًا»، تابع كلامه، «ولكنني عفوت عنك لكرم أخلاقك،

ولأنك خدمتني حين كنت مضطرًا إلى الاختباء عن أنظار أعدائي.

وسترى، إذا انتظرت، كم سأكرمك حين أسترّد دولتي! ولكن، هل تعدني بأن تخدمني بإخلاص؟».

بدا لي سؤال المحتال ووقاحته أمرًا مسلّيًا، فلم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك ضحكة قصيرة.

- «ما بالك تضحك؟»، سألني عابسًا، «أم أنك لا تصدّق أنني القيصر العظيم؟ أجب من دون مواربة!».

ارتبكت. لم أكن قادرًا على الإقرار بأن هذا المتشرّد هو القيصر، فقد بدا لي أن ذلك جُبِن لا يُغتفر. كما أنني لا أستطيع أن أقول له مواجهةً: «أنت محتال»، فأنا بذلك أحكم على نفسي بالهلاك. إنَّ ما كنت مستعدًا وأنا في أوج غضبي للإقدام عليه عند المشقة وعلى مرأى من الناس كلّهم، بدا لي الآن انتفاجًا لا جدوى منه. تردّدت. وكان بوغاتشوف ينتظر جوابي عابسًا متجهّمًا. وأخيرًا (ما زلت أتذكّر تلك اللحظة برضا عن النفس) انتصر الشعور بالواجب في داخلي على ضعفي الإنساني، فقلت لبوغاتشوف:

- اسمع! سأقول لك الحقيقة كلّها. قل الحقّ! أتراني أستطيع أن أقرّ بأنك القيصر؟ أنت رجل ذكيّ، وسترى، أنت بنفسك، أنني أراوغ.

- إذن، من أنا برأيك؟

- الله وحده يعلم من أنت؛ ولكنك تلعب، كائنًا من كنت، لعبة خطيرة. نظر إليّ بوغاتشوف نظرة سريعة.

- «هكذا إذن، أنت لا تصدّق»، قال لي، «أنني القيصر بيتر فيودوروفيتش؟ طيّب، لا بأس. ولكن، أليس الحظّ حليف الشجعان؟ ألم يصبح غريشا أوتريبيف قيصرًا في سالف الزمن؟ غدّني من شئت، ولكن ابقَ معي. ما علاقتك بكلّ ما عدا ذلك؟ من ليس قسّيسًا قد يكون زعيمًا. اخدمني بإخلاص وصدق، أكرمك، أجعلك فيلدمارشالًا، وأميرًا. ما رأيك؟».

- «لا»، أجبته بصلافة، «أنا من النبلاء بالمولد، وقد أقسمت يمين الولاء للقيصرة الإمبراطورة: أنا لا أستطيع خدمتك، فإذا كنت تريد الخير لي اتركني أرحل إلى أرينبورغ».

فكر بوغاتشوف برهة، ثم قال:

- هل تعدني، إذا تركتك، ألا تحارب ضدي على الأقل؟

- كيف يمكنني أن أعدك بذلك؟ أنت، نفسك، تعرف أن هذا الأمر

ليس بيدي. إذا أمرت بمحاربتك فسوف أحاربك وما باليد حيلة.

أنت نفسك رئيس الآن، وأنت نفسك تلزم مرؤوسيك بالطاعة. فكيف

سأبدو إذا أنا رفضت الخدمة حيث يفرض الواجب عليّ أداءها؟ إن

رأسي بين يديك: إن تركتني شكرتك، وإن قتلتني فالأمر يومئذ لله؛

المهم أنني كنت صادقاً معك.

أدهش صدقي بوغاتشوف.

- «ليكن ذلك»، قال لي وهو يربّت على كتفي، «الإعدام هو الإعدام،

والعفو هو العفو. اذهب إلى حيث تشاء، وافعل ما تشاء. تعال غداً

صباحاً لتودّعني، أمّا الآن فاذهب ونم، أنا أيضاً أشعر بالنعاس».

تركت بوغاتشوف وخرجت إلى الشارع. الليلة كانت هادئة وصقيعية. كان

ضوء القمر والنجوم ساطعاً يضيء الساحة والمشنقة. كلُّ شيء في القلعة كان

هادئاً ومُظلماً. ضوء واحد كان يشعُّ من الخمارة التي تعالت فيها صيحات

السكراري الذين ما زالوا ساهرين. أُلقيت نظرة على بيت الكاهن. النوافذ والبوابات

مغلقة، وبدا لي كلُّ شيء في ذلك البيت هادئاً.

وصلت إلى بيتي فوجدت سافيليتش قلقاً لغيايبي. أبهجه خبر إطلاق سراحني

بهجة لا تُوصف.

- «الحمد لله يا مالك الملك!»، قال وهو يرسم على صدره شارة

الصليب، «سنغادر القلعة عند الفجر إلى أيِّ مكان يمتدُّ بصرنا إليه.

لقد أعددت لك بعض الطعام، فكل الآن يا أبتِ، ثم نَم حتى الصباح  
وكأنَّك في حضن السيّد المسيح». اتَّبعَت نصيحته، تناولت العشاء بشهية كبيرة، ثم نمت على الأرض العارية  
بعد أن أُرهِقت نفسيًّا وبدنيًّا.

## الفصل التاسع

### الفراق

عذبة معرفتي بك  
أيتها الجميلة  
ومحزن، محزن فراقك  
يحزنني كما لو كنت أفارق روحي.  
خير اسكوف

أيقظني قرع الطبل في الصباح الباكر. ذهبت إلى مكان الاجتماع، حيث اجتمعت حشود أنصار بوغاتشوف بالقرب من المشنقة التي ما زالت ضحايا يوم أمس معلقة عليها. كان القوزاقئون على ظهور خيولهم، والجنود يتنكبون سلاحهم. وكانت الرايات ترفرف. وقد وُضعت عدّة مدافع، ومن بينها مدفع قلعتنا، على عربات لنقلها. وتجمّع سكّان القلعة كلّهم في هذا المكان ينتظرون القيصر الدعيّ. وعند مدخل بيت أمير القلعة، وقف قوزاقيّ مُمسكًا بعنان جواد أبيض جميل من أصل قرغيزي. بحثت بعينيّ عن جثة زوجة الأمر، فوجدت أنّهم أزاحوها إلى مكان غير بعيد وغطّوها بقطعة من قماش خشن. خرج بوغاتشوف أخيرًا إلى الشرفة، فخلع الناس قبعاتهم. وقف بوغاتشوف في الشرفة وسلّم على الجميع. وأعطاه أحد القادة كيسًا مملوءًا بقطع نقدية نحاسية فراح ينثرها حفنة بعد حفنة، فاندفع الناس يجمعونها وهم يتصايحون، ولم يمرّ الأمر من دون أن يُصاب بعضهم نتيجة تدافعهم. أحاط ببوغاتشوف شركاؤه الرئيسيون، وكان بينهم

شفابرين. التقت نظرانا، وكان بمقدوره أن يرى نظرة احتقاري له، فأشاح بوجهه الذي ارتسمت على قسّماته علامات الحقد الصادق والسخرية الكاذبة. حين رأي بوغاتشوف بين الحشد، حيّاني بإحناءة من رأسه ودعاني للاقتراب منه.

- «اسمعي»، قال لي، «ارحل حالاً إلى أرينبورغ، وقُلْ لحاكمها وكلّ جنرالاتها، عن لساني، أن ينتظروا قدومي إليهم بعد أسبوع. انصحهم أن يستقبلوني بحبّ كحبّ الأطفال، وبالطاعة، وإلاّ فإنّهم لن يستطيعوا تجنّب الإعدام الفظيع. أتمنّى لك رحلة سعيدة يا صاحب السمو!».

بعد ذلك توجّه إلى الناس، وقال مشيراً إلى شفابرين:

- هاكم يا أبنائي، أمركم الجديد! أطيعوه في كلّ شيء، فهو المسؤول أمامي عنكم وعن القلعة. استمعت إلى هذه الكلمات برعب: لقد صار شفابرين رئيساً للقلعة، وبقيت ماريا إيفانوفنا تحت سلطته! يا إلهي، ما الذي سيحدث!

نزل بوغاتشوف من الشرفة، قرّبوا منه الحصان، فامتطاه بمهارة، من دون أن ينتظر القوزاقين اللذين أرادوا مساعدته في امتطائه. في هذه اللحظة رأيت صاحبي سافيليتش يندفع من بين الحشد مقترباً من بوغاتشوف ويعطيه ورقة. لم أستطع أن أخمّن ما الذي سينتج عن ذلك.

- «ما هذا؟»، سأل بوغاتشوف بلهجة تعبّر عن عظمة.

- «اقرأها، إذا سمحت، وستعرف»، أجاب سافيليتش.

أخذ بوغاتشوف الورقة وحقّق إليها طويلاً منتفجاً.

- «ماذا تكتب بهذا الخطّ الرديء»، قال أخيراً، «عيناى الفاتحتا اللون

لا تستطيعان قراءة شيء. أين أمين سرّي؟».

فتى في ريعان الشباب، يرتدي زيّ عريف، ركض بهمة إلى بوغاتشوف.

- «اقرأ بصوت عالٍ»، قال القيصر الدعيّ وهو يناوله الورقة.

شعرت بفضول شديد لمعرفة ما الذي خطر في بال صاحبي العجوز وكتبه

لبوغاتشوف. راح أمين السرّ يقرأ بصوت عالٍ البنود بالترتيب، وهي ما يلي:

- رداء ان منزليّان، واحد قطني والآخر حريري مقلّم، ثمنهما ستّة روبلات.
- «ما معنى هذا؟»، سأل بوغاتشوف عابساً.
- «مرّه أن يتابع القراءة»، أجاب سافيليتش بهدوء.
- تابع أمين السرّ:
- زيّ رسمي من الجوخ الأخضر الرقيق، ثمنه سبعة روبلات، سراويل بيضاء من الصوف، ثمنها خمسة روبلات، اثنا عشر قميصاً من الكتّان الهولندي بأساور على الأكمام، ثمنها عشرة روبلات، صندوق يحتوي أدوات تحضير الشاي، بروبلين وخمسة كوبيكات...
- «ما هذا الهراء؟»، قاطعه بوغاتشوف، «مالي وللصناديق والسراويل وأساور الأكمام؟».
- صاح سافيليتش موضّحاً:
- هذا، كما ترى يا أبت، هو سجلّ بمتاع سيّدي النبيل، الذي نهبه الأشرار...
- «أيّ أشرار؟»، سأل بوغاتشوف مهذّداً.
- «أرجو عفوك!»، تتمم سافيليتش قائلاً، «إنّهم فتيانك، سواء أكانوا أشراراً أم غير أشرار، وقد عبثوا بمتاعنا ونهبوه. لا تغضب، إنّ للحصان أربع قوائم، ومع ذلك يتعثّر ويكبو. مرّه أن يتابع القراءة».
- «تابع القراءة»، قال بوغاتشوف. فتابع أمين السرّ:
- لحاف من الشيت، وآخر من التفتا المطعّمة بالكتّان، أربع روبلات. معطف من فرو الثعلب، مبطنّ بقماش أحمر، 40 روبلاً. وأيضاً معطف من جلد الأرانب، أهديّ لجلالتك في النزل، 15 روبلاً.
- «ما هذه الـ 'أيضاً'!»، صرخ بوغاتشوف والشرر يتطاير من عينيه.
- أعترف أنّي خفت على صاحبي العجوز، الذي حاول القيام بالتوضيح ثانية، لكنّ بوغاتشوف قاطعه:



- «كيف تجرأت على التقدم إليَّ بهذه الترهات؟»، صاح به وهو ينتزع الورقة من يد أمين السرِّ ويرميها في وجه سافيليتش، «يا لك من عجوز غبي! آخ، نهبك! ما هذه المصيبة؟ الأجدرك بك أيُّها العجوز المتهالك، أن تظلَّ تصلِّي إلى الأبد من أجلي ومن أجل فتيتي لأنَّا لم نعلِّقك، أنت وسيّدك النبيل هنا، إلى جانب من عصاني... معطف من جلد الأرانب! سأعطيك معطفًا من جلد الأرانب! أتدري بأنِّي سأمر أن يسلخوا جلدك حيًّا ويخطوا منه معاطف؟».

- «الأمر لك»، أجاب سافيليتش، «أمّا أنا فعبد مأمور، وواجبي أن أحافظ على أشياء سيّدي النبيل».

كان بوغاتشوف، على ما يبدو، يُعاني من نوبات العظمة. استدار وغادر من دون أن ينطق بكلمة، وتبعه شفايرين وبقية الرؤساء. وغادرت العصاة بانتظام. مشى الناس في وداع بوغاتشوف، وبقيت في الساحة وحيداً مع سافيليتش، الذي أمسك بيديه سجّله وراح يتأمّله وقد بدت عليه علامات الأسف العميق.

لقد فكّر، حين رأى علاقتنا الطيبة ببوغاتشوف، أن يستغلَّ تلك العلاقة لصالحنا، لكنَّ محاولته تحقيق فكرته الذكية لم تنجح. شرعت أوبّخه على اندفاعه الذي كان في غير مكانه، ولم أتمالك نفسي من الضحك.

- «اضحك يا سيدي»، أجابني سافيليتش، «اضحك، وغداً سنضطرُّ إلى شراء كلّ تلك الأشياء من جديد، عندئذ سنرى إن كان ذلك مضحكاً».

هرعت إلى بيت الكاهن لأرى ماريا إيفانوفنا. استقبلتني زوجة الكاهن بخبر حزين. لقد أصيبت ماريا إيفانوفنا في الليل بحمّى شديدة. وهي طريحة الفراش تهذي وقد فقدت وعيها. قادتني زوجة الكاهن إلى غرفتها. اقتربت من سريرها بهدوء. صعقني ما أصاب وجهها من تبدّلات. لم تعرفني المريضة. وقفت أمامها طويلاً، ذاهلاً عن سماع الأب غيراسيم وزوجته الطيبة، اللذين كانا، على ما يبدو، يحاولان تهدئتي. أفلقتني أفكار قاتمة. حالة البنت اليتيمة المسكينة التي

لا حماية لها وهي متروكة في وسط المتمردين الحاقدين، وعجزي الشخصي، أخافاني. وشفا برين، شفا برين الذي كان يعدُّب خيالي. إنَّه قادر على فعل ما يشاء بعد أن منحه القيصر الدعيُّ سلطة إدارة القلعة، حيث بقيت الفتاة التعيسة التي كانت موضع كرهه من دون أن ترتكب ذنبًا. تُرى، ماذا كان باستطاعتي أن أفعل؟ كيف يمكنني أن أساعدها؟ كيف أحزَّرها من قبضة ذلك الشرير؟ لم يبقَ أمامي سوى وسيلة واحدة: قرَّرت التوجُّه فورًا إلى أرينبورغ، كي أستعجل تحرير قلعة بيلوغورسك، وأسهم في ذلك قدر استطاعتي. ودَّعت الكاهن وأكولينا بامفيلوفنا، طالبًا منهما بحراة رعاية تلك الفتاة التي صرت أعدها زوجتي. أمسكت يد الفتاة المسكينة وقَبَلتها مبلِّلاً إياها بالدموع.

- «وداعًا»، قالت لي زوجة الكاهن، وهي ترافقني إلى باب الدار، «وداعًا يا بيتر أندرييتش. قد نلتقي في زمن أفضل إن شاء الله. لا تنسنا، واكتب لنا دائمًا، فلم يبق الآن لماريا إيفانوفنا المسكينة من يعزِّيها، أو يحميها، غيرك أنت».

حين خرجت إلى الساحة، توقَّفت برهة، وألقيت نظرة على المشنقة، انحنيت محيِّيًا، ثم خرجت من القلعة وانطلقت في طريق أرينبورغ، يرافقني سافيليتش الذي لم يتخلَّف عني لحظة.

سرت غارقًا في أفكار، وفجأة سمعت وقع حوافر خيل ورائي. التفتُّ، فإذا بي أرى قوزاقًا يخرج من القلعة يعدو على حصانه ويجرُّ خلفه فرسًا بشكيرية ويرسل لي بيديه إشارات. توقَّفت، وسرعان ما عرفت أنَّه وكيلنا السابق. اقترب منِّي، ثم ترجَّل عن جواده وقال لي وهو يسلمني عنان الفرس الثانية:

- «يا صاحب السمو! إنَّ أبانا يهديك حصانًا وأحد معاطفه المحاكاة من الفراء (كانت هناك فروة من جلد الغنم مشدودة إلى سرج الفرس). وهو يهديك، عدا ذلك»، قال الوكيل متلعثمًا، «كيسًا من المال... لكنَّه سقط مني في الطريق، فأرجو أن يصفح عني قلبك الكبير».

نظر إليه سافيليتش بطرف عينه وقال متذمَّرًا:

- سقط في الطريق! إذن، ما الذي يخشخش في عبّك يا عديم الشرف!
  - «ما الذي يخشخش في عبّي؟»، قال الوكيل محتجًا، من دون أن يشعر بحرج، «ليسامحك الربُّ أيُّها العجوز! الذي يخشخش هو عنان الفرس وليس كيس المال».
  - «حسنًا»، قلت لهما منهيا النقاش، «اشكر باسمي من أرسلك، وحاول أن تلتقط، وأنت عائد، الكيس الذي سقط منك، واشرب الفودكا بما فيه من نقود».
  - «أنا ممتنٌّ لك جدًّا يا صاحب السموّ»، أجاب الوكيل، وهو يدير رأس حصانه، «سأصلي من أجلك مدى الدهر».
- قال هذه الكلمات وانطلق يعدو بحصانه عائداً، ممسكاً ما في عبّه بإحدى يديه، واختفى بعد دقائق عن الأنظار.
- ارتديت الفروة وامتطيت الفرس، وأردفت سافليتش خلف ظهري...
- «ها أنتذا ترى يا سيّدي»، قال العجوز، «أن نقرتي لجبين ذلك المحتال لم تذهب عبثاً. لقد خجل اللصّ، صحيح أن هذه الفرس البشكيرية العجوز والفروة من جلد الغنم لا تساوي نصف ما نهبه اللصوص منّا، ناهيك عمّا أهديته إيّاه أنت، ولكن كما يقول المثل، شعرة من جلد الخنزير مكسب».

## الفصل العاشر

### حصار المدينة

بعد أن احتلَّ السهول والجبال  
نظر من الذروة كالنسر إلى المدينة.  
أمر ببناء مظلة خلف أرتال الجنود،  
خبأ تحتها المدافع، لينقلها في الليل إلى ضواحي المدينة.  
خيراسكوف

حين اقتربنا من أرينبورغ، رأينا حشدًا من المحكومين بالأشغال الشاقة،  
رؤوسهم حليقة، ووجوههم شوَّهتها مخالب الجلَّادين. كانوا يعملون قرب  
التحصينات بإشراف مشوَّهي الحرب من عناصر الحامية. بعضهم كان ينقل في  
عربات، النفايات التي تملأ المكان، وبعضهم كان يحفر الأرض بالفوش، وكان  
الحجارة ينقلون قطع القرميد يصلحون بها جدار المدينة. استوقفنا الحرس عند  
بوابة المدينة وطلبوا بطاقتنا الذاتية، وحين سمع الرقيب أنني قادم من قلعة  
بيلوغورسك قادني مباشرة إلى منزل الجنرال.

التقيت الجنرال في حديقته. كان يتفقد أشجار التفاح التي عرَّتها أنفاس  
الخريف، ويساعد الحداثقي العجوز بتغطية جذوعها بعناية بالقش الدافئ.  
كان وجهه يجسّد الهدوء والصحة وطيبة القلب. فرح بلاقائي وراح يسألني عن  
الأحداث الفظيعة التي كنتُ شاهداً عليها. رويت له كلَّ شيء. سمعني الرجل  
العجوز باهتمام وهو يقطع الأغصان اليابسة.

- «مسكين ميرونوف!»، قال حين انتهيت من رواية قصّتي الحزينة، «أنا حزين لأجله، لقد كان ضابطاً جيّداً. والسيدة ميرونوف، كانت سيّدة طيّبة القلب، وأستاذة في تحضير الخيار المخلّل! وماذا عن ماشا، ابنة الأمر؟». أجبتّه أنّها بقيت في القلعة ترعاها زوجة الكاهن.

- «آي، آي، آي!»، قال الجنرال، «هذا سيّئ، سيّئ للغاية. الاعتماد على انضباط هؤلاء الأشقياء مستحيل. تُرى ماذا سيحلّ بهذه البنت المسكينة؟».

أجبتّه بأنّ قلعة بيلوغورسك ليست بعيدة، ومن الممكن أن يسارع سيادته فيرسل قوّة تحرّر أهلها المساكين. هزّ الجنرال رأسه وقد بدا عليه الحذر.

- «سنرى، سنرى»، قال لي، «ما زال لدينا متّسع من الوقت لتحدّث في الأمر. أمّا الآن، فتفضّل واقل دعوتي إلى كوب شاي، سنعقد في مساء اليوم مجلساً حربياً. وسيكون بإمكانك أن تقدّم لنا معلومات أكيدة عن هذا المتشرّد بوغاتشوف وجيشه. أمّا الآن فاذهب وخذ قسطاً من الراحة».

ذهبت إلى الشقّة المخصّصة لسكني، وكان سافيليتش قد سبقني إليها ورثّبها، وهناك رحت أنتظر بنفاد صبر حلول الموعد المحدّد. يستطيع القارئ أن يتصوّر بسهولة، أنّي لن أتأخّر عن موعد انعقاد المجلس الذي يجب أن يكون له تأثير كبير في حياتي. وهكذا كنت عند الجنرال في الموعد المحدّد تماماً.

وجدت عنده مدير الجمارك، وهو موظّف مدنيّ كبير السنّ، بدين، متورّد الخدّين في قفطان من قماش لمّاع، راح يسألني عن مصير إيفان كوزميتش ويسمّيه «الإشبين». كان يقاطعني كثيراً بأسئلة إضافية وملاحظات وحجّم، إن لم تدلّ عليه كرجل مطّلع على العلم العسكري، فهي، في أقلّ تقدير، تدلّ على أنّه رجل فهيم، ذو ذكاء فطري. أخذ المدعوّون بالحضور في هذه الأثناء، لم يكن بينهم أيّ عسكريّ عدا الجنرال. حين جلس الجميع وقُدّمت لهم أكواب الشاي، عرض الجنرال بوضوح وتفصيل شديد الوضع الذي قدّموا لمناقشته.

- «والآن، أيُّها السادة»، تابع الجنرال، «علينا أن نقرّر كيف يجب أن نتصرّف في مواجهة المتمرّدين: هل نهاجم، أم ندافع؟ إنَّ لكلّ طريقة محاسنها ومساوئها. العمل الهجومي يقوِّي الأمل في القضاء على العدو. أمّا العمل الدفاعي فأكثر ضماناً وأقلُّ خطراً... وهكذا سنبدأ بجمع الأصوات بالتسلسل القانوني، أي نبدأ بالرتب الأدنى. أيُّها السيّد الملازم!»، تابع موجّها الكلام إليّ، «قلّ لنا رأيك إذا سمحت».

نهضت، فوصفت أولاً بوغاتشوف وعصابته بكلمات موجزة، وأكدت أنَّ القيصر الدعيّ ما كان قادراً على الصمود لو استُخدم السلاح استخداماً صحيحاً. استقبل الموظّفون رأيي باستهجان واضح. لقد رأوا فيه أخطاء وجرأة شاب صغير السنّ. علت الهمهمة، وسمعت بوضوح كلمة «رضيع» يلفظها أحدهم بصوت خافت. التفت الجنرال نحوي وقال باسمًا:

- أيُّها السيّد الملازم! الآراء الأولى تكون عادة في المجالس الحربية لصالح التحرّكات الهجومية، هذا أمر طبيعي. والآن، سنتابع جمع الآراء. أيُّها السيّد المستشار! قلّ لنا رأيك!

شرب الموظّف المتقدّم في السنّ كوبه الثالث من الشاي الممزوج بنسبة عالية من الروم، على عجل وأجاب الجنرال:

- أعتقد يا صاحب المعالي أننا يجب ألا نقوم بأيّة أعمال هجومية أو دفاعية.

- «كيف ذلك أيُّها المستشار؟»، اعترض الجنرال دهشًا، «التكتيك لا يعرف طرقًا أخرى: الحركة تكون إمّا دفاعية أو هجومية»...

- تحرّك يا صاحب السيادة حركة شرائية.

- إيخ خي خي! رأيك حكيم جدًّا. التكتيك يسمح بالحركة الشرائية، ونحن سنأخذ بنصيحتك. يمكننا أن ندفع مقابل رأس كلّ شقيّ... سبعين روبلاً أو حتى مئة... من النفقات السرية...

- «وحينذاك»، قاطعه مدير الجمارك، «لن أكون مستشارًا، بل غنمة قرغيزية، إذا لم يقم هؤلاء اللصوص بتسليمنا زعيمهم مقيد اليدين والرجلين».

- «سنعود، فيما بعد، للتفكير في هذا الأمر ومناقشته»، أجاب الجنرال، «ولكن علينا في كل الأحوال أن نتخذ إجراءات عسكرية أيضًا. أيها السادة، اطرحوا آراءكم حسب التسلسل القانوني».

جاءت الآراء كلها مناقضة لرأيي. تكلم الموظفون كلهم عن عدم صلاية الجيش، وعدم ضمان النتائج، وعن الحذر وما شابه ذلك. وافترضوا جميعًا أن الأمر الأكثر حكمة هو البقاء تحت مظلة المدافع خلف الأسوار الحجرية المتينة. وبعد أن سمع الجنرال الآراء، نفّض رماد غليونه وقال أخيرًا الكلمة التالية:

- يا سادتي! يجب أن أعلن من ناحيتي أنني أوافق تمامًا على رأي الملازم، لأنّ هذا الرأي مبني على كل قواعد التكتيك السليم، التي تفضّل دائمًا تقريبًا، الحركة الهجومية على الحركة الدفاعية.

هنا توقّف وراح يحشو غليونه بالتبغ. شعرت بالظفر، ورحت أنظر بتعالٍ إلى الموظفين الذين صاروا يتهايمسون مُظهرين سُخطهم وقلقهم.

- «ولكن، يا سادتي»، تابع وهو يطلق تهيدة عميقة مصحوبة بسحابة كثيفة من دخان التبغ، «أنا لا أستطيع أن أتحمّل هذه المسؤولية العظيمة حين يتعلّق الأمر بأمن المناطق التي ائتمنت عليها من جلاله الإمبراطورة، مولاتي الرؤوم. ولذا أنا أوافق على رأي أغلبية الأصوات التي قرّرت أن من الأكثر حكمة والأقل خطرًا على المدينة، انتظار الحصار وصدّ هجوم العدو بقوة المدفعية والإغارة عليه - حين يصبح ذلك ممكنًا - ودحره».

عند ذلك نظر الموظفون إليّ بدورهم نظرة ساخرة. انفضّ الاجتماع. ولم أستطع إلّا أن أشعر بالإشفاق على ضعف المحارب المحترم الذي اتّخذ قرارًا يتناقض كليًا وقناعته، باتباع رأي أناس عديمي المعرفة والخبرة.

بعد مرور بضعة أيام على ذلك الاجتماع الشهير، عرفنا أن بوغاتشوف صدق وعده، وأنه يقترب من أرينبورغ. ورأيت جيش المتمردين من فوق سور المدينة، فلاحظت أن عددهم قد تضاعف عشر مرات عما كان عليه في الهجوم الأخير الذي شهدته، وأن لديهم مدافع حصل عليها بوغاتشوف من الحصون الصغيرة التي احتلها. وقدّرت، وأنا أتذكّر قرار المجلس الحربي، بأننا سنبقى زمنًا طويلًا سجناء أسوار أرينبورغ، فكدت أبكي من الحزن.

لن أصف حصار أرينبورغ فهو ليس موضوع مذكّرات عائلية، بل هو ملك التاريخ. سأقول بإيجاز إن هذا الحصار الذي حدث بسبب قصر نظر الإدارة المحليّة، كان مدمرًا بالنسبة للسكان الذين عانوا من الجوع وشتّى أنواع الكوارث. من السهل على المرء أن يتخيّل أن الحياة في أرينبورغ صارت لا تُطاق. وأنّ الجميع صاروا ينتظرون في اكتئاب مصيرهم. الجميع تأوّهوا ألمًا من ارتفاع الأسعار التي باتت مخيفة فعلاً. واعتادوا على القذائف التي تسقط في باحات دورهم، حتى هجمات بوغاتشوف لم تعد تُثير اهتمام الناس. كنت أموت ضجرًا. والزمن يمضي. لا رسائل من قلعة بيلوغورسك. الطرق كلّها كانت مقطوعة. والبُعد عن ماريا إيفانوفنا ما عاد محمولًا، وجهلي بأحوالها يعذبني. لم يكن عندي ما أتسلّى به سوى ركوب الخيل. لقد كان عندي، والفضل لبوغاتشوف، فرس طيّبة أتقاسم وإياها طعامنا القليل، وأخرج على ظهرها يوميًا إلى خارج المدينة، فأتبادل إطلاق النار مع فرسان بوغاتشوف. كانت الكفّة في عمليات إطلاق النار هذه تميل عادة لصالح الأشرار الشيعيين، السكارى، الممتطين خيولًا طيّبة، وفرسان مدينتنا الناحلون لم يكن بمقدورهم التغلّب عليهم. كان جنودنا المشاة الجائعون يخرجون إلى السهل أيضًا في بعض الأحيان، لكنّ كثافة الثلج كانت تُعيق نجاحهم في قتال الفرسان المتناثرين في السهب. وكانت المدفعية تقصف من دون جدوى من أعلى المنحدر، أمّا في السهل فكانت عجلاتها تغوص في الثلج ولا تتحرّك بسبب ضعف خيول الجرّ. هذه كانت صورة أعمالنا الحربية! وهذا ما سمّاه موظّفو أرينبورغ حذرًا وحكمة.



ذات يوم، حين استطعنا بشكل ما أن نفرّق ونطرد حشدًا كثيفًا إلى حدٍّ ما، هجمت على قوزاقيّ تخلف عن زملائه، وهممت بضربه بسيفي التركي، لكنّه خلع قَبْعته فجأةً وصاح:

- مرحبًا يا بيتر أندرييتش! كيف حالك؟
- نظرت إليه، فعرفت وكيلنا. فرحت كثيرًا بلقائه.
- مرحبًا يا ماكسيميتش، هل تركت بيلوغورسك منذ زمن طويل؟
- بل من فترة قصيرة، يا أبتِ بيتر أندرييتش، البارحة عدت من هناك. أنا أحمل رسالة لك.
- «أين هي؟»، صرخت يتملّكني الانفعال.
- «إنّها معي»، أجاب ماكسيميتش، داسًا يده في عبّه، «لقد وعدت بالاشا أن أوصلها لك بأيّ طريقة». قال ذلك وأعطاني ورقة مطويّة وغادر يعدو بفرسه. فتحت الرسالة وقرأت مرتعشًا السطور التالية:
- شاء الله أن أحرم أبي وأمي فجأةً، وليس لي في الأرض أقارب أو رعاة. ألجأ إليك لأنّي أعرف أنّك كنت تريد لي الخير دائمًا، وأنّك مستعدّ لمساعدة أيّ إنسان. أدعو الله أن تصل إليك هذه الرسالة! ماكسيميتش وعدني أن يوصلها إليك. لقد سمعت بالاشا من ماكسيميتش أنّه يراك كثيرًا عن بُعد في غزواتك خارج السور، وأنّك لا تحرص أبدًا على سلامتك، لا تفكّر في أولئك الذين يُصلُّون من أجلك والدموع تنهمر من عيونهم. لقد مرضت طويلاً، وحين شُفيت، أرغم أليكسي إيفانيتش، الذي يدير الأمور عندنا، الأب غيراسيم على تسليمي له، مهدّداً إيّاه ببوغاتشوف. أنا أقيم في بيتنا تحت الحراسة. أليكسي إيفانيتش يحاول إرغامي على الزواج منه. هو يقول إنّه أنقذ حياتي لأنّه لم يفضح خدعة أكوлина بامفيلوفنا، التي قالت للأشرار إنني قريبتها. أمّا أنا فكان أسهل عليّ أن أموت، من أن أصبح زوجة لرجل مثل أليكسي إيفانيتش. إنّه يعاملني بقسوة شديدة ويهدّدني بأنّه، إن لم أغيّ رأيي وأوافق، سينقلني إلى معسكر الشّرير، لأواجه ما واجهته ليزافيتا خارلوفنا. لقد طلبت من أليكسي إيفانوفيتش

مهلة للتفكير، فوافق على انتظار ردِّي ثلاثة أيام، لن تكون لي أية رحمة بعدها، إذا رفضت الزواج منه، يا أبتِ بيتر أندريتش! أنت حامِي الوحيد، دافع عني، أنا المسكينة. اطلب من الجنرال وكلّ القادة أن يرسلوا إلينا نجدة، وتعال، أنت نفسك، إن استطعت.

يتيمتك المطيعة المسكينة

ماريا ميرونوفا

قرأت الرسالة فكدت أفقد عقلي. عدوت إلى المدينة بفرسي، وأنا أسوطها من دون رحمة. ورحت في الطريق أفكر في شتّى سبل إنقاذ الفتاة المسكينة من دون جدوى. وصلت إلى المدينة، فتوجّهت مباشرة إلى الجنرال، ودخلت عليه مكتبه فوراً.

كان الجنرال يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وهو يدخن غليونيه البنفسجي. توقّف حين رأي، لا بدّ من أنْ مظهري أدهشه، استفسر مني باهتمام ومودة عن سبب قدومي العاجل.

- «يا صاحب السعادة»، قلت له، «ألجأ إليك كأبٍ حنون، أستحلفك بالله ألا ترفض طلبي: القضية تتعلّق بسعادتي مدى الحياة».

- «ما الأمر يا أبتِ؟»، سأل العجوز دهشاً، «ماذا أستطيع أن أفعل لأجلك؟ قل».

- مُرّ يا صاحب السيادة بإعطائي سرّيّة جنود وخمسين قوزاقيّاً، واسمح لي بتطهير قلعة بيلوغورسك.

حدّق إليّ الجنرال مليّاً، مفترضاً، على ما يبدو، أنّي جُننت (وهو محقٌّ في ذلك تقريباً).

- «كيف هذا؟ كيف ستطهّر قلعة بيلوغورسك؟»، سأل في نهاية المطاف.

- «أنا أتعهدّ لك بالنجاح»، أجبتّه بحرارة، «اسمح لي فقط، أن أفعل ذلك».

- «لا، أيُّها الشابُّ»، قال وهو يهزُّ رأسه، «سيكون من السهل على العدو، بسبب بُعد المسافة، أن يقطع اتصالك بالنقطة الاستراتيجية الرئيسة، وسيُحقِّق عليك نصرًا كاملاً. إنَّ قطع الاتصال...»
- شعرت بالخوف وأنا أراه يغوص في الفكر العسكري، فسارعت إلى مقاطعته.
- «إنَّ ابنة النقيب ميرونوف»، قلت له، «كتبت لي رسالة تطلب فيها المساعدة، شفابرين يريد إرغامها على الزواج منه».
- «أحقًّا؟ آه، إنَّ شفابرين هذا Schelm<sup>(1)</sup> فظيع، إذا وقع في يدي سأطلب محاكمته في 24 ساعة، وسُعدمه على أسوار القلعة! أمَّا الآن فيجب أن نتحلَّى بالصبر...
- «نتحلَّى بالصبر!»، صرخت وقد خرجت عن طوري، «وهو في أثناء ذلك يتزوَّج ماريا إيفانوفنا!...»
- «أوه!»، قاطعني الجنرال، «هذه ليست مصيبة. الأفضل لها أن تكون زوجة شفابرين مؤقتًا؛ إنَّ هذا قد يؤمِّن لها الحماية، وبعد أن نُعدمه، ستجد، إن شاء الله، زوجًا. الأرامل الصغيرات السنَّ لا يبقين من دون زواج، أي، أنا أريد القول إنَّ الأرملة تجد لنفسها زوجًا أسرع من العذراء المتقدِّمة في السنَّ».
- «أنا أفضل الموت»، قلت مهتاجًا، «على أن أتنازل عنها لشفابرين!».
- «با، با، با، با!»، قال الجنرال العجوز، «الآن فهمت: أنت كما هو واضح، تحبُّ ماريا إيفانوفنا. أوه، هذا أمر آخر! مسكين أيُّها الفتى! ومع ذلك أنا لا أستطيع أبدًا أن أعطيك سرِّيَّة من الجنود، وخمسين من القوزاق. إنَّ هذه الحملة غير معقولة، وأنا لا أستطيع أن آخذها على مسؤوليتي».
- طأطأت رأسي، وتملَّكني اليأس. وفجأة، خطرت في بالي فكرة ستعرفها أيُّها القارئ في الفصل القادم، كما يقول الروائيون القدماء.

(1) عاهر (بالألمانية).

## الفصل الحادي عشر

### في قرية المتمردين

شبع الأسد آنذاك، ورغم أنه وحش بطبعه

«ماذا جئت تفعل في عربي؟»

سأله بحنان.

آ. سوماروكوف

تركت الجنرال وذهبت مسرعاً إلى مسكني، فاستقبلني سافيليتش بمواعظه المعتادة.

- لم يكن ينقصك يا سيدي إلا معاشرة قُطَاع الطُّرُق السكارى! أهذا عمل يليق بالنبلاء! قد نخسرك في ساعة غفلة، لا قدَّر الله. وليت هذا يحدث في حرب مع تركي أو سويدي، إنه يحدث مع خصم أخجل أن أسميه.

قطعت خطبته بسؤال:

- كم معي من النقود عموماً؟  
- «اطمئن»، أجابني وقد ارتسمت على وجهه علامات الرضا، «لقد نبش المحتالون كلَّ شيء، ومع ذلك استطعتُ أن أخفي النقود».  
قال هذه الكلمات وأخرج من جيبه كيساً طويلاً منسوجاً يدوياً مملوءاً بالفضّة.

- «حسنًا يا سافيليتش»، قلتُ له، «أعطني نصفه الآن، وخُذ أنت الباقي. أنا ذاهب إلى قلعة بيلوغورسك».

- «يا أبتِ بيتِر أندريتش!»، قال العجوز الطيّب بصوت أرعش، «أتق الله، كيف ستسير في الطريق في هذا الزمن، حيث لا طريق للسفر بسبب اللصوص! ارحم والديك على الأقل، ما دمت لا ترحم نفسك. إلى أين ستسافر؟ ولماذا؟ انتظر بعض الوقت: ستأتي القوّات، وسيُلقون القبض على المجرمين، عند ذلك سافر إلى حيث تشاء».

لكنّ قراري كان حاسماً لا رجعة عنه.

- «وقت مناقشة الأمر قد فات»، أجبْتُ الرجل العجوز، «يجب أن أسافر، لا أستطيع إلغاء سفري. لا تضغط عليّ يا سافليتش، الله كريم، وقد نلتقي! انتبه، لا تخجل، ولا تبخل على نفسك. اشترِ كلّ ما تحتاجه حتى لو بثلاثة أضعاف ثمنه. أنا أهديك هذه النقود. إذا لم أعد بعد ثلاثة أيّام»...

- «ماذا تقول يا سيّدي؟»، قاطعني سافليتش، «أتركك تسافر وحدك! لا تطلب هذا حتى في منامك، فأنا سأتبعك لو سيرا على الأقدام ما دمت قد قرّرت السفر، ولن أفارقك. أتريدني أن أقعد هنا وراء السور الحجري من دونك! هل تراني فقدت عقلي؟ الأمر أمرك يا سيّدي، أمّا أنا فلن أفترق عنك».

أدركت أنّ الجدال مع سافليتش لا يُجدي، فسمحت له أن يستعدّ للسفر. وبعد نصف ساعة، امتطيت حصاني الأصيل، وركب سافليتش الفرس العجوز النحيلة العرجاء، التي أعطاه إيّاها مجّاناً أحد سكّان المدينة بعد أن عجز عن إطعامها، واتّجهنا إلى بوابة المدينة، حيث سمح لنا الحراس بالمرور وخرجنا من أرينبورغ.

بدأ الليل يهبط. الطريق يمرُّ بالقرب من بلدة بيردسكويه، حيث معسكر البوغاتشوفيين. كان الطريق المباشر مغموراً بالثلج، ولكنّ آثار حوافر الخيل المتجدّدة يوميّاً تملأ السهب. كنت أعدو بفرسي خبيّاً، وسافليتش يكاد يعجز عن اللحاق بي، فيصرخ من بعيد بين فينة وأخرى:

- أبطئ يا سيدي، أبطئ، كرمي لله. عجوزي الملعونة لا تستطيع اللحاق بشيطانك الطويل القوائم. تُرى إلى أين تُسرع؟ ليتك كنت تسرع إلى وليمة، لكنك تسرع لملاقاة الخطر، احذر يا سيدي... بيتر أندريتش... يا أبت بيتر أندريتش! لا تقتلنا! إلهي يا مالك الملك، إن ابن سادتي يضع! سرعان ما التمعت أضواء بيردسكويه. وصلنا إلى الوديان وهي خطوط حماية طبيعية للبلدة. لم يتأخر سافيليتش عني، ولم تنقطع توسلاته. كنت آمل أن أجتاز البلدة بسلام، وفجأة رأيت في العتمة أمامي مباشرة نحو خمسة من الفلاحين المسلّحين بالعصي الغليظة. هؤلاء كانوا خط الحراسة الأمامي لمعسكر البوغاتشوفيين. أطلقوا صيحة تحذير. كنت لا أعرف كلمة السر، فقررت أن أمر بقرّبهم صامتاً، لكنهم طوّقوني في الحال، وأمسك أحدهم بعنان فرسي. سللت سيفي وضربت الفلاح على رأسه؛ أنقذته قبعته، لكنه ترنّح وترك مقود الحصان. الآخرون ارتبكوا وتفرّقوا، انتهزت هذه الفرصة فسطت الفرس وانطلقت بها إلى الأمام.

كانت عتمة الليل الزاحفة قادرة على حمايتي من شئ الأخطار، لكنني لاحظت فجأة أن سافيليتش لم يكن إلى جانبي. مسكين ذلك العجوز! لم يستطع بفرسه العرجاء أن يفلت من قاطعي الطريق. لم أدر ماذا أفعل. انتظرت بضع دقائق، وبعد أن تأكدت أنهم أوقفوه، استدردت بفرسي وهرعت لنجدته.

حين اقتربت من الوادي سمعت ضجّة وصيحات من بعيد، وصوت صاحبي سافيليتش. أسرع في العدو، فوجدت نفسي من جديد بين الحراس الذين أفلت منهم قبل دقائق. كان سافيليتش بينهم. لقد أخذوا العجوز عن ظهر دابته واستعدّوا لشدّ وثاقه. أبهجتهم عودتي. اندفعوا نحوي يصرخون، وفي لحظة أنزلوني عن ظهر الحصان. أحدهم، يبدو أنه رئيسهم، أبلغنا أنه سيأخذنا الآن إلى القيصر.

- «إن أبانا»، أضاف، «حرّ في قراره أن يشنقكما الآن، أو ينتظر إشراق الصباح الربّاني».

لم أقاوم، وحذا سافيليتش حدوي، وقادنا الحرّاس وهم يشعرون بالظفر.

اجتزنا الوادي ودخلنا البلدة. كانت البيوت كلّها مُضاءة. الضجّة والصراخ يسودان في كلّ مكان. التقيت في الشارع كثيرًا من الناس، لكنّ العتمة حالت دون أن يلحظ أو يعرف أحد أنّني ضابط من أرينبورغ. قادونا مباشرة إلى كوخ في زاوية من زوايا تقاطع الطرق. عند البوابة اصطفت مدفعان وبعض براميل البنيد.

- «ها هو ذا القصر»، قال أحد الحرّاس، «الآن سنبلّغ عنكما».

دخل إلى البناء. نظرت إلى سافيليتش، كان العجوز يرسم شارة الصليب ويصلّي من دون صوت. انتظرتُ طويلًا، وأخيرًا عاد الحارس، وقال لي:  
- ادخل! إنّ أبانا أمر بإدخال الضابط.

دخلت الكوخ، أو القصر، كما سمّاه الفلاحون. كان المكان مضاء بشمعتين قويّتي الإنارة، والجدران مغطّاة بورق ذهبيّ اللون. غير أنّ المقاعد والطاولة، والمغسلة المعلّقة بحبل، والمنشفة المعلّقة بمسمار، والملقط، والمصطبة العريضة أمام الموقد، والقدر التي عليها، كلّ ذلك كان كالمعتاد في الأكواخ الأخرى. كان بوغاتشوف يجلس تحت الأيقونات، بقفطان أحمر، وقبّعة عالية، مشدود القامة بشكل يوحي بالأهمية، وقد وقف إلى جانبه عدد من رفاقه الرئيسيين المتظاهرين بالخضوع. كان واضحًا أنّ خبر حضور ضابط من أرينبورغ أيقظ فضولًا لدى المتمرّدين، فاستعدّوا للقائي يُخامرهم شعور بالظفر. عرفني بوغاتشوف من النظرة الأولى، فاخفت ملامح الأهميّة الزائفة التي أسبغها على مظهره فجأة.

- «آها! هذا أنت يا صاحب السمو!»، قال لي بحيويّة، «كيف حالك؟ وما الذي جاء بك إلينا؟».

أجبتّه أنّي كنت مسافرًا لغرض يخصّني، فأوقفني رجاله.

- «وما هذا الغرض؟»، سألني.

لم أعرف بماذا أجيب. فافترض بوغاتشوف أنني لا أريد الإجابة أمام الآخرين، فالتفت إلى رفاقه وطلب منهم الخروج. أطاعه الجميع، ما عدا اثنين لم يتحرّكا من مكانهما.

- «تكلّم بجرأة أمامهما»، قال لي بوغاتشوف، «أنا لا أخفي عنهما شيئا». نظرت بطرف عيني إلى الرجلين اللذين يأتنيهما بوغاتشوف على أسراره. كان أحدهما عجوزاً ضئيلاً، مقوَّس الظهر، أشيب اللحية، وليس فيه أيُّ شيء لافت للنظر، سوى شريطة زرقاء تقلّدها عبر الكتف فوق سترة رمادية. لكنني لن أنسى ما حييت زميله. كان طويل القامة، ممتلئ الجسد، عريض الكتفين، وقد بدا لي أنه في نحو الخامسة والأربعين. لحيته كثيفة، وعينه رماديتان لامعتان، أنفه من دون خيشوم، وثمة نقاط حمراء على جبينه وخدّيه، أسبغت على وجهه العريض تعبيراً يصعب تفسيره. كان يرتدي قميصاً أحمر، ورداء قرغيزياً، وسراويل قوزاقية، الأوّل (كما عرفت فيما بعد) كان العريف الهارب بيلوبورودوف، أمّا الثاني فهو أفاناسي سوكولوف (الملقب خلوبوشا)، وهو مجرم منفيّ، هرب ثلاث مرّات من مناجم سيبيريا. وبغضّ النظر عن المشاعر التي كانت تُقلّني بشكل خاصّ، متّع المجتمع الذي وُجدت فيه مصادفة، خيالي بشدّة، لكنّ بوغاتشوف أعادني إلى ذاتي بسؤاله:

- تكلّم! ما الغرض الذي تركت من أجله أرينبورغ؟

خطرت في بالي فكرة غريبة: بدا لي أنّ النبوءة التي رأيته في المنام هي التي قادني إلى بوغاتشوف مرّة ثانية، وهي بذلك تمنحني فرصة لتحقيق ما أريده، فقرّرت الاستفادة منها، حتى قبل أن أناقش ما أنوي فعله، وأجبت عن سؤال بوغاتشوف قائلاً:

- كنت مسافراً إلى قلعة بيلوغورسك لإنقاذ يتيمة يظلمونها هناك.

التمعت عينا بوغاتشوف.

- «مَنْ مِنْ رجالي يجرؤ على إيذاء يتيمة؟»، صرخ بوغاتشوف، «إنّه لن ينجو من عقابي حتى لو كان عرض جبينه سبعة أشبار. قلْ من المذنب؟».



- «المذنب هو شفابرين»، أجبتة، «إنه يسجن البنت التي رأيته أنت مريضة عند زوجة الكاهن، ويريد أن يتزوجها قسرًا».
- «سأري شفابرين»، قال بوغاتشوف متوعدًا، «سيعرف مني كيف أعاقب من يتصرف على هواه ويسيء إلى الشعب. سأشقه».
- «اسمح لي بكلمة»، قال خلابوشا بصوت أجش، «لقد استعجلت فعينت شفابرين أميرًا للقلعة، والآن تستعجل في الحكم عليه بالشنق. لقد أهنت القوزاق حين عينت أحد النبلاء رئيسًا عليهم، فلا تخف النبلاء بإعدامهم عند تلقيك أول شكوى ضدهم».
- «إنهم لا يستحقون الشفقة أو الإكرام!»، قال العجوز الضئيل ذو الشريطة الزرقاء، «ليس إعدام شفابرين أمرًا مؤسفًا، وليس سيئًا استجواب السيد الضابط كما يجب: لماذا شرفنا بزيارته، فليس من حقه أن يطلب منك إنصافه، إذا كان لا يعترف بك قيصراً، أمّا إذا كان يعترف بك فلماذا بقي حتى هذا اليوم في أرينبورغ مع أعدائك؟ أنا أرى أن نضعه في العنبر، ونشوي هناك جسده بالنار، فأنا أظن أن جنابه مدسوس علينا من قادة أرينبورغ».
- بدا لي منطق الشرير العجوز مقنعًا للغاية، فسرت القشعريرة في جسدي كله، وأنا أفكر في الناس الذين وقعت في أيديهم. ولاحظ بوغاتشوف اضطرابي.
- «هل هذا صحيح يا صاحب السمّ؟»، قال وهو يغمز لي بعينه، «يبدو لي أن فيلدمارشالي محقّ في قوله. ما رأيك؟».
- سخرية بوغاتشوف أنعشتني مجددًا، فأجبت بهدوء أنني تحت سلطانه، وأنه يستطيع أن يفعل بي ما يشاء.
- «طيب»، قال بوغاتشوف، «حدثني الآن عن حال مدينتكم».
- «الحمد لله»، أجبتة، «كل شيء على ما يرام».
- «على ما يرام؟»، كرّر بوغاتشوف، «والناس تموت من الجوع!».
- القيصر الدعي كان يقول الحقيقة. غير أنني، بحكم ما يوجه عليّ القسم،

رحت أوكد له أن كل ذلك إشاعات فارغة، وأن في أرينبورغ احتياطياً كبيراً من شتى المؤمن.

- «أنت ترى»، قطع العجوز الحديث، «أنه يخدعك وجهها لوجه. الفارزون كلهم يؤكدون بالإجماع أن أرينبورغ تعاني الجوع والموت، وأن الناس هناك يأكلون الجثث المتفسخة، ويعدون من يحصل على شيء منها محظوظاً، أما جنابه فيؤكد أن كل شيء متوفر. أنصحك، ما دمت تريد شئ شفايرين، أن تعلق على المشنقة نفسها هذا البطل، كي لا يحسد أحد أحداً».

بدا لي أن كلمات العجوز اللعين هزت قناعات بوغاتشوف. لكن خلوبوشا اعترض، لحسن الحظ، على كلام زميله.

- «كفى يا نغوميتش»، قال له، «أنت تدعو دائماً إلى القتل والتشقيف. أي عملاق أنت؟ إن من ينظر إليك يستغرب كيف تستقر روح في هذا الجسد الضعيف. أنت نفسك على حافة قبرك وتقتل الآخرين. ألا يكفيك ما أرق من دماء؟».

- «وأي قديس أنت؟»، صاح بيلوبورودوف محتجاً، «من أين هبطت عليك الرحمة؟».

- «طبعاً»، أجاب خلوبوشا، «أنا آثم أيضاً. وهذه اليد (ضم قبضته البارزة عظامها، ورفع كمه كاشفاً ذراعاً كثيفة الشعر)، هذه اليد مسؤولة عن إراقة دم مسيحي كثير. لكنني فتكت بعدو لا بضيف. قتلهم في أرض مكشوفة أو غابة مظلمة، لا في البيت وأنا جالس قرب الموقد، بالهراوة وحد السيف، لا بوشايات النساء».

أدار العجوز له ظهره ودمدم متدمراً:

- يا لممزق الخياشيم!

- «بماذا تتمم أيها العجوز المتداعي؟»، صاح خلوبوشا، «سأريك يا ممزق الخياشيم، انتظر، سيأتي، سيأتي زمن تشم فيه، إن شاء الله،

رائحة الملاقط... لكن، حتى يحين ذلك الوقت، حاذر، كيلا أنتف لك لحيتك!».

- «أيُّها السيّدان الينرالان!»، قال بوغاتشوف بلهجة توحى بالأهمية، «كفاكما خصامًا. ليست مصيبة أن ترتجف سيقان كلاب أرينبورغ كلّها تحت عارضة المشنقة، المصيبة هي أن تتخاصم كلابنا فيما بينها. هيّا تصالحا!».

خلوبوشا وبيلوبورودوف تبادلًا نظرات قاتمة، ولم ينطقا بكلمة، رأيت أنّ من الضروري تغيير الحديث الذي كان من الممكن أن ينتهي بالنسبة إليّ نهاية سيئة للغاية، فالتفتُ إلى بوغاتشوف وقلت له بلهجة مرحة:

- آخ! لقد كدت أنسى أن أشكرك لمنحي الحصان والفروة، فمن دونهما ما كنت لأصل إلى المدينة، ولتجمّدت في الطريق. نجحت حيلتي، انفرجت أسارير بوغاتشوف.

- «جمالُ الدّين في ردّه»، قال وهو يغمز بعينه ويزمُّهما، «حدّثني الآن ما علاقتك بهذه البنت التي يُسيء إليها شفايرين؟ أهي حبيبة القلب؟ ها؟».

- «إنّها خطييتي»، أجبت بوغاتشوف، فقد رأيت تبدّل المناخ ولم أجد ضرورة لإخفاء الحقيقة.

- «خطييتك!»، صاح بوغاتشوف، «لم لم تقل ذلك من قبل؟ نحن سنزوِّجك بها ونحتفل بعرسك!». ثم توجّه بكلامه إلى بيلوبورودوف: «اسمع يا فيلدمارشال! نحن وسموّه صديقان منذ زمن، دعونا الآن نناول العشاء، والصبح رباح، غدًا سنرى كيف سنعالج أمره».

كنت أتمنّى رفض هذا التكريم ولكن ما باليد حيلة. ابتنا صاحب المنزل القوزاقي الفتيتان مدّتًا غطاء أبيض على الطاولة، وأحضرتا الخبز وحساء السمك وعدّة زجاجات من النبيذ والبيرة، وهكذا وجدت نفسي للمرّة الثانية على مائدة بوغاتشوف ورفاقه المخيفين.

استمرت هذه الوليمة الصاخبة التي عايشتها رغمًا عني، حتى أعماق الليل. وأخيرًا بدأ السكر يتغلب على الساهرين. أغفى بوغاتشوف جالسًا على كرسيه، ونهض رفاهه مشيرين إليَّ بضرورة تركه وحيدًا. خرجت معهم. وبأمر من خلوبوشا اقتادني الحراس إلى كوخ يستخدمونه سجنًا، وجدت فيه سافيليتش، وهناك تركنا الحراس سجينين. بدا العجوز مذهولًا وهو يرى ما كان يحدث فلم يطرح عليَّ أيَّ سؤال. تمدد في العتمة وظلَّ ينتهد ويتأوه فترة طويلة، ثم أغفى أخيرًا وعلا شخير، أمّا أنا فاستسلمت لأفكاري التي حرمتني النوم دقيقة واحدة من الليل.

في الصباح، جاؤوا يدعونني لمقابلة بوغاتشوف. ذهبت إليه. عند البوابة كانت تقف عربة أسرجت إليها ثلاث خيول تترية. وكان الناس محتشدين في الشارع. التقيت بوغاتشوف في المدخل. كان يرتدي ملابس السفر، معطف فراء قرغيزيًا، وقبعة من الفراء. وكان جلساء الأمس يحيطون به متظاهرين بالولاء والخضوع، الأمر الذي كان يناقض بشدة كلَّ ما كنت شاهدًا عليه في العشيّة. حيّاني بوغاتشوف بمرح وأمرني بالجلوس معه في العربة. جلسنا.

- «إلى قلعة بيلوغورسك!»، قال بوغاتشوف للترّي ذي المنكبين العريضين الذي كان يقود الترويكًا واقفًا.  
خفق قلبي بشدة. تحرّكت الخيول، ورنت أجراسها، واندفعت العربة كالطير...

- «قف! قف!»، نادى صوت أعرفه جيّدًا، إنّه سافيليتش يركض لملاقانا. أمر بوغاتشوف الحوذي بالتوقّف.  
- «يا أبت بيتر أندريتش!»، صاح العجوز، «لا تتركني في شيخوختي مع هؤلاء المحت...»

- «ها، هذا أنت يا عجوز!»، قال له بوغاتشوف، «لقد أذن الله بلقائنا مرّة ثانية. طيّب، اجلس إلى جانب الحوذي».

- «شكرًا، أيُّها القيصر، شكرًا يا أبانا الحبيب!»، قال سافيليتش، وهو يحتل مكانه، «ليمحك الربُّ مئة عام من الصحَّة، لأنَّك رأيتني، أنا العجوز، وهذأت روعي. سأصلي طول عمري من أجلك، ولن أذكر المعطف المصنوع من جلد الأرانب بعد اليوم».

كان بإمكان هذا المعطف من جلد الأرانب أن يُغضب بوغاتشوف غضبًا شديدًا، غير أنَّ هذا القيصر الدعيّ، لحسن الحظّ، لم يسمع، أو تجاهل تلميح سافيليتش الذي جاء في غير محله. انطلقت الخيول، والناس مصطفون على الطريق، يحيون بانحناءات تلامس فيها رؤوسهم صدورهم. وكان بوغاتشوف يُحيي بإحناء خفيفة من رأسه الناس على الجانبين. بعد دقيقة خرجنا من البلدة وانطلقنا في طريق منبسطة. يستطيع المرء بسهولة أن يتصوّر مشاعري في تلك اللحظة، فبعد عدّة ساعات يجب أن ألتقي تلك التي كنت أعدها مفقودة. تحلّلت نفسي في لحظة التقائنا. وفكّرت أيضًا في ذلك الرجل الذي كان مصيري بين يديه، وفي المسار الغريب للظروف، الذي دفعه للارتباط بي ارتباطًا غامضًا. تذكّرت قسوته الفظيعة وعاداته الدموية وأنّه هو الذي تطوّع لإنقاذ حبيبتني! بوغاتشوف لم يكن يعرف أنّها ابنة النقيب ميرونوف، وشفابرين الحاقد قد يكشف له الأمر كلّهُ، وقد يرى بوغاتشوف الأمر بشكل مختلف عن رؤيتي له... تُرى، ما الذي سيحلُّ بماريا إيفانوفنا؟ سرّت القشعريرة في جسدي كلّهُ، وانتصب شعر رأسي كالإبر... وفجأة قطع بوغاتشوف أفكارِي، والتفت يسألني:

- فيمَ تفكّر يا صاحب السموّ؟

- «أفكّر في ما نحن فيه»، قلت له، «أنا ضابط ومن النبلاء: البارحة كنت أقاتل ضدّك، واليوم أسافر معك في عربة واحدة، وسعادة حياتي في يدك».

- «ما معنى ذلك؟»، سأل بوغاتشوف، «هل أنت خائف؟».

أجبتُه بأنّي ما دمت قد حظيت يومًا بعفوه، لا أطمع برحمته فقط، بل بمساعدته أيضًا.

- «أنت محقٌّ، والله أنت محقٌّ!»، قال القيصر الدعيُّ، «أنت ترى أنَّ فتيانِي ينظرون إليك بعداء، والعجوز يصرُّ اليوم أيضًا على أنَّك جاسوس وأنَّ الواجب يقضي بأن نعدِّبك ونشنتك، غير أنني لم أوافق»، وتابع خافضًا صوته كي لا يسمعه سافيليتش والتتري، «كرمي لكأس النبيذ الذي قدَّمته لي والمعطف المُحاك من جلد الأرانب. ها أنتذا ترى أنني لست مصَّاص الدماء الذي يتحدَّث عنه إخوانك».
- تذكَّرت اجتياح قلعة بيلوغورسك، لكنِّي لم أر النقاش معه ضروريًّا، فلم أردَّ على ما قاله بأيَّة كلمة.
- «ماذا يقولون عني في أرينبورغ؟»، سأل بوغاتشوف بعد فترة صمت قصيرة.
- يقولون إنَّ هزيمتك أمر صعب. لا جدال في أنَّ أفعالك عزَّفتهم من أنت.
- عبر وجه القيصر الدعيِّ عن اعتداد كبير بالنفس.
- «طبعًا»، قال بلهجة مرحة، «أنا أتقن فنَّ القتال. أتراهم عرفوا عندكم في أرينبورغ بنتائج معركة يوزييفا؟ أربعون يرينالاً قتيلاً، وأربع فرق أسرى. ما رأيك؟ هل يستطيع ملك بروسيا أن يجاريني؟».
- بدا لي انتفاج قاطع الطريق هذا مسلِّيًا.
- «وأنت ما رأيك؟»، قلت له، «هل تستطيع التغلُّب على فريدريك؟».
- على فيودور فيودوروفيتش؟ وكيف لا؟ ها أنذا أتغلَّب على ينرالاتكم وهم الذين غلبوه. إنَّ سلاحي ما زال حتى الآن سعيد الحظ. امنحني الوقت، ليكون سعيدًا أيضًا حين أهاجم موسكو.
- وهل تفكَّر في الهجوم على موسكو؟
- فكَّر القيصر الدعيُّ برهة ثم قال بصوت منخفض:
- الله أعلم، دربي ضيقة، ونطاق حرَّيتي محدود. رجالي يتذاكون. إنَّهم

لصوص. أذناي يجب أن تبقياً منصبتين بحدّة، فهم مستعدّون لافتداء رقابهم برأسي عند أوّل إخفاق.

- «هو ذا!»، قلت لبوغاتشوف، «أليس الأفضل لك أن تنأى بنفسك عنهم قبل ذلك، وتلجأ إلى طلب الرحمة من القيصرة؟».

ضحك بوغاتشوف بمرارة.

- «لا»، أجباني، «لقد فات أوان الندم والتوبة، أنا لن أحظى بأية رحمة. سأتابع كما بدأت. من يدري؟ فقد أنجح. أنت تعرف أنّ غريشكا أرتبييف حكم حتى موسكو... ولكن هل تعرف كيف كانت نهايته؟ لقد رموه من النافذة، وقطّعوه، ثم أحرّقوه، ووضعوا رماده في قذيفة مدفع وأطلقوها!».

- «اسمع»، قال بوغاتشوف وهو في حال إلهام وحشي، «سأروي لك حكاية روتها لي في طفولتي عجوز كالميكية. سأل النسرُ الغراب يوماً: 'قلّ لي أيّها الطائر الغراب، لماذا تعيش أنت في الدنيا ثلاثمئة عام، بينما لا أعيش أنا إلا ثلاثة وثلاثين عاماً؟'، فأجابه الغراب: 'لأنّك يا أبت، تشرب دمًا حيًّا، أمّا أنا فأتغذّى على الجيف'. فكّر النسر، وقال لنفسه: 'فلأجرب أنا أيضًا أن أتغذّى مثله'. طيّب. طار النسر والغراب، فشاهدا فرسًا نافقة، هبطا وخطأ عندها. شرع الغراب ينقر الجيفة متلذّذًا. نقر النسر الجيفة مرّة، ثم مرّة، ثم لوّح بجناحيه، وقال للغراب: 'لا، يا أخي الغراب، أن أشرب دمًا حيًّا وأرضى بما يمنحني الله من العمر، خير لي من أن أظلّ ثلاثمئة عام أتغذّى بلحم الجيف!'. ما رأيك في هذه الحكاية الكالميكية؟».

- «حكاية جميلة»، أجبته، «لكنّ العيش على القتل والسلب هو في رأيي، نقر للجيف».

نظر إليّ بوغاتشوف بدهشة ولم يقل شيئًا. صمتنا، وغرق كلّ منّا في أفكاره. وراح التتري يُغنّي أغنية مديدة حزينة، أمّا سافيليتش فأغنى متمايلًا إلى جانبه،

وانطلقت العربّة بسرعة كبيرة على الطريق الشتوية الملساء... وفجأة، لاحت لي  
القرية الصغيرة على ضفّة نهر يايكا الوعرة بأسوارها وجرس كنيستها. وبعد ربع  
ساعة دخلنا حصن بيلوغورسك.



## الفصل الثاني عشر

### اليتيمة

مثلما أن تفأحتنا  
من دون هالة خضراء أو أغصان  
كذلك هي أميرتنا الصغيرة  
من دون أب أو أم  
وليس لها من يزيئها للعرس  
أو من يباركها.  
من أغاني الأعراس

وقفت العربة أمام مدخل بيت الأمير. وعرف الناس أجراس عربة بوغاتشوف فاندفعوا في حشد يتبعونها، واستقبل شفايرين القيصر الدعي عند المدخل، مرتدياً زيّ القوزاق وقد أطلق لحيته. أقبل هذا الخائن يساعد بوغاتشوف في النزول من العربة، مظهرًا بتعابير سافلة بهجته واندفاعه. ارتبك حين رأي، لكنه سرعان ما تمالك نفسه ومدّ لي يده قائلاً:

- وأنت صرت معنا؟ هذا ما كان يجب أن يحدث منذ زمن!  
أشحت ببصري عنه ولم أجبه بشيء.

توجّع قلبي حين دخلنا الغرفة التي عرفتھا منذ زمن بعيد، شهادة الأمير المرحوم العسكرية ما تزال معلقة على الجدار، كأنها شاهدة على قبر عهد مضى. جلس بوغاتشوف على الديوانة التي كان يجلس عليها في الماضي إيفان كوزميتش، مغالبًا النعاس الذي تُسبّبه له أحاديث زوجته المتدّمرة. وقَدّم شفايرين نفسه الفودكا لبوغاتشوف، فشرب كأسًا وقال مشيرًا إليّ:

- قَدِّمِ الضيافة لصاحب السموّ.

كان في غاية الاضطراب، فهو، بفطنته المعتادة، أدرك، طبعًا أن بوغاتشوف لم يكن راضيًا عنه، فجبُّن أمامه ونظر إليَّ نظرة ملؤها الشكُّ. استفسر منه بوغاتشوف عن حال القلعة، وعن الإشاعات حول قوَّات العدوِّ وما شابه ذلك، وفجأة سأله على غير توقُّع:

- قل لي يا أخي، من البنت التي وضعتها عندك تحت الحراسة؟ أرنيتها. شحب شفابرين شحوب الأموات.

- «سيّدي القيصر»، قال بصوت راعش، «يا سيّدي القيصر، إنَّها ليست سجينَة... إنَّها مريضة... إنَّها راقدة في الغرفة العلويَّة».

- «خُذني إليها إذن»، قال القيصر الدعيُّ وهو ينهض من مكانه. ثنَّيه عن قراره كان مستحيلًا. قاد شفابرين بوغاتشوف إلى الغرفة العلويَّة حيث ماريا إيفانوفنا، فتبعته.

توقَّف شفابرين على الدرج.

- «سيّدي القيصر!»، قال، «بيدك أن تأمرني بما تشاء، ولكن لا تأمر بدخول رجل غريب إلى غرفة نوم زوجتي».

اضطربتُ وقلت لشفابرين:

- «أنت، إذن، متزوِّج!»، وكنت آنذاك مستعدًّا لتمزيقه.

- «اهدأ!»، قاطعني بوغاتشوف، «هذا أمر يخصُّني. أمَّا أنت»، تابع موجِّهًا الكلام إلى شفابرين، «فلا تراوغ، أنا أدخِلُ إليها من أشاء، سواء أكانت زوجتك أم لم تكن زوجتك. اتبعني يا صاحب السموّ».

عند باب الغرفة، توقَّف شفابرين من جديد، وقال بصوت متقطَّع:

- سيّدي القيصر، أنبِّهك لأنَّها مصابة بالحمى البيضاء، وهي منذ ثلاثة أيَّام لا تكفُّ عن الهذيان.

- «افتح الباب!»، قال بوغاتشوف.

بدأ شفابرين يبحث في جيبه، ثم قال إنه لم يحمل المفتاح معه. دفع بوغاتشوف الباب برجله، فخلع القفل وفتح الباب ودخلنا. نظرت فجمدت. على الأرض، في ثوب فلاحى ممزق، جلست ماريا إيفانوفنا شاحبة، نحيلة، مشعثة الشعر، أمامها إبريق ماء تغطي فوهته قطعة خبز. حين رأني ارتعدت وصرخت، ولست أدري ماذا حلَّ بي عند ذلك. نظر بوغاتشوف إلى شفابرين وقال بسخريّة مرّة:

- «ما أجود مستشفاك!»، ثم اقترب من ماريا إيفانوفنا، «قولي لي يا يمامتي، لماذا يعاقبك زوجك؟ ما الذنب الذي ارتكبته بحقه؟».
- «زوجي!»، كرّرت الفتاة، «إنه ليس زوجي، ولن أكون أبداً زوجة له! لقد قرّرت أن الموت أفضل، وسأموت إذا لم يُنقذني أحد».
- ألقي بوغاتشوف نظرة رهيبة على شفابرين:
- «وأنت تجرّأت على خداعي!»، قال له، «أتعرف، أيّها العاقل، ماذا تستحق؟».

سقط شفابرين جاثياً على ركبتيه... وفي هذه اللحظة أحمّد الاحتقار كلّ ما كان في نفسي من الحقد والغضب. ورحت أنظر باشمزاز إلى ذلك النبيل الذي يتمرّغ على الأرض عند قدّمي قوزاقي هارب. هدأ غضب بوغاتشوف قليلاً.

- «سأعفو عنك هذه المرّة»، قال لشفابرين، «لكن اعلم أن فعلتك هذه ستُحسب عليك أيضاً عند أوّل ذنب ترتكبه».

ثم التفت إلى ماريا إيفانوفنا، وقال لها بمودّة:

- اخرجي أيّتها الفتاة الجميلة؛ أنا أمنحك حرّيتك. أنا القيصر.

ألقت عليه ماريا إيفانوفنا نظرة سريعة فأدركت أن من يقف أمامها هو قاتل أبويها. غطّت وجهها بيديها الاثنتين وسقطت فاقدة الوعي. هرعت نحوها، لكن بالاشاء، الخادمة التي أعرفها منذ زمن بعيد اندفعت بشجاعة كبيرة إلى داخل الغرفة وراحت تعتني بسيدتها. وخرج بوغاتشوف من الغرفة، ومضينا نحن الثلاثة، إلى غرفة المعيشة.

- «ما قولك يا صاحب السمّو؟»، قال بوغاتشوف ضاحكًا، «ها قد أنقذنا الفتاة الجميلة! ألا ترى أن نُحضر القسّ، ونُرغمه على عقد قران ابنة أخته؟ أظنُّ أنني سأكون أبها في المعمودية، وسيكون شفابرين إشبينها. نتمّم الزواج، ونسكر، ثم نغلق عليكما الباب!».
- لقد حدث ما كنت أخشاه. حين سمع شفابرين اقتراح بوغاتشوف فقد صوابه.
- «مولاي!»، صاح وهو في هياج شديد، «أنا مذنب، أنا كذبت عليك، ولكن غرينيف يخدعك أيضًا. هذه الفتاة ليست قريبة كاهن الكنيسة، إنها ابنة إيفان ميرونوف الذي أعدمته حين استوليت على هذه القلعة». صوّب بوغاتشوف إليّ عينيّن تقدحان شرًّا.
- «ما هذا الذي أسمعهُ؟»، سألني غير مصدّق.
- «ما قاله لك شفابرين هو الحقيقة»، أجبته بثبات.
- «أنت لم تقل لي ذلك»، قال بوغاتشوف عابسًا.
- «احكم بنفسك»، أجبته، «هل كان من الممكن أن أعلن أمام رجالك أنّ ابنة ميرونوف حيّة؟ لو فعلت ذلك لمزّقوها إربًا إربًا، ولاستحال إنقاذها!».
- «هذا صحيح»، قال بوغاتشوف ضاحكًا، «ما كان رجالي السكارى ليرحموا الفتاة المسكينة. حسنًا فعلت زوجة الكاهن إذ خدعتهم».
- «اسمع»، تابعت كلامي حين لاحظت مزاجه الطيّب، «أنا لا أعرف بأيّ لقب أناديك، ولا أريد أن أعرف... لكن ليشهد الربُّ، أنني مستعدٌّ لأن أقدّم لك حياتي مقابل ما فعلته من أجلي، إنّما لا تطلب منّي أن أفعل ما يناقض شرفي وضميري المسيحي. أنت تفضّلت عليّ، فأكمل كما بدأت: اتركني أذهب أنا واليتيمة المسكينة إلى حيث يشاء الله لنا أن نذهب. ونحن أينما كنت، وأيًا كان مصيرك، سنصلّي كلّ يوم من أجل أن يُنقذ الربُّ روحك الخاطئة»...

تأثرت روح بوغاتشوف الصارمة بكلامي على ما يبدو.

- «إممم، ليكن ما تريد!»، قال بوغاتشوف، «الإعدام هو الإعدام، والعفو هو العفو: هذه عادتِي. خُذْ حسناءك واذهب بها إلى حيث تشاء، وليمنحكما الربُّ الحبَّ والهداية!».

عند ذاك التفت إلى شفابرين وأمره أن يُعطيني رخصة مرور عبر كلِّ الحواجز والحصون الخاضعة له. وكان شفابرين، الذي انهار تمامًا، يقف كالمصعوق. بعد ذلك توجه بوغاتشوف لتفقد القلعة يرافقه شفابرين، أما أنا فبقيت بحجة الاستعداد للرحيل.

هرعت إلى الغرفة العلوية. كان الباب مُغلقًا. طرقت.

- «مَن هناك؟»، سألت بالاشا.

أعلنت عن نفسي، فسمعت صوت ماريا إيفانوفنا الحبيب من وراء الباب:

- انتظر يا بيتر أندرييتش. أنا أبذل ملابسِي. اذهب إلى أكوлина بامفيلوفنا وسألحق بك إلى هناك حالًا.

أطعتها، وذهبت إلى بيت الأب غيراسيم، فهرع الاثنان لاستقبالي. وكان سافيليتش قد أبلغهما بقدومي.

- «مرحبًا يا بيتر أندرييتش»، قالت زوجة الكاهن، «لقد أراد الله أن نلتقي مرةً أخرى. كيف حالك؟ نحن كنّا نندُركُ يوميًا. وماريا إيفانوفنا، يمامتي الصغيرة، عانت الكثير من دونك... قُلْ لي يا أبت، كيف تفاهمت مع بوغاتشوف؟ كيف لم يقضِ عليك؟ الحمد لله. وشكرًا لهذا الشرِّير على عدم فعل ذلك».

- «كفى يا عجوز»، قاطعها الأب غيراسيم، «لا داعي لأن تقولِي كلَّ ما تعرفين. كثرة الكلام لا تجلب السلامة. يا أبتِ بيتر أندرييتش! ادخل، تفضَّل، أرجوك. نحن لم نرك منذ مدَّة طويلة جدًّا».

صارت زوجة الكاهن تضيِّفني ممَّا رزقها الله، وهي تتكلَّم باستمرار. روت لي كيف أجبرهما شفابرين على تسليمه ماريا إيفانوفنا، وكيف بكت ماريا

إيفانوفنا ولم تُرِدْ مفارقتها، وكيف كانت على صلة بها عن طريق بالاشا (هذه البنت قويّة، استطاعت أن تُرغم حتى الوكيل على تنفيذ رغباتها)، وكيف نصحت ماريا إيفانوفنا بالكتابة لي، وغير ذلك. ورويت لها بدوري، حكايتي بإيجاز، فرسم الكاهن وزوجته شارة الصليب على صدريهما حين سمعا أن بوغاتشوف يعرف أنهما خدعا.

- «إِنَّ الْقُوَّةَ الإِلَهِيَّةَ معنا!»، قالت أكونا بامفيلوفنا، «فَلْتَبْعُدْ عَنَّا هذه الغمّة يا ربُّ. يا لهذا الأليكسي إيفانيتش، إِنَّ الكلام يعجز عن وصف تفاهة ذَكَرَ الإورُ هذا!».

في هذه اللحظة فُتِحَ الباب ودخلت ماريا إيفانوفنا باسمه، شاحبة الوجه، وقد خلعت ثوبها الفلاحي وارتدت كعاداتها ثوبًا بسيطًا ولطيفًا. أمسكت يدها، وظللت فترة طويلة لا أستطيع النطق ببنت شفة. صمتنا، نحن الاثنين، لامتلاء قلوبنا. وأدرك صاحب البيت أننا منشغلان عنهما، فتركنا وحدنا. بقينا على انفراد ونسينا كلّ شيء. تكلّمنا فلم نشبع من الكلام. روت لي ماريا إيفانوفنا كلّ ما حدث معها منذ احتلال القلعة، ووصفت لي كلّ فظاعة وضعها، وكلّ العذابات التي سبّها لها شفابرين النتن. وتذكّرنا معًا زمن الماضي السعيد... بكينا، نحن الاثنين... وأخيرًا شرعتُ أوضح لها تصوّراتي عن المستقبل. بقاؤنا في القلعة الخاضعة لسلطة بوغاتشوف وإدارة شفابرين أمر مستحيل. ومن غير الجائز التفكير بأرينبورغ التي تُعاني من كلّ كوارث الحصار. ولم يكن لها في الدنيا أيُّ قريب تلجأ إليه. لذلك اقترحتُ عليها السفر إلى والديّ في القرية. تردّدت في البداية، فهي تخشى موقف أبي المعروف الراض لزوجنا. هدأت من روعها، فأنا أعرف أن أبي سيكون سعيدًا إذا ضمّ إلى واجباته إيواء ابنة محارب محترم قضى في الدفاع عن الوطن.

- «ماريا إيفانوفنا الحبيبة!»، قلت لها أخيرًا، «أنا أعدك زوجتي. لقد جمعتنا ظروف عجيبة وحَدّتنا وحدة لا تنفصم عُراها، وما من شيء في العالم يمكن أن يفرّق بيننا».

استمعت إليّ ماريا إيفانوفنا ببساطة، من دون خجل متصنّع، ومن دون أيّة تحفّظات متذاكية. لقد كانت تحسُّ أنّ مصيرها مرتبط بمصيري. لكنّها كرّرت أنّها لن تكون زوجتي إلّا بموافقة والديّ. وأنا لم أعترض على موقفها. تبادلنا قبلة حارّة وصادقة، وهكذا قرّرنا فيما بيننا كلّ شيء.

بعد ساعة، أحضر لي الوكيل إجازة المرور موقّعة بخطّ بوغاتشوف الرديء وأبلغني أنّه يدعوني لزيارته. حين وصلت وجدته يستعدّ للرحيل. لا أستطيع أن أصف ما أحسست به وأنا أفارق هذا الرجل الفطيع، الوحش، الشرّير بالنسبة إلى الجميع ما عداي أنا وحدي، لم لا أقول الحقيقة؟ لقد تملّكني في هذه اللحظة شعور قويّ بالانجذاب إليه. ورغبت رغبة لاهبة بتخليصه من وسط الأشرار الذين يقودهم، وإنقاذه ما دام الأوان لم يفتّ بعد، لكنّ وجود شفابرين والناس الذين تجمّعوا حولنا منعني من أن أقول كلّ ما كان يملأ قلبي.

افترقنا بمودّة. وحين رأى بوغاتشوف أכולينا بامفيلوفنا في الحشد هدّدها بإصبعه وغمز لها بعينه غمزة ذات معنى، ثم جلس في العربة وأمر الحوذي بالانطلاق إلى بيردا، وفي لحظة تحرّك الخيول مدّ رأسه من العربة ثانية، وصاح بي:

- وداعاً يا صاحب السمو! آمل أن نلتقي في وقت ما.

وقد التقينا فعلاً، ولكن يا لتلك الظروف التي جمعتنا!

رحل بوغاتشوف. وبقيت طويلاً أتأمّل السهب الأبيض الذي انطلقت فيه التروিকা تسابق الريح. تفرّق الناس، واختفى شفابرين. عدت إلى بيت الكاهن. كان كلّ شيء معدّاً لرحيلنا، ولم أرغب في المزيد من التأخير. وضعنا متاعنا في عربة الأمير القديمة. وأسرج الحوذي الخيل بسرعة البرق. أمّا ماريا إيفانوفنا فذهبت تودّع قبري والديها اللذين دُفنا في الفناء الخلفي للكنيسة. أردت أن أرافقها. لكنّها طلبت منّي أن أتركها تذهب بمفردها. عادت بعد دقائق تُغطّي وجهها دموع تسيل في صمت. جاء الحوذي بالعربة. وخرج الأب غيراسيم وزوجته إلى الشرفة لوداعنا. جلسنا، ثلاثتنا، ماريا إيفانوفنا وبالاشا وأنا، داخل العربة أمّا سافيليتش فجلس إلى جانب الحوذي.

- «وداعًا يا ماريا إيفانوفنا، يا يمامتي الصغيرة! وداعًا يا بيتر أندرييتش،  
يا صقرنا الصبوح!»، قالت زوجة الكاهن الطيبة، «رحلة ميمونة،  
وليهبكما الربُّ السعادة!».

انطلقنا. ورأيت في نافذة بيت الأمير شفابرين واقفًا. كان وجهه يعبر عن  
حقد أسود. لم أشأ أن أتباهى بالانتصار على عدوِّ منهار فأشحت عنه ببصري.  
وأخيرًا، خرجنا من البوابة، مودعين إلى الأبد قلعة بيلوغورسك.



## الفصل الثالث عشر

### الاعتقال

- لا تغضب يا سيدي، فمن واجبي  
أن أرسلك إلى السجن فوراً.  
- أنا، لو سمحت، جاهز، غير أنني أمل  
أن تسمح لي بتوضيح القضية قبل ذلك.  
كناجين

مكتبة  
t.me/t\_pdf

هذا اللقاء المصادف بالفتاة الحبيبة التي كان يعدّني قلقي عليها في صباح اليوم، جعلني لا أصدّق نفسي، فتخيّلت أن كلّ ما حدث معي مجرد حلم فارغ. كانت ماريا إيفانوفنا تنظر شاردة الفكر، تارة إلَيَّ، وتارة إلى الطريق، وقد بدا عليها أنّها لم تفق من ذهولها، ولم تتمالك نفسها بعد. جلسنا صامتين. قلبانا كانا مرهقين إرهاقاً شديداً. ومن دون أن نلاحظ، وجدنا نفسيينا بعد ساعتين في حصن قريب خاضع أيضاً لسلطة بوغاتشوف. بدّلنا الخيول في هذا الحصن. وقد لاحظتُ من السرعة التي تمّ بها تبديل الخيل، والعجلة في خدمتنا التي أبدّاها القوزاقي الملتحي أمير الحصن، أنّهم بفضل ثرثرة الحوذي الذي نقلنا، عدّوني الرجل المقرّب من بوغاتشوف.

انطلقنا نتابع رحلتنا. حلّ المساء، ونحن نقرب من بلدة، قال الأمير الملتحي إنّ فيها فصيلاً قوياً قدّم لينضمّ إلى جيش القيصر الدعيّ. أوقفنا الحراس. وعن سؤال: «من القادم؟»، أجاب حوذيّنا بصوت عالٍ:

- صديق القيصر ومعه زوجته.

وفجأة، طوّقنا حشد من الفرسان وهم يُطلقون أفضع الشتائم.

- «اخرج من العربية يا صديق الشيطان!»، قال لي قائد حرس البوابة ذو الشارب، «ستنال حمّامًا ساخنًا أنت وزوجتك!».

نزلت من العربية وطلبت منهم أن يأخذوني إلى رئيسهم. حين رأى الجنود أنني ضابط، كفّوا عن إطلاق الشتائم. وذهبت برفقة قائد الحرس للقاء المقدم. لم يتخلّف سافيليتش عني، كان يمشي محدثًا نفسه: «هذا ما نابنا من صداقة القيصر! من الدلف إلى المزراب. إلهي، يا مالك الملك! كيف سينتهي هذا كلّهُ؟». وسارت العربية، على بعد خطوات.

بعد خمس دقائق، وصلنا إلى منزل صغير، أضواؤه ساطعة. تركني قائد الحرس مع الحراس وذهب ليبلغ عني. عاد بعد فترة قصيرة فأعلن لي أنّه لا وقت لدى سموّه النبيل لاستقبالي، وأنّه أمر بوضعي في السجن، وسوق الزوجة إليه.

- «ما معنى هذا؟»، صرخت كالمجنون، «أتراه فقد عقله؟».

- «أنا لا أعرف يا صاحب السموّ»، أجاب قائد الحرس، «سوى أنّ سموّه النبيل أمر بوضع سموّك في السجن، وأمر بأن تُساق سموّها إلى سموّه النبيل، يا صاحب السموّ!».

اندفعت إلى المدخل. لم يحاول الحراس إيقافني، أمّا أنا فاندفعت إلى داخل غرفة كان فيها ستّة من ضباط الفرسان يلعبون القمار. كان المقدم يوزّع الورق، وكم كانت دهشتي كبيرة حين نظرت إليه، فعرفت فيه إيفان إيفانوفيتش زورين الذي خسرت أمامه ذات يوم في نُزُل في سيمبيرسك!

- «أهذا ممكن؟»، صرخت، «إيفان إيفانيتش؟ أهذا أنت؟».

- با، با، با! بيتر أندرييتش! أيّة أقدار ساقتك إلينا؟ من أين جئت؟ أهلاً يا أخي، ألا تريد المشاركة؟

- ممنون. الأفضل أن تأمر لي بمسكن.

- أَيْ مُسْكَن؟ أَنْتِ سَتَبْقَى عِنْدِي.
- لَا أَسْتَطِيعُ، أَنَا لَسْتُ وَحْدِي.
- هَاتِ زَمِيلَكَ إِلَى هُنَا أَيْضًا.
- لَيْسَ مَعِيَ زَمِيلٌ، أَنَا... مَعَ سَيِّدَةٍ.
- «مَعَ سَيِّدَةٍ! أَيْنَ عُلِقْتَ بِكَ؟ إِيْهِ، يَا أَخِي!»، قَالَ زَوْرِين ذَلِكَ وَصَفَّرَ صَفْرَةً مَعْبُورَةً جَعَلَتْ الْجَمِيعَ يَضْحَكُونَ، أَمَّا أَنَا فَارْتَبَكْتُ.
- «حَسَنًا»، تَابَعَ زَوْرِين، «لَيْكُنْ ذَلِكَ. سَنَخْصُصُ لَكَ شَقَّةً. يَوْسُفَنِي ذَلِكَ... فَقَدْ كَانَ بِإِمْكَانِنَا أَنْ نَحْتَفِلَ كَمَا فِي الْأَيَّامِ الْخَوَالِي... هَيَّي! يَا وَلَد! لِمَاذَا لَمْ يَجِئُوا بِصَدِيقَةٍ بُوغَاتَشُوفَ إِلَى هُنَا؟ أَهَيَّ تَعَانِدُهُمْ؟ قُولُوا لَهَا أَلَّا تَخَافُ: السَّيِّدُ رَائِعٌ، وَلَنْ يُسِيءَ إِلَيْهَا بِشَيْءٍ، وَأَفْهَمُوهَا أَنَّهَا سَتُرْغَمُ إِذَا تَمَنَّعَتْ».
- «مَا هَذَا الْكَلَامُ؟»، قُلْتُ لَزَوْرِين، «عَنْ آيَةِ صَدِيقَةٍ لِبُوغَاتَشُوفَ تَتَكَلَّمُ؟ إِنَّ هَذِهِ الْفَتَاةَ ابْنَةَ النَّقِيبِ الْمَرْحُومِ مِيرُونُوفٍ. لَقَدْ أَنْقَذْتُهَا مِنَ الْأَسْرِ، وَأَرَاقُفُهَا الْآنَ إِلَى قَرْيَةٍ وَالِدَيَّ، وَسَأَتْرَكُهَا هُنَاكَ».
- كَيْفَ! أَنْتِ مَنْ أَبْلَغُونِي عَنْهُ قَبْلَ قَلِيلٍ؟ رَحِمَاكَ! مَا مَعْنَى هَذَا كُلُّهُ؟
- سَأَخْبِرُكَ بِكُلِّ شَيْءٍ فِيمَا بَعْدَ. أَمَّا الْآنَ فَهَدَّئِي، بِحَقِّ الرَّبِّ، مِنْ رُوعِ الْفَتَاةِ الْمَسْكِينَةِ الَّتِي أَفْرَعُهَا فَرَسَانِكَ.
- أَصْدَرَ زَوْرِين أَوَامِرَهُ فِي الْحَالِ. وَخَرَجَ، هُوَ نَفْسُهُ، إِلَى الشَّارِعِ وَاعْتَذَرَ مِنْ مَارِيَا إِيْفَانُونَا عَنْ سُوءِ الْفَهْمِ غَيْرِ الْمَقْصُودِ، وَأَمَرَ قَائِدَ الْحَرَسِ أَنْ يُوْصِلَهَا إِلَى أَفْضَلِ مَسْكَنٍ فِي الْبَلَدَةِ. أَمَّا أَنَا فَبِتُّ اللَّيْلَ عِنْدَهُ.
- تَنَاوَلْنَا طَعَامَ الْعِشَاءِ، وَحِينَ بَقِينَا عَلَى انْفِرَادٍ أَخْبَرْتَهُ بِكُلِّ مَغَامِرَتِي. اسْتَمَعَ إِلَيَّ زَوْرِين بِاهْتِمَامٍ كَبِيرٍ، وَحِينَ انْتَهَيْتُ مِنْ كَلَامِي، هَزَّ رَأْسَهُ وَقَالَ:
- هَذَا كُلُّهُ جَيِّدٌ يَا أَخِي، الْأَمْرُ الْوَحِيدُ غَيْرَ الْجَيِّدِ هُوَ كَيْفَ اسْتَطَاعَ الشَّيْطَانُ أَنْ يُغَيِّرِكَ بِالزَّوْجِ؟ أَنَا ضَابِطٌ شَرِيفٌ وَلَا أُرِيدُ خِدَاعَكَ: صَدَّقْنِي! إِنَّ الزَّوْجَ عِبَاءٌ. حَسَنًا، كَيْفَ سَتَحْتَمِلُ الْإِعْتِنَاءَ بِزَوْجَتِكَ،

وتربية الأطفال أيضًا؟ ابصق على هذا الأمر، واسمعي: اقطع علاقتك مع ابنة النقيب، الطريق إلى سيمبيرسك نظيفة وآمنة، أنا نظفتها. أرسلها غداً بمفردها إلى والديك، أمّا أنت فابقِ معي في الفصيل. لا داعي لعودتك إلى أرينبورغ، سيكون احتمال نجاتك من المتمردين ضعيفاً إذا وقعت في أيديهم مرّة أخرى. بهذه الطريقة سيزول جنون الهوى من تلقاء نفسه، وسيكون كلُّ شيء على ما يرام.

لم أكن موافقاً كلَّ الموافقة على كلام زورين، ولكنّي شعرت أنّ الواجب والشرف يُلزمانني بالوجود في جيش الإمبراطورة، فقرّرت أن أتبع نصيحته فأرسل ماريا إيفانوفنا إلى القرية، وأبقى في فصيله.

حين جاء سافيليتش ليساعدني في خلع ملابسني، طلبتُ منه أن يكون في اليوم التالي مستعدّاً للسفر مع ماريا إيفانوفنا، فعاندني واعترض قائلاً:

- ماذا تقول يا سيّدي؟ كيف أتركك؟ من سيرعى شؤونك؟ وماذا سيقول والدك؟

ولأنّني كنت أعرف عناد صاحبي العجوز، قرّرت إقناعه بالموثقة والإخلاص.

- «يا صديقي أرحيب سافيليتش!»، قلت له، «لا ترفض طلبي، كن مُتفضلاً عليّ، أنا هنا لا أحتاج إلى من يخدمني، ولكنّي لن أكون مطمئناً إذا سافرت ماريا إيفانوفنا وحيدة على الطريق من دونك. أنت إذا خدمتها، خدمتني أيضًا، لأنّني اتخذت قراراً حاسماً بالزواج منها حين تسمح الظروف بذلك».

هنا صَفَّق سافيليتش بيديه وبدا دهشاً دهشة تفوق الوصف.

- «تتزوج!»، ردّد متعجباً، «الولد يريد أن يتزوَّج! ماذا سيقول أبوك، وكيف ستنظر أمك إلى الأمر؟».

- «سيوافقان، سيوافقان بالتأكيد»، أجبتُه، «حين يعرفان ماريا إيفانوفنا. أنا أعلّق الآمال عليك أيضًا. أبي وأمي يثقان بك، وأنت ستشجّعهما على الموافقة، أليس كذلك؟».

تأثر العجوز بكلامي.

- «آه، يا أبتِ بيتر أندريتشش!»، أجنبي، «صحيح أنك ما زلت صغيراً على التفكير في الزواج، ولكنّ ماريا إيفانوفنا فتاة طيّبة للغاية، ومن الخطأ تفويت فرصة كهذه. ليكن ما تريد! سأرافقها، سأرافق هذا الملاك السماوي، وسأقول لأبويك، بكلّ إخلاص العبد، أنّ عروساً كهذه يجب ألا تُطالب ببائنة».

شكرت سافيليتش وذهبت مع زورين للنوم في غرفته. كنت منفعلاً ومتوترّاً، فثرثرت كثيراً. في البداية بادلني الحديث بحماسة، ولكنّ كلماته صارت تتناقص تدريجيّاً وتفقد الترابط بينها، وأخيراً، أجاب عن أحد أسئلي بشخير وصفير بدلاً من الكلام، فصمتُ، وسرعان ما حذوت حذوه.

ذهبتُ إلى ماريا إيفانوفنا في صباح اليوم التالي، وأخبرتها بما نويته، فرأت ذلك صواباً ووافقتني في الحال. وكان من المقرّر أن يغادر فصيل زورين البلدة في اليوم نفسه، ولم يكن هناك ما يدعو إلى التأخير، لذا ودّعتها على الفور، بعد أن أوكلت أمر رعايتها لسافيليتش، وحملتها رسالة لوالديّ. بكت ماريا إيفانوفنا.

- «وداعاً يا بيتر أندريتشش!»، قالت بصوت خافت، «الله وحده يعلم إن كنّا سنلتقي أو لا، لكنّي لن أنساك ما حييت، وستظلّ وحدك في قلبي حتى أوارى في القبر».

لم أستطع أن أجيب بشيء، فالتاس كانوا يحيطون بنا، وأنا لم أرد أن أستسلم أمامهم للعواطف التي كانت تتملّكني. رحلت ماريا إيفانوفنا أخيراً. وعدتُ إلى زورين حزيناً وصامتاً. فحاول التخفيف عنيّ، وحاولت تبديد كآبتي، فأمضينا يوماً نشيطاً وصاخباً، وفي المساء انطلق فصيلنا في المسير.

كان ذلك في أواخر شهر شباط (فبراير). الشتاء الذي كان يعيق الأعمال العسكرية أخذ في الانتهاء، واستعدّ جنرالنا للقيام بعمل مشترك. بوغاتشوف ما زال في ضواحي أرينبورغ، وفي هذه الأثناء تجمّعت الفصائل غير بعيد عنه، وتقدّمت من جميع الجهات مقتربة من عشّ الأشرار. حين رأت القرى المتمرّدة

قَوَّاتنا صارت تعلن الطاعة، وراحت عصابات اللصوص تهرب من أماننا في كلِّ مكان، وأوحى كلُّ شيء بنهاية سريعة موفَّقة.

بعد وقت قصير، هزم الأمير غاليتسين، بالقرب من قلعة تاتيشيفا، بوغاتشوف وفرَّق جموعه، وحرَّر أرينبورغ، وبدأ أنَّه وجَّه للتمرُّد الضربة الحاسمة الأخيرة. كان زورين، في هذه الأثناء، يهاجم عصابة من المتمرِّدين البشكيريين الذين تفرَّقوا حتى قبل أن نراهم. حاصرنا الربيع في قرية تترية صغيرة. فاضت الغدران بالمياه، ولم تعد الطرق سالكة. فرَّحنا نسلي أنفسنا بالتفكير في النهاية القريبة لهذه الحرب المضجرة، التافهة، ضدَّ قطاع طرق ومتوحِّشين.

لكنَّ بوغاتشوف ما زال طليقًا، فقد ظهر في معامل سيبيريا، وجمع هناك عصابات جديدة، ثم بدأ أعماله الشريرة ثانية، وانتشر خبر نجاحاته من جديد، فسمعنا عن تدمير ونهب الحصون السيبيرية. وسرعان ما انتشر خبر استيلاء القيصر الدعويِّ على كازان وتحضيره للحملة على موسكو، فأقلق هذا قادة القوَّات، الذين كانوا قبلاً يُهملون ذلك الاحتمال، اعتمادًا منهم على انهيار المتمرِّد الحقيق. تلقَّى زورين أمرًا بعبور نهر الفولغا.<sup>(1)</sup>

لن أصف حملتنا وانتهاء الحرب. سأقول بإيجاز إنَّ الكارثة بلغت حدودها القصوى. اجتزنا قرى نهبها المتمرِّدون، أخذنا بالإكراه من السكَّان الفقراء ما استطاعوا إنقاذه. الإدارة تعطلَّت في كلِّ مكان، ولجأ الملاكون إلى الغابات. عصابات قطاع الطرق مارست أعمالها الشريرة في كلِّ مكان، وراح بعض قادة الفصائل يُعاقبون ويُعفون على هواهم. كانت المنطقة الشاسعة التي استعرت فيها النيران في حالة فظيعة... لا قدَّر الله علينا أن نرى تمرُّدًا روسيًّا لا معنى له، ولا رحمة فيه!

هرب بوغاتشوف يطارده إيفان إيفانوفيتش ميخيلسون. وسرعان ما سمعنا بهزيمته التامة. وتلقَّى زورين، أخيرًا، خبر إلقاء القبض على القيصر الدعويِّ وأمرًا

---

(1) بعد هذه الفقرة هناك فصل محذوف، حذفه بوشكين من الرواية المنشورة، ولكنَّه بقي في المسوَّدة بخطِّ يده. ألحقناه بنهاية الرواية (المترجم).

بالتوقّف، فقد انتهت الحرب. وأخيرًا، صار بإمكانني السفر إلى والديّ! إنّ فكرة معانقتهما، ورؤية ماريا إيفانوفنا التي لم أتلّق منها أيّة أخبار، أنعشت حماسي، فصرت أقفز كالطفل. ضحك زورين، وقال وهو يهزّ كتفيه:

- لا، أنت لن تكون بخير! ستتزوّج وتضيع من دون مقابل!

لكنّ شعورًا غريبًا سمّم فرحتي: التفكير بالتمرّد الشرير الملطّخ بدماء ضحايا بريئين كثيرين، وبإعدامه المنتظر، ألقني رغماً عني. «يميليا، يميليا!»، قلت في سرّي يتملّكني الحزن، «لماذا لم تطعنك حربة، أو تصيبك قذيفة؟ ألم تستطع ابتكار نهاية أفضل ممّا أنت فيه الآن؟». ما عساي أفعل؟ إنّ التفكير فيه كان عندي مرتبطًا دائمًا بفكرة العفو الذي منحني إياه في لحظة من أفضع لحظات حياته، وإنفاذه لعروسي من قبضة شفايرين التّن.

منحني زورين إجازة، وكان من المفترض أن أكون بعد بضعة أيّام في أسرتي، ألّقي مجددًا ماريا إيفانوفنا... ولكنّ صاعقة غير متوقّعة نزلت عليّ فأصابني بالشلل.

في اليوم المحدّد لسفري، ولحظة كنت جاهزًا للانطلاق في الطريق، دخل عليّ زورين في منزلي، ممسكًا بيده ورقة، وقد بدا عليه القلق الشديد. شعرت بوخزة في قلبي. خفت من دون أن أعرف سببًا لذلك. طلب زورين من وصيفي مغادرة المكان، وأعلن أنّه يريد أن يكلّمني في أمر من الأمور.

- «ما هذا الأمر؟»، سأله بقلق.

- «مشكلة صغيرة غير ساوّة»، أجاب وهو يعطيني الورقة، «اقرأ ما تسلّمته الآن».

رحت أقرأ: كان ذلك أمرًا سرّيًا لكلّ القادة بالقبض عليّ في أيّ مكان يجدونني فيه. وإرسالي تحت الحراسة فورًا إلى كازان، للمثول أمام اللجنة المكلفة بالتحقيق في قضية بوغاتشوف. كادت الورقة تسقط من يدي.

- «ما باليد حيلة!»، قال زورين، «إنَّ واجبي إطاعة الأوامر. يبدو أنَّ خبر رحلاتك الودَّية مع بوغاتشوف قد بلغ مسامع الحكومة على نحو ما. آمل ألا تكون للقضيَّة أيَّة عواقب، وأن تتمكَّن من تبرئة نفسك أمام اللجنة. اذهب إليهم ولا تكتُب».

كان ضميري نقيًّا، ولم أكن خائفًا من المحكمة. لكنَّ فكرة تأخير لحظة اللقاء العذب، تأخيرًا قد يطول عدَّة أشهر، كانت تُخيفني. أعدُّوا العربية، وودَّعني زورين بمودَّة، ثم أجلسوني فيها وجلس معي فارسان بسيفين خارج غمديهما، وانطلقنا في طريق السفر.



## الفصل الرابع عشر

### المحاكمة

كلام الناس كموج البحر.

من الأمثال

كنت واثقًا من أنَّ السبب في كلِّ هذا هو غيابي عن أرينبورغ من دون إذن، وأنَّ بمقدوري تبرئة نفسي بسهولة: مهاجمة العدوَّ لم تكن مباحة فقط، بل كانت أيضًا مطلوبة دائمًا بكلِّ قوَّة. وكنت أرى أنَّ ما يمكن أن أدان به هو الحماسة الزائدة وليس عصيان الأوامر. ولكنَّ علاقاتي الودَّية ببوغاتشوف، التي يمكن إثباتها بإفادات شهود كثيرين ستبدو، في أقلِّ تقدير، مشيرة للشكوك. كنت طول الطريق أفكِّر في الاستجابات التي تنتظرني، وأحضّر أجوبتي عن شتَّى الأسئلة، وقَرَّرت أن أقول الحقيقة خالصة أمام المحكمة، مفترضًا أنَّ هذه الطريقة هي أبسط الطرق وأنجعتها في نفي التهمة.

وصلت إلى كازان المنهوبة والمحروقة، وقد تراكمت في شوارعها بدلًا من البيوت، أكوام من الأنقاض المتفحِّمة، وانتصبت الجدران المغطَّاة بالهَباب من دون أسقف أو نوافذ. هذا كان الأثر الذي خلفه بوغاتشوف وراءه! قادوني إلى القلعة التي صمدت في وسط المدينة المحروقة. سلَّمني الفارسان إلى الضابط المناوب، فأمر باستدعاء الحدَّاد. وضعوا السلاسل حول ساقيَّ ولحموها، ثم قادوني إلى السجن وتركوني هناك وحيدًا في جحر ضيقٍ معتم، جدرانها عارية وله نوافذ صغيرة عليها شبكة حديدية.

لم تبشّرني هذه البداية بأيّ خير، لكنّي لم أفقد نشاطي وأملي. لجأت إلى ما يُعزّي كلّ المتألّمين أنفسهم به، ولأوّل مرّة أحسست بحلاوة الصلاة من قلب نقيّ يمزّقه الألم، فنمتُ نومًا هادئًا غير مبالٍ بما سألقاه.

في اليوم التالي، أيقظني حارس السجن معلنًا أنّهم يطلبونني في اللجنة. وقادني جنديّان عبر الفناء إلى منزل الآمر. توقّفنا عند المدخل، وتركانني أدخل بمفردي إلى القاعة.

دخلت إلى قاعة واسعة. وراء طاولة مغطّاة بالأوراق جلس رجلان: جنرال كهل مظهره يدلّ على الصرامة وبرودة الطبع، ونقيب من الحرس، فتّيّ، في نحو الثامنة والعشرين من العمر، مظهره مريح للغاية، وهو ماهر وطيّق في حديثه. قرب النافذة، جلس أمين السرّ إلى طاولة خاصّة، واضعًا ريشة كتابة خلف أذنه. ومنكبًّا فوق ورقة، استعدادًا لكتابة إفادتي. بدأ التحقيق. سألوني عن اسمي ورُتبتي. وسألني الجنرال عمّا إذا كنت ابن أندريه بتروفيتش غرينيف، واعترض على إجابتي بقسوة قائلاً:

- من المؤسف أن يكون لهذا الرجل المحترم ابن شائن مثلك!

أجبت بهدوء أنّي آمل أن أستطيع، دحض التهم الموجهة إليّ، أيّا كانت، وتقديم تفسير صادق ومخلص للحقيقة. لم تُعجبه لهجتي الواثقة.

- «أنت، يا هذا، حادّ اللسان»، قال لي عابسًا، «لقد مرّ بنا الكثير من أمثالك، بل ممّن هم أسوأ منك أيضًا!».

عند ذلك سألني المحقّق الشابّ في أيّة مناسبة وأيّ وقت بدأت الخدمة عند بوغاتشوف، وما هي المهمّات التي كلّفني بها؟

أجبت غاضبًا أنّي، وبوصفي ضابطًا ومن النبلاء، لم أكن لأقبل الخدمة عند بوغاتشوف، أو أقبل أن يكلفني بأيّة مهمّات.

- «كيف إذن»، قاطعني المحقّق معترضًا، «عفا القيصّر الدعيّ عن النبيل الضابط وحده، في حين قتل زملاءه شرّ قتلة؟ وبأيّة صورة يولم هذا الضابط النبيل نفسه مع المتمرّدين بمودّة، ويتقبّل من كبير الأشرار

الهدايا: معطفاً من الفراء، وفرساً، وكيس نقود؟ وما سبب هذه الصداقة الغريبة وما أساسها إن لم يكن الخيانة، أو على أقل تقدير، دناءة النفس؟».

شعرت شعوراً عميقاً بالإهانة جرّاء كلمات ضابط الحرس، فشرعت أذاع بحرارة عن نفسي. رويت كيف بدأت معرفتي ببوغاتشوف في السهب، في أثناء الإعصار، وكيف عرفني وعفا عني حين احتل قلعة بيلوغورسك. وقلت إنني، فعلاً، لم أخجل من قبول المعطف والفرس المرسلين من القيصر الدعي، ولكنني دافعت عن قلعة بيلوغورسك ضدّ ذلك الشرير حتى آخر لحظة. وأخيراً، أحلّ المحقّق على جنرالي الذي يستطيع أن يشهد على جهودي في الدفاع عن أرينبورغ في زمن الحصار.

أخذ العجوز الصارم عن الطاولة رسالة مفتوحة وشرع يقرأ: فيما يتعلّق بسؤال معالي سموكم بشأن الملازم غرينيف المشتبه باشتراكه في الاضطرابات الحالية، ودخوله في علاقات مع الدعيّ الشرير لا تسمح له بها الخدمة العسكرية، وتتناقض مع ما يستوجبه قسمه على الإخلاص للإمبراطورة، أتشرّف بإبلاغكم أنّ الملازم غرينيف كان في الخدمة في أرينبورغ من بداية تشرين الأوّل (أكتوبر) من العام الماضي 1773 حتى 24 شباط (فبراير) من العام الحالي، حيث غاب عن المدينة في هذا التاريخ، ولم يظهر منذ ذلك الحين في القيادة، ولكننا سمعنا من الفائزين أنّه كان عند بوغاتشوف وسافر معه إلى قلعة بيلوغورسك التي كان يخدم فيها سابقاً، أمّا فيما يتعلّق بسلوكه، فأنا أستطيع أن...

هنا توقّف العجوز عن القراءة، وقال لي بلهجة صارمة:

- ماذا يمكنك أن تقول الآن لتبرئة نفسك؟

أردت أن أتابع كما بدأت، فأشرح علاقتي بماريا إيفانوفنا بإخلاص أيضاً، كما كل الأمور الأخرى، لكنني شعرت فجأة بقرف لا حدود له، فقد خطر في بالي أنّ اللجنة ستستجوبها إذا ذكرت اسمها. وبدت لي فكرة حشر اسمها في

مغامرات الأشرار التتنة، وتعريضها للقائهم وجهًا لوجه، فكرة فظيعة صعقتني، فانكمشت وتشتت أفكارى.

قاضياي اللذان بدأ يستمعان لإجاباتي ببعض القبول، عادا من جديد، إلى قناعتهما السابقة بعدم براءتي حين رأيا ارتباكي. وطلب ضابط الحرس مقابلتي وجهًا لوجه مع الواشي الرئيسي في قضيتي. فأمر الجنرال باستدعاء «مجرم الأمس». التفتُ نحو الباب منتظرًا ظهور من اتَّهمني. بعد بضع دقائق علا رنين السلاسل، وفتح الباب ودخل شفابرين. أدهشني تبدُّل منظره. كان ناحلاً نحولاً فظيغاً، وشاحباً. شعره، الذي كان إلى عهد قريب أسود كالكحل، شاب تماماً، ولحيته الطويلة بدت متوفة ومشعثة. كرَّر اتهاماته بصوت ضعيف لكنَّه جريء. أعادني بوغاتشوف، بحسب أقواله، إلى أرينبورغ جاسوسًا، وكنت أخرج يوميًا بحجَّة الاشتباك مع العدو، لتسليم رسائل مكتوبة عن كلِّ ما يجري في المدينة، وأخيرًا انضمت علناً إلى القيصر الدعوي، وصرت أسافر من قلعة إلى قلعة، محاولاً بشتَّى الأساليب قتل زملائي من الخونة لشغل مراكزهم والحصول على مكافآت يضاعفها لي القيصر المزعوم. استمعت إليه في صمت، وسرَّني أمر واحد هو أنَّ هذا المجرم التنن لم يذكر اسم ماريا إيفانوفنا، إمَّا لأنَّه كان يشعر بجرح كرامته حين يفكِّر في تلك التي رفضته واحتقرته، وإمَّا لأنَّ قلبه ما زال يحوي ذرَّة من ذلك الشعور الذي منعني، أنا نفسي، من ذكر اسمها. وأيًا كانت الحال، فإنَّ اسم بنت أمير قلعة بيلوغورسك لم يُذكر في حضور اللجنة، وهذا ما زاد تشبُّهي بِنيتي، ولذا حين سألني القاضيان عمَّا لديَّ من أقوال أدحض بها إفادة شفابرين، أجبت بأنِّي أتمسَّك بأقوالي السابقة وليس لديَّ ما أضيفه في الدفاع عن نفسي. فأمر الجنرال بأخذنا من القاعة. خرجنا معًا. نظرت إلى شفابرين بهدوء من دون أن أقول له أيَّة كلمة. ضحك ضحكة مكتومة مشحونة بالحقد والسخرية، ثم رفع سلاسله عن الأرض، وتجاوزني وهو يسرع الخطى. قادوني إلى السجن من جديد، ولم يطلبوني للتحقيق بعد ذلك.

أنا لم أشهد كل ما سأطلع القارئ عليه، ولكنني سمعت الكثير من الروايات عنه، حتى انغرست في ذاكرتي أدق تفاصيله، فشعرت كأني كنت الحاضر غير المرئي فيه.

استقبل أهلي ماريا إيفانوفنا بالفرح الصادق الذي يتميز به أناس الجيل الماضي. لقد رأوا أن الله أكرمهم إذ أتاح لهم فرصة إيواء اليتيمة المسكينة ومنحها الحنان. وسرعان ما تعلّقوا بها بصدق، فقد كان من المستحيل ألا يحبّها المرء إذا عرفها. ولم يعد حبي لها يبدو لوالديّ نزوة فارغة. أمّا أمي فكان كل ما تمنّاه أن يتزوَّج ابنها ببتروشا بنت النقيب اللطيفة.

خبر اعتقالي صقع أسرتي. وروت ماريا إيفانوفنا لوالديّ ببساطة الظروف الغريبة التي عرّفتني ببوغاتشوف، فلم يهدئ حديثها روعهما فقط، بل جعل أيضًا والدي يضحك مرّات عديدة من أعماق قلبه. لم يشأ والدي أن يصدّق أنني مشترك في تمرّد نتن هدفه الانقلاب على العرش والقضاء على جنس النبلاء. استجوب سافيليتش بصرامة، فلم ينكر العجوز أن السيّد كان في ضيافة يميلكا بوغاتشوف، وأنّ ذلك الشرير كرمه، لكنّه أقسم الأيمان مؤكّدًا أنّه لم يسمع بأيّة خيانة. هدأ قلق العجوزين وراحا ينتظران الأخبار السارّة. أمّا ماريا إيفانوفنا فكانت قلقة للغاية، لكنّها ظلّت صامتة، لأنّها، بطبيعتها غاية في الخجل والحذر.

انقضت عدّة أسابيع... وفجأة تلقّى والدي رسالة من بيتربورغ من قريتنا الأمير ب-. رسالة الأمير كانت عنيّ، فبعد مقدّمة عاديّة أبلغ الأمير والدي أنّ شبّهات مشاركتي في أعمال المتمرّدين قويّة للغاية لسوء الحظّ، الأمر الذي كان يستوجب إعدامي علنًا، لكنّ الإمبراطورة، احترامًا منها لخدمات والدي وكبر سنّه، قرّرت العفو عن ابنه المجرم، وتجنّبه الميته المشينة، وأمرت بالاكْتفاء بنفيه إلى منطقة نائية في سيبيريا نفيًا أبدّيًا.

كادت هذه اللطمة غير المتوقّعة أن تقتل أبي. فقدّ صلابته المعهودة، وحزنه، الذي كان صامتًا عادة، انسكب شكاوى مرّة.

- «كيف!»، كان يكرّر خارجًا عن طوره، «ابني شارك في أعمال بوغاتشوف! إلهي الحق، كيف استفلت بي الأمور إلى هذا الحد في آخر العمر! الإمبراطورة تعفو عنه! هل هذا يخفف عني؟ ليس الإعدام ما يُخيف: جدنا الأكبر مات تحت المقصلة مدافعًا عمّا اعتقد أنّه مقدّس، وأبي قُتل مع فولينسكي وخروشوف، لكن، أن يخون نبيل قسّمه ويتّحد مع اللصوص والقتلة والسجناء الهاريين! ... إثم وعار، يلطّخ أسرتنا كلّها!».

أمّي، التي أخافها يأسّه، لم تجرؤ على البكاء أمامه، بل حاولت أن تُعيد له حيويته وتُشجّعه بالحديث عن عدم صدق كلام الناس، وعن عدم ثباتهم على رأي. لكنّ أبي لم يكن قابلاً للتهدئة.

كانت ماريا إيفانوفنا أكثر الجميع تألّمًا، فقد كانت واثقة من أنني أستطيع تبرئة نفسي لو أردت، وأدركت الحقيقة، فعدّت نفسها المسؤولة عن شقائي. لكنّها أخفت دموعها ومعاناتها عن الجميع، وكانت، في الوقت نفسه، تفكّر باستمرار في الوسائل التي تستطيع إنقاذها بها.

وذاث يوم، في المساء، كان أبي يجلس على الديوانة ويقلّب صفحات «يوميات البلاط»، لكنّ أفكاره كانت شاردة بعيدًا، ولم تكن القراءة تؤثر فيه تأثيرها المعتاد. أمّا أمّي فكانت تنسج في صمت كنزة من الصوف، ودموعها تسقط بين فينة وأخرى، على القطعة التي نسجتها، وإذ بماريا إيفانوفنا التي كانت جالسة معهما، تُعلن فجأة أنّها مضطّرة إلى السفر إلى بيتربورغ وترجوها أن يقدّم لها وسيلة للسفر. استاءت أمّي كثيرًا.

- «لماذا تريدان الذهاب إلى بيتربورغ؟»، قالت لها، «أتريدان، أنت أيضًا، يا ماريا إيفانوفنا أن تهجرينا؟».

أجابتها قائلة إنّ مصيرها المستقبلي يتوقّف على هذه الرحلة، وإنّها ذاهبة لتبحث عن الرعاية والحماية عند أصحاب النفوذ، بوصفها ابنة رجل قُتل بسبب إخلاصه.

طأطأ أبي رأسه، فكلُّ كلمة تذكّره بجريمة ابنه المزعومة، كانت ثقيلة على قلبه، كطعنة لوم نفاذة.

- «سافري يا بنيّتي!»، قال لها متنهّداً بحسرة، «نحن لن نكون عقبة في طريق سعادتك. ليهبك الله عريساً طيّب القلب، لا خائناً ملثاث العقل».

ثم نهض وغادر الغرفة.

بقيت ماريا إيفانوفنا وحيدة مع أمّي، فشرحت لها جزئياً ما تنوي فعله. عانقتها أمّي وهي تذرف الدموع، ورجت الربّ أن يكلّل عملها بالنجاح. ثم شرعت تعدّ لها لوازم السفر. وبعد عدّة أيّام انطلقت ماريا إيفانوفنا في رحلتها ترافقها المخلصة بالاشا، والمخلص سافيليتش الذي أكرهته على فراقه، فراح يعزّي نفسه بأنّه، على الأقل، يخدم تلك الفتاة المسماة عروساً لي.

وصلت ماريا إيفانوفنا بسلامة إلى محطة صوفيا، وعرفت في نُزل المحطة أنّ أفراد البلاط القيصري موجودون في موسكو في «تسارسكويه سيلو» فقرّرت التوقّف هناك. خصّصوا لها زاوية خلف أحد الحواجز. وفي الحال تعرّفت عليها زوجة ناظر المحطة وأخبرتها أنّها قريبة أحد العاملين في البلاط، وأطلعتها على أسرار الحياة فيه، حدّثتها عن الساعة التي تستيقظ فيها القيصرة عادة، وعن الوقت الذي تتناول فيه قهوتها، وعن ساعة نزهتها، والنبلاء الذين يرافقونها في أثناء ذلك، وأنّ القيصرة تكّرمت البارحة فتحدّثت على المائدة عمّن استقبلتهم في المساء. لقد كان حديث آنا فلاسيفنا، عموماً، يستحقّ أن يملأ عدّة صفحات في مذكرات تاريخية لها قيمتها الغالية بالنسبة إلى الأجيال القادمة. استمعت إليها ماريا إيفانوفنا بانتباه، ثم ذهبتا إلى الحديقة، فزوت لها آنا فلاسيفنا تاريخ كلّ درب مشجّر فيها، وكلّ جسر صغير، وبعد أن أشبعتا عيونهما من مناظر الحديقة عادتا إلى المحطة وكلّ منهما سعيدة بمعرفة الأخرى.

في صباح اليوم التالي، استيقظت ماريا إيفانوفنا باكراً، ارتدت ملابسها ومشّت بهدوء إلى الحديقة. كان الصباح جميلاً، الشمس تضيء ذوابات الأشجار

التي اصفرت بفعل أنفاس الخريف الطازجة، والبحيرة تلتمع في سكون. وطيور  
 البجع التي استيقظت تعوم برزانة من تحت الشجيرات التي تظلل الضفة. مشت  
 ماريا إيفانوفنا بمحاذاة مرج رائع، حيث أقيم قبل فترة وجيزة نصب تذكاري  
 تكريمًا لانتصارات الأمير بيتر ألكسندروفيتش رميانتسوف الأخيرة. وفجأة نبحت  
 بقربها كلبة بيضاء من سلالة إنجليزية وركضت نحوها. خافت ماريا إيفانوفنا  
 وتوقفت. في هذه اللحظة علا صوت أنثوي جميل:

- لا تخافي، إنها لا تعض.

رأت ماريا إيفانوفنا سيّدة جالسة على مقعد قبالة النصب التذكاري. جلست  
 على الطرف الآخر من المقعد. ألقت السيّدة عليها نظرة نفاذة، أمّا ماريا إيفانوفنا  
 فألقت عليها بدورها عدّة نظرات بطرف عينها، استطاعت من خلالها أن تتفحص  
 السيّدة من الرأس حتى القدم. كانت السيدة ترتدي ثوبًا صباحيًا أبيض، وتضع  
 على رأسها قبعة نوم، وترتدي سترة من الفراء. وبدا أنّها في الأربعين من عمرها.  
 وجهها ممتلئ ومتورّد، يعبر عن العظمة والهدوء، أمّا عيناها الزرقاوان وابتسامتها  
 الخفيفة فكانت توحى بسحر يصعب تفسيره. بادرت السيّدة فقطعت الصمت:

- أنت لست من هنا أليس كذلك؟
- صحيح تمامًا، البارحة فقط وصلت إلى هنا من الأرياف.
- هل جئت بصحبة أقاربك؟
- بل جئت وحدي.
- وحدك! أنت ما زلت صغيرة السن.
- ليس لي أب أو أم.
- أنت هنا طبعًا لقضاء بعض الأعمال، أليس كذلك؟
- صحيح تمامًا. لقد جئت لتقديم طلب إلى القيصرة.
- أنت يتيمة، يبدو أنّك جئت تشتكين من الظلم والإهانة؟
- لا، أبدًا. أنا جئت أطلب الرحمة، لا المحاكمة العادلة.
- اسمحي لي أن أسألك من أنت؟



- أنا ابنة النقيب ميرونوف.
- النقيب ميرونوف! أهذا الذي كان أمراً في أحد حصون أرينبورغ؟
- هو بالضبط.
- بدا أن السيِّدة تأثرت.
- «اعذريني»، قالت بصوت أكثر حناناً، «إذا تدخّلت في شؤونك، غير أنني أتردّد على القصر، اشرح لي ما هو طلبك، فقد أستطيع مساعدتك».
- نهضت ماريا إيفانوفنا وشكرتها بتهذيب. كان كلّ شيء في السيِّدة المجهولة يجتذب قلبها ويوحي لها بالثقة. أخرجت ماريا إيفانوفنا من جيبها ورقة مطوية وأعطتها للسيِّدة المجهولة التي تطوّعت لمساعدتها، فراحت السيِّدة تقرأ قراءة صامتة.
- بدا في البداية أنها تقرأ باهتمام وإيجابية، غير أن وجهها تغيّر فجأة، فخافت ماريا إيفانوفنا، التي كانت تتابع بعينها كلّ حركة من حركاتها، من التعابير الصارمة لذلك الوجه الذي كان قبل برهة لطيفاً وهادئاً.
- «أنت تطلّبين مساعدة غرينيف؟»، قالت السيِّدة بلهجة باردة، «الإمبراطورة لا يمكن أن تغفو عنه. لقد انضمّ إلى القيصر الدعيّ لا عن جهل أو قلة إيمان، بل بوصفه سافلاً، شرّيراً، عديم الأخلاق».
- «أواه، هذا غير صحيح!»، صرخت ماريا إيفانوفنا.
- «كيف غير صحيح؟»، صاحت السيِّدة مهتاجة.
- «غير صحيح، أقسم بالله غير صحيح! أنا أعرف كلّ شيء، وسأروي لك كلّ شيء. إنّه من أجلي وحدي عرّض نفسه لكلّ ما أصابه. إنّه لم يبرئ نفسه أمام المحكمة، فقط لأنّه لم يردّ إقحامي في القضية».
- وراحت تروي لها بحرارة كلّ ما عرفه قارئ من قبل.
- استمعت السيِّدة إليها باهتمام.

- «أين تُقيمين؟»، سألتها بعد ذلك، وحين سمعت أنها تُقيم عند آنا فلاسيفنا قالت مبتسمة: «آها! أعرفها. وداعًا، لا تُخبري أحدًا بلقائنا. أأمل ألا يطول انتظارك للجواب عن رسالتك».

قالت ذلك، ثم نهضت ومضت تمشي في درب تغطيه أغصان الشجر، أما ماريا إيفانوفنا فعادت إلى آنا فلاسيفنا ممتلئة ببهجة الأمل.

وبُخِثَتِها صاحبة البيت على نزهتها الخريفية المبكرة المؤذية، بحسب قولها، لصحة البنت الشابة، ثم جاءت بالسماور، وما أن صَبَّتِ الشاي وبدأت تروي حكاياتها التي لا تنتهي عن حياة البلاط، حتى توقَّفت فجأة إحدى عربات القصر أمام بيتها، ودخل أحد خدام القصر يعلن أن القيصرة تدعو إليها الآنسة ميرونوف. ذهلت آنا فلاسيفنا وراحت تتحرَّك بانفعال.

- «آه، يا إلهي!»، هتفت، «الإمبراطورة تطلبك إلى القصر. ترى، كيف عرفت بقدومك؟ وكيف، يا أمِّي، ستقدِّمين نفسك إلى الإمبراطورة؟ أنت حتى لا تعرفين كيف يمشون في القصر... هل يجب عليَّ أن أرافقك؟ أنا، على كلِّ حال، قد أجنَّبك الوقوع في بعض الأخطاء. وكيف ستذهبين إلى القصر بثياب السفر؟ ألا يجب أن نطلب من الجدة القابلة أن تُعيرنا ثوبها الأصفر؟».

غير أنَّ خادم القصر أعلن أنَّ القيصرة تريد من ماريا إيفانوفنا أن تأتي بمفردها، وبالثوب الذي هي فيه. لم يبقَ أمامهما ما يمكن عمله. جلست ماريا إيفانوفنا في العربة منطلقة إلى القصر، ترافقها نصائح آنا فلاسيفنا وتبريكاتها.

شعرت ماريا إيفانوفنا باقتراب القرار الذي يحدِّد مصيرنا، فراح قلبها يخفق بقوة تارة، وينقبض تارة، توقَّفت العربة بعد دقائق عند القصر. وصعدت الدرج مضطربة. كانت الأبواب تفتح أمامها على مصاريعها. اجتازت صفاً طويلاً من الغرف الرائعة الخالية، وكان خادم القصر يدلُّها على الطريق. وصل أخيراً إلى باب مغلق، فأخبرها أنه سيبلغ الآن عن وصولها، ثم تركها وحيدة ومضى.

فكرة مقابلة الإمبراطورة وجهاً لوجه أخافتها، حتى أنَّها كادت تعجز عن الوقوف على ساقها. فُتح الباب بعد دقيقة ودخلت إلى غرفة زينة القيصرية.

كانت الإمبراطورة جالسة إلى طاولة زيتنها، وقد أحاطت بها بعض وصيفاتها اللواتي أفسحن الطريق باحترام لماريا إيفانوفنا. التفتت الإمبراطورة نحوها بمودة، فعرفت ماريا إيفانوفنا فيها تلك السيِّدة التي تحدَّثت معها بصراحة شديدة قبل فترة وجيزة. نادتها القيصرية، وقالت لها باسمه:

- أنا سعيدة لأنِّي وفيت بوعدِي لك ونفَّذت طلبك. قضيتك تمَّ حلُّها. أنا مقتنعة ببراءة خطيبك. خُذي هذه الرسالة واحملها بنفسك إلى حميك.

أمسكت ماريا إيفانوفنا الرسالة بيد راجفة ثم بكت وارتمت عند قدَمي الإمبراطورة، فأنهضتها الإمبراطورة وقبَّلتها، ثم تبادلَت الحديث معها.

- «أنا أعرف أنَّك لست غنيَّة»، قالت القيصرية، «لكنِّي مدينة لابنة النقيب ميرونوف. لا تخافي من المستقبل. سأخذ على عاتقي مسألة تسوية وضعك المادِّي».

سمحت القيصرية للتيمة المسكينة بالمغادرة بعد أن طيَّبت خاطرها. فغادرت ماريا إيفانوفنا بالعربة القيصرية نفسها. آنا فلاسيفنا التي كانت تنتظر عودتها بفارغ الصبر، أمطرتها بالأسئلة، فراحت تُجيبها من دون تركيز. لم تكن آنا فلاسيفنا راضية عن ضعف ذاكرة الفتاة، لكنَّها عزت ذلك إلى خجلها الريفي وسامحتها برحابة صدر. وفي اليوم نفسه غادرت ماريا إيفانوفنا بـيتربورغ عائدة إلى القرية من دون أن يَتملَّكها فضول الفرجة على المدينة.



هنا تنتهي مذكَرات بيتر أندرييتش غرينيف، ومعروف من أحاديث الأسرة أنَّه خرج من السجن في أواخر عام 1774، بأمر خاصٍّ من الإمبراطورة، وأنَّه حضر إعدام بوغاتشوف الذي عرفه في الحشد، فحيَّاه بإحناءة من رأسه الذي مات مضرباً بالدم بعد دقيقة، وعرضوه على الناس. بعد ذلك بوقت وجيز

تزوّج بيتر أندرييتش بماريا إيفانوفنا. أحفادهما يعيشون في بحبوحة في مقاطعة سيمبيرسك، وعلى بعد ثلاثين فرسخًا من --- توجد بلدة يملكها عشرة إقطاعيين. في أحد بيوتهم يعرضون رسالة يكتيرينا الثانية خلف زجاج مؤطر. الرسالة موجّهة إلى والد بيتر أندرييتش وتحتوي تبرئة ابنه ومديحًا لعقل وقلب ابنة النقيب ميرونوف. مذكّرات بيتر أندرييتش غرينيف المخطوطة وصلت إلينا عن طريق حفيد له عرف أننا نشتغل على عمل يتعلّق بالزمن الذي يصفه جدّه في المذكّرات. وقد قرّنا بعد موافقة أقاربه أن ننشره في كتاب خاصّ، منتقين لكلّ فصل، كمقدّمة، مقبوسًا يناسب موضوعه، سامحين لأنفسنا بتغيير بعض الأسماء.

الناشر<sup>(1)</sup>

---

(1) الناشر بوشكين نفسه، وكانت له دار نشر اسمها «سوفريمينيك» أي «المعاصر».

## الفصل المحذوف<sup>(1)</sup>

اقتربنا من ضفاف الفولغا، ودخل فوجنا قرية -- فتوقَّفنا فيها للمبيت. أبلغني عمدة القرية أنَّ جميع القرى التي على الضفة الأخرى تمرَّدت، وعصابات بوغاتشوف تصول وتجول في كلِّ مكان. أقلقني ذلك الخبر كثيرًا. كنَّا سنعبّر النهر في صباح اليوم التالي. لكنَّ نفاذ الصبر تملَّكني. قرية والذي تبعد نحو ثلاثين فرسخًا على الضفة المقابلة. سألت عمَّن يساعدني في عبور النهر. جميع الفلاحين كانوا صيَّادين، والقوارب كانت كثيرة. ذهبت إلى غرينيف وأبلغته رغبتي.

- «حاذرا!»، قال لي، «سفرك بمفردك يعرِّضك للخطر. انتظر حتى الصباح. سنعبّر قبل الجميع، ونرسل إلى أهلك خمسين فارسًا ضيفًا، من باب الاحتياط».

أصررت على موقفي، وجُهِز القارب. ركبته مع مجذفين اثنين، دفعا القارب بعيدًا عن الضفة، وضربا الماء بمجذافيهما.

السماء صافية، والقمر يشعُّ، والطقس ساكن، والفولغا ينساب في رتابة وهدوء، والقارب يعوم مرتعشًا، وينزلق بسرعة فوق الأمواج الداكنة، وأنا غارق في أحلام خيالي. مضى قرابة نصف ساعة. وكنَّا قد بلغنا منتصف النهر... وفجأة بدأ المجذفان يتهامسان.

---

(1) لم يدخل هذا الفصل في النسخة المطبوعة من «ابنة أمير القلعة» ولكنه بقي في مسودة الرواية، حيث يسمِّي الكاتب في نصّه غرينيف بولانين، ويسمِّي زورين غرينيف.

- «ما الأمر؟»، سألتهما حين انتهت من شرودي.

- «لا ندري، الله أعلم»، أجاب المجذفان وهما ينظران إلى إحدى الجهات.

ذهبت عيناى نحو الجهة نفسها، فرأيت في العتمة شيئاً ما يعوم في الفولغا نحونا. ثمّة جسم غريب يقترب منّا. أمرت المجذفين بالتوقّف وانتظاره. اختفى القمر وراء الغيمة. صار الجسم العائم أكثر غموضاً. صار أكثر قرباً منّي، ولكنّي ظللت لا أميّزه.

- «ماذا يمكن أن يكون»، تساءل المجذفان، «إنّه ليس شراعاً، وليس سارية»...

وفجأة، بزغ القمر من وراء الغيمة فأضاء مشهداً فظيلاً. ثمّة مشنقة مثبتة على طوف كانت تعوم مقتربة منّا، وقد علّقت على عارضتها ثلاث جثث. تملّكني فضول مرّضي، ورغبت في إلقاء نظرة على وجوه المشنوقين.

علّق المجذفان الطوف بقاربنا بناء على أمر منّي، فاصطدم قاربنا بالمشنقة العائمة. قفزت من القارب إلى ما بين عمودي المشنقة الفظيعين. أضاء القمر وجوه المشنوقين التعساء المشوّهة، أحدهم كان تشوفاشيّاً، والثاني فلاحاً روسيّاً قويّاً، ممتلئ الجسم في نحو العشرين من عمره، لكنّي حين نظرت إلى الثالث ذهلت بشدّة، ولم أستطع منع نفسي من إطلاق صرخة حزن، فقد كان الثالث فانكا، صاحبنا فانكا المسكين، الذي دفعه غباؤه للالتحاق ببوغاتشوف. وقد علّقت فوق جثث الثلاثة لوحة سوداء كتب عليها بحروف بيضاء كبيرة: «لصوص وتمرّدون». المجذفان كانا ينظران من دون مبالاة، وينتظرانني، ممسكين بالحبل الذي يشدّ الطوف. عدت إلى القارب، وتابع الطوف عومه في مجرى النهر، وظلّت المشنقة تلوح جسمًا أسود في العتمة. لكنّها اختفت أخيراً، ورسا قاربي إلى الضفّة الصخرية المرتفعة...

دفعت للمجذفين بسخاء. قادني أحدهما إلى مختار القرية المقيم قرب شاطئ النهر، ودخلت معه إلى بيته. حين سمع المختار أنّي أطلب خيلاً،

استقبلني بفضاظة شديدة، غير أنَّ دليلي همس في أذنه بوضع كلمات، فتبدَّلت فظاظته في الحال إلى خدمة سريعة. جُهِّزَت الترويكا في دقائق، فجلست في العربة وأمرت الحوذي بالانطلاق إلى قريتنا.

كنَّا على طريق السفر، نمُرُّ بالقرب من القرى النائية، وكنت أخشى أمرًا واحدًا، هو أن نضطر إلى التوقُّف. صحيح أنَّ ما لقيناه ليلاً في الفولغا دليل على وجود المتمرِّدين، ولكنَّ ذلك هو، في الوقت نفسه، دليل على شدة محاربة الحكومة لهم. لقد كنت أحمل في جيبِي، احتياطًا، تصريح المرور الذي أعطانيه بوغاتشوف، وأمر العقيد غرينيف. غير أنَّني لم ألتق أحدًا في الطريق. وعند حلول الصباح رأيت النهر وخرج السرو الذي تقع قريتنا خلفه. ساط الحوذي الخيل، وبعد ربع ساعة كنت أدخل قرية ---.

كان بيت المالك يقع في الطرف الآخر من القرية، وكانت الخيول تعدو بأقصى سرعتها. وفجأة، شرع الحوذي يهدِّئ الخيول في منتصف الشارع.

- «ما الأمر؟»، سأله نافذ الصبر.

- «حاجز يا سيِّد»، أجابني الحوذي الذي أوقف الخيول المهتاجة بصعوبة.

ورأيت، فعلاً، حاجزًا وحارسًا يحمل هراوة. اقترب الرجل مِنِّي وخلع قَبْعته، وهو يطلب بطاقتي الذاتية.

- «ما معنى هذا؟»، سأله، «لماذا هذا الحاجز؟ ومن تحرس؟».

- «نحن، يا أبت، متمرِّدون»، أجابني وهو يحكُّ رأسه.

- «وأين سادتكم؟» سأله بقلب واجف...

- «أين سادتنا؟»، كَرَّر الفلاح، «سادتنا في عنبر المؤمن».

- كيف، في العنبر؟

- إنَّه أندريوخا، المسؤول، سجنهم بالسلاسل، يريد إرسالهم إلى أبينا القيصر.

- يا إلهي! أزع الحاجز أيُّها الأبله. ما بالك ما تزال واقفًا تتشاءب؟

تباطأ الحارس، فقفزت من العربة وناولته صفة (ليغفر لي الرب) على أذنه، ثم رفعت بنفسها الحاجز، أمّا الفلاح فظلّ ينظر إليّ في حيرة غبيّة. صعدت مجدّداً إلى العربة وأمرت الحوذي بالتوجّه إلى منزل المالك. عنبر المؤمن موجود في الفناء، وعند بابه المغلق بالقفل وقف فلاحان يحملان هراوتين أيضاً. توقّفت العربة أمامهما تماماً. قفزت منها وهجمت عليهما مباشرة.

- «افتحا الباب!»، قلت لهما.

يبدو أنّ منظري كان مخيفاً. أو أنّه على الأقل، أخافهما، فهربا تاركين الهراوتين. حاولت كسر القفل وتحطيم الباب، غير أنّه كان من خشب السنديان، والقفل كان ضخماً، لا يُمكن كسره. في هذه اللحظة ظهر من غرفة الخدمة فلاح شابّ حسن المظهر، وسألني بلهجة متعالية كيف أجروا على العربة؟

- «أين أندريوشكا، المسؤول؟»، صرختُ في وجهه، «ناده لمقابلتي».

- «أنا نفسي أندريه أفاناسيفيتش، ولست أندريوشكا»، أجبني باعتزاز متنفّجاً، «ماذا تريد؟».

وبدلاً من أن أجيبه، أمسكته من ياقة ثوبه وجرفته إلى باب العنبر، وأمرته أن يفتحه. حاول الرجل المعاندة، غير أنّ العقاب «الأبوي» أثر فيه. أخرج المفتاح من جيبه وفتح باب العنبر. اندفعت إلى الداخل، وفي زاوية مظلمة، مضاءة بنور ضعيف ينسلّ إليها من طاقة ضيّقة مفتوحة في السقف، رأيت أمّي وأبي. كانت أيديهما مقيدة وأرجلهما في الأصفاد. هرعت إليهما، أعانقهما من دون أن أتمكّن من النطق بكلمة. راح الاثنان ينظران إليّ بدهشة، فقد غيّرتني ثلاثة أعوام من الخدمة العسكرية، تغييراً جعلهما لا يعرفانني. وأخيراً، تأوّهت أمّي وانهمرت دموعها.

وفجأة، سمعت صوتاً حبيباً أعرفه:

- أهذا أنت يا بيتر أندرييتش!!

جمدتُ في مكاني... التفتُ فرأيت في زاوية أخرى ماريا إيفانوفنا مقيدة

أيضاً.



- نظر أبي إليّ في صمت وهو لا يجروء على أن يصدّق عينيه. كان الفرح يلتصق على وجهه. أمّا أنا فأسرعت أمزّق بالسيف عقد الجبال التي تقيدهم.
- «مرحبًا، مرحبًا، يا بيتروشا»، قال أبي وهو يضمّني إلى صدره، «الحمد لله الذي أحيانا حتى رأيناك»...
- «بيتروشا يا صديقي»، قالت أمّي، «ما أجمل أن قادك الربُّ إلينا! هل أنت بخير؟».
- أسرعت في إخراجهم من الأسر، لكن، حين وصلنا إلى الباب وجدته مقفلاً من جديد.
- «أندريوشكا»، صحت، «افتح الباب؟».
- «لا تحلم بذلك»، أجاب أندريوشكا من وراء الباب، «اجلس أنت أيضًا هنا، وسنعلّمك كيف تعربد وتجزّ موظّفي القيصر من ياقات أثوابهم!».
- رحت أتفحص العنبر باحثًا عن وسيلة للخروج.
- «لا تعذب نفسك»، قال لي والدي، «أنا لست ذلك المالك الذي يمكن أن يجد اللصوص في عنابره ثغرات يدخلون ويخرجون منها».
- أمّي، التي فرحت بقدومي فترة وجيزة، غرقت في اليأس، حين رأت أنّي، أنا أيضًا، سأشارك الأسرة في موتها الجماعي.
- أمّا أنا فقد بثّ أكثر هدوءًا منذ أن صرت معهم ومع ماريا إيفانوفنا. كنت أحمل سيفي ومسدّسين، وما زلت قادرًا على تحمّل الحصار. غرينيف يجب أن يصل عند المساء ويحرّرنا. أخبرت والديّ بذلك كلّ، واستطعت أن أهدئ من روع أمّي، واستسلم الجميع لفرحة اللقاء.
- «حسنًا، يا بيتّر»، قال أبي، «لقد ارتكبت أخطاء كثيرة، وأنا كنت حانقًا عليك كثيرًا. لكن، لا داعي لتذكّر الماضي. آمل أن تكون الآن قد شبت من طيشك، وانصلحت. أنا أعرف أنّك خدمت كما يجب أن يخدم الضابط النزيه. شكرًا لك على ذلك، فقد أرضيتني أنا العجوز،

وحياتي ستكون سعيدة سعادة مضاعفة ما دمْتُ مديناً لك بالخلاص  
من هذا الأسر».

قَبِلَتْ يده ودموعي تنهمر، ونظرت إلى ماريا إيفانوفنا التي كانت فرحة  
للعناية بوجودي، فبدت سعيدة ومطمئنة تماماً.

في منتصف النهار تقريباً، سمعنا ضجّة وصيحات غير عادية.

- «ما معنى هذا»، قال أبي، «أتراه عقيدك قد وصل؟».

- «هذا مستحيل»، أجبته، «لن يصل قبل المساء».

ازداد الضجيج وقُرعت الطبول. وعدا في الفناء فرسان على خيولهم، وفي  
هذه اللحظة أطلَّ عبر شقٍّ ضيّق في الجدار رأس سافيليتش الأشيب، ونطق  
صاحبي العجوز بصوت حزين:

- أندريه بتروفيتش، أفدوتيا فاسيليفنا، يا أبتِ بيتر أندرييتش، ويا ماما

ماريا إيفانوفنا، لقد حَلَّت مصيبة! الأشرار دخلوا البلدة. لكن، هل

تعرف يا بيتر أندرييتش من قادهم إلى هنا؟ إنّه شفابرين أليكسي

إيفانيتش، ليت الشياطين تأخذه!

حين سمعت ماريا إيفانوفنا الاسم الذي تكرهه صفقت بيديها وجمدت من

دون حراك.

- «اسمع!»، قلت لسافيليتش، «أرسل رسولاً على فرس إلى المعبر عند

ضفّة النهر ليلتقي فوج الفرسان، ومُرّه أن يبلغ قائد الفوج عن الخطر

الذي نحن فيه.

- ومن سأرسل يا سيّدي! الفتيان كلّهم متمرّدون، والخيول نُهبت كلّها!

ويلي! ها هم وصلوا إلى الفناء، وسيصلون إلى العنبر.

في هذه الأثناء، تعالت وراء الباب عدّة أصوات. أشرت في صمت إلى أمّي

وماريا إيفانوفنا، طالبتا منهما الابتعاد إلى الزاوية، ثم جرّدت سيفي واستندت

إلى الجدار قرب الباب مباشرة. أبي أخذ المسدّسين وهيأهما للإطلاق، ووقف

إلى جانبي. علت قرعة القفل ثم فُتح الباب وظهر رأس أمير القرية. ضربت

الرأس بسيفي فوق الأمر أرضًا مغلقًا المدخل. أطلق والذي النار على الباب في الوقت نفسه. فرَّ الحشد الذي يحاصرنا وهو يطلق اللعنات. سحبت الجريح عن العتبة وأغلقت الباب بالمزلاج من الداخل. كان الفناء ممتلئًا بالمسلَّحين، وعرفت بينهم شفايرين.

- «لا تخافا»، قلت للمرأتين، «هناك أمل. أمّا أنت يا والذي فلا تُطلق النار. دعنا نحفظ بآخر طلقة».

كانت أمِّي تصلّي للربِّ في صمت، وقد وقفت ماريا إيفانوفنا إلى جانبها، يتملّكها هدوء ملائكي في انتظار مصيرنا. تعالت وراء الباب التهديدات والشتائم واللعنات. ظللت واقفًا في مكاني مستعدًا، أنتظر أوّل من يجرؤ على اقتحام العنبر. وفجأة صمت الأشرار، وسمعت صوت شفايرين ينادي باسمي.

- أنا هنا، ماذا تريد؟

- استسلم يا بولانين، المقاومة لا تُجدي. ارحم عجوزيك. أنت لن تنقذ نفسك بعنادك. لن تفلت مني مهما فعلت.

- حاول أيُّها الخائن!

- أنا لن أخوض معركة لا معنى لها، ولن أعرض رجالي للضباع. سأمّر بإحراق العنبر، وحينذاك سنرى ماذا ستفعل، يا دون كيشوت بيلوغورسك. أمّا الآن فحان وقت الغداء. وفي هذا الوقت تستطيع أن تجلس وتفكّر كما يحلو لك. وداعًا يا ماريا إيفانوفنا، أنا لا أعتذر أمامك: أغلب الظنّ أنّك لست ضجرة في العنبر المعتم مع فارس أحلامك.

غادر شفايرين بعد أن وضع حرسًا حول العنبر. أمّا نحن فبقينا صامتين. كلّ منّا كان يفكّر في داخله، ولا يجرؤ على إبلاغ الآخرين أفكاره. تخيلت كلّ ما يستطيع شفايرين الحاقده فعله. كنت أكاد لا أفكّر في نفسي. والحقّ أنّ مصير والذي أيضًا لم يكن يُخيفني بقدر ما يخيفني مصير ماريا إيفانوفنا. أنا أعرف أنّ الفلاحين والخدم كانوا يُحبُّون أمِّي إلى حدّ العبادة. وأنّ أبي، على الرغم من

صرامته، كان محبوبًا أيضًا، لأنّه عادل، يعرف الحاجات الحقيقية لمخدوميه. لقد كان تمرّدهم ضياعًا، حالة سُكْر لحظيّة، ولم يكن تعبيرًا عن غضب في نفوسهم، لذا كان ثمة مجال للرحمة هنا. ولكن، ماذا عن ماريا إيفانوفنا؟ أيّ مصير أعدّه لها هذا الإنسان المتهتّك الذي لا ضمير له؟ لم أجروْ على التوقّف عند هذه الفكرة الفظيعة، ورحت أستعدّ، ليغفر لي الربُّ، لقتلها، فذلك أفضل من أن أراها ثانية بين يديّ هذا العدو القاسي.

انقضت ساعة تقريبًا. علا في القرية صوت أغاني السكارى الذين حسدهم حرّاسنا فراحوا يصبّون غضبهم علينا، يشتموننا، ويهدّدوننا بالتشقيف والموت. كنّا ننتظر عواقب تهديدات شفابرين. وجرت، أخيرًا، حركة كبيرة في الفناء، وسمعنا صوته من جديد.

- هل فكّرتم في الأمر؟ هل قرّرتم الاستسلام لي طوعًا؟  
لم يُجِبْه أحد. انتظر شفابرين قليلًا، ثم أمر بإحضار القشّ. وبعد بضعة دقائق، اشتعلت النار فأضاءت العنبر المظلم، وبدأ الدخان يتسلّل إلى الداخل من شقوق تحت العتبة. عند ذلك اقتربت منّي ماريا إيفانوفنا، وقالت بصوت منخفض وهي تمسك يدي:

- كفى، يا بيتر أندرييتش! لا تقتل نفسك وأهلك من أجلي. اتركني أخرج، شفابرين سيصغي إلى كلامي.  
- «ولا بأيّ ثمن»، صرخت غاضبًا، «أعرفين ما الذي ينتظرك؟».  
- «لن أستطيع العيش إذا دُنُس شرفي»، أجابت بهدوء، «ولكنّي قد أنقذ مخلصي، والأسرة التي رعت يُتمي البائس برحابة صدر. وداعًا يا أندريه بتروفيتش، ويا أفدوتيا فاسيلييفنا، لقد كنتما أكثر من راعيين لي... باركاني. واغفر لي أنت أيضًا يا بيتر أندرييتش. كونوا على ثقة من أنّي مهما حدث...»

هنا أجهشت بالبكاء وغطّ وجهها بيديها... أمّا أنا فكنت كالمجنون، وكانت أمّي تبكي.

- «كفى هراء، يا ماريا إيفانوفنا»، قال أبي، «من ذا الذي ستركك وحدك مع اللصوص! اجلسي هنا واصمتي. فلنمت معًا إذا كان لا بد من الموت. اسمعي! ماذا يقولون هناك؟».
- «ألن تستسلموا؟»، صاح شفابرين، «أترون؟ بعد خمس دقائق سيحرقونكم».
- «لن نستسلم أيُّها الشرِّير!»، أجاب أبي بصوت ثابت.
- كان وجهه الذي تغطَّيه التجاعيد مشرقًا بنشاط مدهش، وعيناه تلتمعان تحت حاجبيه الأشيبين التماعًا يبعث الرهبة.
- الآن حان وقت التحرك!
- فُتح الباب، فاندفعت النار والتفت حول الأعمدة الخشبية المكسوة شقوقها بأغصان جافة. أطلق أبي النار من مسدَّسه وخطا فوق العتبة الملتهبة وهو يصرخ:
- ورائي!
- أمسكتُ يد أمِّي ويد ماريا إيفانوفنا وأخرجتهما بسرعة إلى الهواء الطلق. كان شفابرين ممددًا عند العتبة مصابًا بطلقة من يد أبي العجوز، أمَّا اللصوص الذين هربوا نتيجة هجومنا المفاجئ، فمالكوا أنفسهم وبدؤوا يطوِّقوننا. استطعت أن أوجِّه عدَّة ضربات بسيفي، لكنَّ حجرًا سدَّه أحدهم بنجاح أصابني في صدري مباشرة فسقطت، وفقدت الوعي برهة، وحين أفتت رأيت شفابرين جالسًا فوق العشب الملطَّخ بالدم، وأمامه جميع أفراد أسرتي. أمسكني المهاجمون من تحت إبطي. وأحاط بنا حشد من القوزاق والبشكيريين. كان شفابرين شاحبًا شحوبًا فظيعةً، يضغط بإحدى يديه خاصرته الجريحة، كان وجهه يعبر عن الألم والحقد. رفع رأسه ببطء ونظر إليَّ، ثم قال بصوت ضعيف وغير واضح:
- اشنقوه... اشنقوهم جميعًا... ما عداها.
- طوَّقنا حشد من الأشرار وجرُّونا جرًّا نحو البوابة وهم يُطلقون الصيحات. لكنَّهم تركونا فجأة وتفرَّقوا راكضين، فقد دخل من البوابة غرينيف يتبعه رتل كامل من الخيالة شاهرين سيوفهم.

فَرَّ المتمرّدون في شتّى الاتّجاهات، وطاردهم الفرسان، يطعنونهم بالسيف ويأسرونهم. قفز غرينيف عن ظهر حصانه، وانحنى محيّا والديّ، وشدّ على يدي بقوة.

- «لقد وصلت في الوقت المناسب»، قال لنا، «آه! هذه هي عروسك». اصطبغ وجه ماريا إيفانوفنا بالحُمرة حتى الأذنين. اقترب أبي منه وشكره وكان هادئًا، رغم شدّة تأثره. أمّي عانقته وسمّته الملاك المخلّص.

- «تفضّل بزيارتنا»، قال له أبي وقاده إلى منزلنا. عند مرورنا بالقرب من شفابرين. توقّف غرينيف.

- «من هذا؟»، سأل وهو ينظر إلى الجريح.

- «إنّه القائد نفسه، رئيس العصاة»، أجابه والدي ببعض الزهوّ الذي

يميّز المحارب القديم، «لقد أمّد الله يديّ العجوز بالقوّة لأعاقب هذا

الشّرير الشابّ وأثار لدم ابني منه».

- «إنّه شفابرين»، قلت لغرينيف.

- شفابرين! هذا يسرّني للغاية. أيّها الفرسان! خذوه! وقولوا لطبيّنا أن

يضمّد جرحه ويحافظ عليه كحدقة عينه. يجب تقديمه إلى شرطة

كازان السريّة. إنّه واحد من المجرمين الأساسيين، ولا بدّ من أن

تكون إفادته مهمّة جدًّا.

ألقي شفابرين نظرة مرهقة. وجهه لم يكن يعبّر عن شيء غير الألم الجسدي.

حملة الفرسان على قطعة مشمّع وغادروا.

دخلنا إلى الغرف. نظرت حولي بانفعال متذكّرًا سنوات طفولتي. لم يتغيّر

شيء في البيت. كلّ شيء باقٍ في مكانه. شفابرين لم يسمح بنهبه، محافظًا، رغم

سفالته، على نفور لا إرادي من الكسب غير الشريف. ظهر الخدم في المدخل.

لم يشاركوا في التمرد، وابتهجوا من أعماق قلوبهم بخلاصنا. وتملّك الشعور

بالظفر سافيليتش. لا بدّ من أن نعرف أنّه في أثناء الخطر الذي سبّبه هجوم

الصوص، هرب إلى الإسطل، حيث كانت تقف فرس شفابرين، أسرجها،

ثم أخرجها من الإصطبل بهدوء. وبفضل الفوضى، امتطأها وانطلق، من دون أن يلحظه أحد، إلى ضفة النهر. التقى الفوج الذي كان يرتاح على هذه الضفة من الفولغا بعد أن عبر النهر، وعرف منه غرينيف بالخطر الذي يُحيق بنا، فأمر بامتطاء الخيل والانطلاق عدوًا، فوصل، والحمد لله، في الوقت المناسب. عاد الفرسان من المطاردة وقد أسروا عددًا من الرجال، فسجنوهم في العنبر المعروف نفسه، الذي كنّا مُحاصرين فيه.

وأصرَّ غرينيف على أن يعلّق رأس المسؤول الذي عيَّنه بوغاتشوف، على وتدٍ عدّة ساعات أمام الخمارة.

تفرّقنا إلى غرفنا، فالعجوزان كانا بحاجة إلى الراحة. وأنا، بعد أن قضيت الليل كلّهُ من دون نوم، ارتمت على السرير وغرقت في نوم عميق. أمّا غرينيف فمضى ليصدر أوامره.

اجتمعنا في المساء في غرفة المعيشة بالقرب من السماور، ونحن نتحدث بمرح عن الخطر الذي زال. صَبَّت ماريا إيفانوفنا الشاي، وجلست أنا إلى جانبها منشغلاً بها وحدها. وراح أبواي ينظران برضا إلى علاقتنا. أنا لم أنسَ حتى الآن ذلك المساء الذي ما زال حيًّا في ذاكرتي. لقد كنت سعيدًا، سعيدًا تمامًا، تُرى هل تمرُّ لحظات كثيرة كذلك في حياة الإنسان البائسة؟

في اليوم التالي، أبلغوا والدي أنّ الفلاحين جاؤوا إلى فناء منزلنا معبرين عن طاعتهم. خرج أبي إلى الشرفة للقائهم. عند ظهوره، جثا الفلاحون على رُكبهم.

- «حسنًا، وماذا بعد أيُّها الأغبياء»، قال لهم، «لماذا تمردتم؟».
- «نحن مذنبون يا مولانا»، أجابوه بصوت واحد.
- هو ذا، مذنبون، تمردتم فبتم أنفسكم غير سعداء. أعفو عنكم كرمي لله الذي أسعدني بقاء ابني بيتر أندرييتش.
- مذنبون، مذنبون! طبعًا، مذنبون.
- حسنًا، طيّب، السيف لا يقطع الرأس الذي يعترف بذنبه. لقد منحنا

الله طقساً جافاً هذه الأيام وحان وقت جمع القش، فماذا فعلتم أنتم أيُّها الأغبياء طول ثلاثة أيَّام كاملة؟ يا كبير الفلاحين! حضّر الجميع لحصاد القش، واحرص أيُّها الشيطان الأحمر الشعر، أن يكون كله مجموعاً عندي في رُزم قبل يوم القديسة يلينا. انصرفوا.

انحنى الفلاحون تحيّة له، ومضوا إلى المزرعة كأنّ شيئاً لم يكن. جرحُ شفابرين لم يكن قاتلاً، فاقتادوه تُرافقه دوريّة حراسة إلى كازان. شاهدت عبر النافذة كيف مدّدوه في العربة، والتقت نظراتنا فأطرق برأسه، أمّا أنا فابتعدتُ بسرعة عن النافذة. كنت أخشى أن أبدو مزهواً بالنصر على عدوّ تعيس، ذليل.

كان على غرينيف أن يتابع تقدّمه، فقرّرت أن أتبعه بغضّ النظر عن رغبتني في البقاء عدّة أيَّام إضافية مع عائلتي. وفي عشية المسير، جئت إلى والديّ وارتيميت عند أقدامهما محيياً بحسب عادات ذلك الزمن، وطالباً مباركتهما لزواجي من ماريا إيفانوفنا. طلب منّي العجوزان الوقوف وأعلنا، ودموع الفرح في عيونهما، موافقتهما على طلبي، فأحضرتُ ماريا إيفانوفنا شاحبة مضطربة، وباركانا... لن أصف ما شعرت به آنذاك. من مرّ بوضع كوضعي سيفهمني، أمّا من لم يمرّ فلا أستطيع إلّا أن أشفق عليه وأنصححه، ما دام الوقت لم يفت، بأن يُحبّ ويحظى بمباركة أبويه.

في اليوم التالي، استعدّ الفوج للرحيل. فودّع غرينيف أسرتي. كنّا جميعاً واثقين من أنّ الأعمال الحربية ستنتهي قريباً، وكنت أحلم بأن أكون زوجاً خلال شهر. ودّعني ماريا إيفانوفنا وقبّلتني أمام الجميع. امتطيت جوادي، وتبعني سافيليتش من جديد، وتحركّ الفوج مغادراً.

ظللت طويلاً أنظر من بعيد إلى البيت الريفي الذي أغادره للمرّة الثانية. وتملّكني إحساس بنوّة قاتمة مقلقة، وكأنّ أحدهم همس لي بأنّ مآسيّ لم تنته بعد، وتنبأ قلبي بحدوث عاصفة.

لن أصف حملتنا ونهاية الحرب ضدّ بوغاتشوف. مررنا بالبلدات التي نهبها



بوغاتشوف، وأخذنا، رُغمًا عنّا، ما تركه قُطَاع الطُّرُق للسكّان الفقراء.

هم لم يكونوا يعرفون لأي سلطة يخضعون، فالإدارة معطّلة في كلّ مكان. والإقطاعيّون هربوا إلى الغابات، وعصابات قُطَاع الطُّرُق تصول وتجول ناشرة ضرورها في كلّ مكان. وقادة الفصائل المُرسلة لمطاردة بوغاتشوف الذي كان آنذاك يفرُّ باتجاه آستراخان، يعاقبون المذنبين والأبرياء على هواهم ومن دون أيّ ضابط... كانت كلّ المنطقة التي اشتعل فيها الحريق في حال سيئة مرعبة. لا قدّر الله لنا أن نرى تمرّدًا روسيًّا، إنّه تمرّد لا معنى له، ولا يعرف الرحمة. إنّ أولئك الذين يفكّرون في انقلابات مستحيلة عندنا، إمّا أن يكونوا فتيانًا لا يعرفون شعبنا، وإمّا أنّهم أناس قساة القلوب، لا تعني لهم رؤوس الآخرين شيئًا، ولا تساوي عصابتهم عندهم كوبيكًا واحدًا.

هرب بوغاتشوف يُطارده إيف. إيف. ميخيلسون، وسرعان ما سمعنا عن هزيمته التامة. وأخيرًا، تلقّى غرينيف من الجنرال قائده خبر اعتقال القيصر الدعيّ، وأمّرًا بالتوقّف في الوقت نفسه. وهكذا صرت أخيرًا قادرًا على العودة إلى البيت. أشعرني ذلك بالفرح. ولكنّ شعورًا غريبًا بالحزن كان يعكّر بهجتي.

- انتهى -



## المحتويات

7	مقدمة: التنوير في أعمال بوشكين الثرية .....
15	حبشي بطرس الأكبر .....
17	الفصل الأول .....
24	الفصل الثاني .....
31	الفصل الثالث .....
39	الفصل الرابع .....
46	الفصل الخامس .....
53	الفصل السادس .....
59	الفصل السابع .....
61	دوبروفسكي .....
63	الجزء الأول .....
63	الفصل الأول .....
72	الفصل الثاني .....
79	الفصل الثالث .....
85	الفصل الرابع .....
88	الفصل الخامس .....
94	الفصل السادس .....

100	الفصل السابع
102	الفصل الثامن
107	الجزء الثاني
107	الفصل التاسع
117	الفصل العاشر
121	الفصل الحادي عشر
127	الفصل الثاني عشر
133	الفصل الثالث عشر
137	الفصل الرابع عشر
139	الفصل الخامس عشر
142	الفصل السادس عشر
145	الفصل السابع عشر
152	الفصل الثامن عشر
155	الفصل التاسع عشر
159	ابنة أمير القلعة
161	الفصل الأول: رقيب في الحرس
171	الفصل الثاني: الدليل
182	الفصل الثالث: القلعة
190	الفصل الرابع: المباراة
200	الفصل الخامس: الحب
209	الفصل السادس: تمرّد بوغاتشوف
220	الفصل السابع: الاجتياح
228	الفصل الثامن: الضيف المتطفّل

238	.....	الفصل التاسع: الفراق
244	.....	الفصل العاشر: حصار المدينة
252	.....	الفصل الحادي عشر: في قرية المتمرّدين
265	.....	الفصل الثاني عشر: اليتيمة
273	.....	الفصل الثالث عشر: الاعتقال
281	.....	الفصل الرابع عشر: المحاكمة
293	.....	الفصل المحذوف

مكتبة  
t.me/t\_pdf

## ”هي بحث عميق وشريف وجادٌ عن الحقيقة، وتحليل للتناقضات الوجود الأبدية“

هكذا تحدّث بوشكين عن أعماله النثرية، وهذا خير تقديم لها، وجد شاعر روسيا الأشهر في النثر مساحة أرحب لدراسة ظواهر اجتماعية محدّدة تواجه قوانين الحياة الإنسانية الشاملة، ما جعل النقاد على مرّ الأزمنة يصفونها بأنها ”معاصرة أبدًا“، صاغتها عبقريّته صياغة لا مثيل لانسجامها وتماسكها وجمالها، في هذا الكتاب وجزئه الثاني، ”الأعمال القصصية“، يكمل بوشكين رسم بانوراما المجتمع الروسي، بمختلف طبقاته في تلك المرحلة الصاخبة سياسيًا واجتماعيًا من تاريخ الامبراطورية الروسية، من نهاية القرن 18 وحتى الثلث الأوّل من القرن 19.

**بوشكين** أحد أشهر مبدعي روسيا، شاعر وروائي ومسرحي، ولد في موسكو عام 1799. كان والده من عائلة أرسنقراطية، وترجع جذوره إلى أصول أفريقية من جهة جدّه لوالدته. تعلم اللغة الفرنسية إلى جانب الروسية وقضى الكثير من وقته في القراءة. نُفي إلى يكاترينوسلاف ثم شمال القفقاس وشبه جزيرة القرم وأوديسا وغيرها، وقد منحته مشاهداته أفقًا خاصًا لإبداعه. سمع له القيصر نيكولاس الأوّل بالعودة إلى موسكو في عام 1826. تزوّج من الكاتبة ناتاليا نيكولايفنا غونشاروفا عام 1831. توفّي وله من العمر 37 بعد دخوله في مبارزة في عام 1837.

من أبرز أعماله قصائد روسلان ولودميلا، أسير القفقاس، يفغيني أونيفين، ومسرحيتا ضيف بطرس، الوليمة في زمن الطاعون.

